

التَّيْسِيَّةُ
فِي
أَحَادِيثِ النَّفْسِيَّةِ

مِنْ أَمَلَاءِ
سَمَاحَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْمَكِّيِّ النَّاصِرِيِّ



التبصير
في
أحاديث النفس

من أملاء
سمحة الشيخ محمد المكي الناصري

الجزء السادس



الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الغرب الإسلامي

ص.ب. ٥٧٨٧/١١٣
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التَّائِبِينَ
فِي
أَجَلٍ مَّعْدُودٍ

الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 جَمِّ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ②
 مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
 وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ③
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا
 خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
 إِيْتُونِي بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ
 إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ④ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ
 دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ وَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
 وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ⑤ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ
 كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ⑥
 وَإِذَا تُبِّلَىٰ عَلَيْهِمْ مَوَائِدُهُمْ وَآيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرِيهِ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ وَفَلَا تَمْلِكُونَ
 لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ
 شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾
 قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ
 بِي وَلَا بِكُمْ وَ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا
 نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ
 بِهِءَ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِءَ فَأَمَنْ
 وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ أَلَّفَ لَّا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا
 إِلَيْهِءَ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِءَ فَسَيَقُولُونَ هَذَا آفَكٌ
 قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِءَ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً
 وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 وَنُشْرَىٰ لِلْحَسَنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّكَ الَّذِينَ قَالُوا ارْثِنَا اللَّهُ ثُمَّ
 اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَكَرِهًا وَوَضَعَتْهُ
 كَرِهًا وَحَمَلُهُ وَوَفَصَّلُهُ وَتَلْثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَوَبَلَغَ
 أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
 عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي
 إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُنْقَبِلُ عَنْهُمْ
 أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيُتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ
 الصِّدْقِ الَّذِينَ كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا دِيهِ أَفِي لَكُمَا
 أَتَعَدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ
 إِلَهَ وَبَلَاءَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ
 الْأَوَّلِينَ ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ
 مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَلِكُلِّ
 دَرَجَةٍ تَمَاعِلُوا وَلِنُوفِيهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٩﴾
 وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طِبَّاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ
 الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ
 تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٦٠﴾

الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديثنا هذا اليوم هو تفسير الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته فاتحة سورة الأحقاف المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، جَمْ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، ونهايته قوله جلّ علاه: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

في مطلع هذا الربع ينوه كتاب الله بتنزيل القرآن العظيم، وكونه متضمناً لحُكم الله ﴿الْعَزِيزِ﴾، ولحِكمة الله ﴿الْحَكِيمِ﴾. ويتحدث مرة أخرى عن مبدأ «الحق» الذي قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما، فما من شيء في أجواء السماء، وما من شيء في أرجاء الأرض، إلا وهو يَنْطِقُ بالإبداع والنظام والتنسيق، ويُفصِح عن التناسب والتوازن والتقدير الإلهي الدقيق، ويشير كتاب الله إلى أن خلق السماوات والأرض وما بينهما لم يكن عَبَثًا، ولا لعبًا، ولا باطلاً، بل له حكمة يرمى إليها، وغاية ينتهي

عندها، وأجلٌ مضروبٌ لهما محدود في علم الله لا يزيد ولا ينقص، متى تحققت الحكمة الإلهية من خلقهما، ومتى استفند النوع البشري جميع الطاقات والمؤهلات التي رشحته لعمارة الأرض والخلافة فيها عن الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ .

وانتقل كتاب الله إلى مواجهة المشركين بأسئلته المُفجِمة، وحججه البالغة، مُنْذَداً بما يعتقدونه من الشرك بالله، مستفسراً لهم هل عندهم حجة على أن المعبودات التي يعبدونها شاركت الحق تبارك وتعالى في خلق الأرض أو في خلق السماوات في قليل أو كثير، حتى يعبُدوها معه، أو يعبدوها من دونه؟ هل هناك كتاب سابق على القرآن من عند الله يستند إليه المشركون في إثبات شركهم؟ هل هناك دليل بين أو علم قاطع انفرد به المشركون وحدهم، حتى آثروا الشرك على التوحيد؟ وواضح أن هذه الأسئلة القرآنية لا يمكن للمشركين الجواب عنها بأي جواب مفيد، اللهم إلا مجرد العناد والتقليد. يضاف إلى ذلك أن هذه المعبودات التي يعبدها المشركون لا تستجيب لدعواتهم، ولا تحس بعباداتهم، إذ أنها عبارة عن جمادات أو أموات، لا تنفع في الدنيا ولا تشفع في الآخرة، فما الفائدة إذن من دعائها وعبادتها؟ وإلى هذا الموضوع يشير قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ إِيْتُونِي بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا

مِن دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٠﴾ . قال القاضي أبو بكر «ابن العربي» المعافري في كتابه «أحكام القرآن» عند تفسير هذه الآية ما نصه: «المسألة الأولى في مساق الآية، وهي أشرف آية في القرآن، فإنها استوفت أدلة الشرع عقليها وسمعيها، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، فهذا بيان لأدلة العقل المتعلقة بالتوحيد وحدث العالم، وانفراد الباريء بالقدرة والعلم والوجود والخلق. ثم قال: ﴿إِتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾، أي بكتاب شاهد على ما تقولون؟ وهذا بيان لأدلة السمع، فإن مُدْرَكَ الحق إنما يكون بدليل العقل أو بدليل الشرع حسبما بيناه في مراتب الأدلة في كتب الأصول، ثم قال: ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، يعني أو علم يُؤَثِّرُ، أي يُرَوَى وَيُنْقَلُ، وإن لم يكن مكتوباً، فإن المنقول عن الحفظ مثل المنقول عن الكتب».

ثم تتحدث الآيات الكريمة من جديد عن موقف المشركين من الوحي والرسالة، وقد كان الوحي والرسالة هما محور الصراع القائم بين الجاهلية والإسلام، فها هو كتاب الله يُرَدُّ صَدَى اتهامات المشركين وادعاءاتهم من أن آيات القرآن البينات إنما هي سحر مبین، وها هو يسجل ما هم عليه من التساؤل والتشكك في طبيعة القرآن، هل هو صدق من عند الله، أم افتراء من صنع الإنسان، وها هو كتاب الله يبطل ادعاءاتهم، ويردُّ اتهاماتهم، مُبِيناً

أن الرسول عليه الصلاة والسلام ليس بدعاً من الرسل، بحيث لم يسبقه سابق، أو يُعدُّ أمره مفاجئاً للناس، بل هو خاتم الأنبياء والرسل جميعاً، وسلسلةُ الرسل أمرها ثابت تاريخياً، ومعروف واقعياً، وخبرُ الكتب المنزلة من عند الله شائع بين كافة البشر، يعرفه المومنون وغير المومنين، وإذن فلا مجال لاستغراب الوحي الذي أنزله الله على رسوله، فقد أنزله على رسله السابقين، ولا موجب لاستغراب الرسالة التي كلفه الله بتبليغها للناس، فقد كلف غيره من الرسل بتبليغ رسالته منذ قرون، فالوحي والرسالة إذن ظاهرتان طبيعيتان روحيتان أثبتهما التاريخ، وسجلهما واقع الحياة الاجتماعية، إلى جانب الظواهر الطبيعية الأخرى ولا مجال لإنكار وجودهما، أو طمس معالمهما.

وبنّه كتاب الله إلى العلاقة الوثيقة والرابطة الروحية بين الكتاب الذي أنزله الله على موسى الكليم عليه السلام، والكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد الأمين عليه السلام، وأن القرآن العظيم جاء مُصدّقاً للكتاب الذي أنزل على موسى، كما جاء مصدقاً لبقية الكتب المنزلة، فكتبُ الله يُصدّق بعضها بعضاً، ورسله يتلقون الوحي جميعاً من منبع واحد هو الواحد الأحد. وذلك قوله تعالى في هذا الربع: ﴿وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آٰيَاتُنَا بَيِّنٰتٍ قَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِيْنٌ اَمْ يَقُوْلُوْنَ اَفْتَرِيْهِ قُلْ اِنْ اِفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُوْنَ لِيْ مِنْ اِلٰهٍ شَيْئًا، هُوَ اَعْلَمُ بِمَا تُفِيْضُوْنَ فِيْهِ، كَفَىٰ بِهٖ شَهِيدًا بَيْنِيْ وَبَيْنَكُمْ ﴾، ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعًا مِّنَ الرَّسْلِ ﴾، ﴿اِنْ اَتَّبِعْ اِلَّا مَا يُوْحٰى اِلَيَّ وَمَا اَنَا اِلَّا نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ ﴾،

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً . وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ويتصل بهذا الموضوع قوله تعالى في سورة الفرقان حكاية عن شبهات المشركين والجواب عنها: ﴿ وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الفرقان: ٥ ، ٦) .

وفي نفس هذا السياق عرَّج كتاب الله على وصف شيء من أقوال المشركين ودعاويهم في تبرير ما هم عليه من تمسك بالشرك، وتعلق بالوثنية، فنبه إلى أن ردَّ الفعل الذي أحدثه إقبال المستضعفين في مكة، من الفقراء والعبيد والإماء، على الإيمان بالله ورسوله في فجر الإسلام، هو إثارة غضب المشركين المتكبرين، وإثارة سخرتهم، ودفعهم إلى الوقوف من رسول الله ومن كتاب الله موقف الاستعلاء والاستكبار، وموقف العناد والمعارضة، لأنهم أحسوا بالخطر الكامن وراء ما مهَّد له الإسلام من تحرير المستضعفين في الأرض، وما يستتبعه ذلك التحرير الذي سيتم على يديه، من تغيير جذري في الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لجزيرة العرب وللعالم أجمع، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ .

وانتقل كتاب الله إلى التوصية بالإحسان للأمهات والآباء، قضاء لحقوق الوالدين، وبروراً بهما، ولا سيما الأمهات القائمات بحق الأمومة خير قيام، إذ يتحمَّلن من المتاعب، ويبدُلن من

التضحيات، أثناء الوَحْم والحمل، وأثناء الوضع والرضاع، وفي جميع مراحل الطفولة من أجل تربية الأولاد وتهذيبهم، وطبعهم بالطابع الاجتماعي السليم، ما لا يتحمله غيرهم من الناس، وكل ذلك بمنتهى التفاني والإخلاص، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾، إشارة إلى أن الإحسان إلى الوالدين من مقتضيات «الإنسانية المجردة»، بحيث لا يكون الإنسان إنساناً، ولا يُثبت إنسانيته بطريقة عملية، أيًا كان دينه أو مُعْتَقَدُهُ، إلا إذا أحسن إلى والديه، بروراً بهما، وأداءً لحقهما.

وقوله تعالى هنا: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾، إشارة إلى أن الأم عندما يأذن الله لها بأن تحمل، أو يأذن لها بأن تضع الحمل، إنما هي منفذة لأمر الله الموكول إليها تنفيذه، وقائمة بتحقيق مراد الله في عمارة الأرض، واستمرار حياة الإنسان القصيرة على سطحها، لا اختيار لها في حمل ولا في وضع، وإنما هي تحت حكم القدرة الإلهية المُسَخَّرَة للكون كله، وليس المراد أن الأم تكره الحمل وتكره الوضع، ولا ترغب فيهما، فقد زرع الله في «الأثني» على العموم محبة النسل والولد، رغماً عن جميع التضحيات والمتاعب والمشاق التي تتحملها في هذا السبيل.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، إشارة إلى

أقل مدة يمكن أن يقع فيها الحمل وهي ستة أشهر، وإلى أطول مدة يمكن أن يتم فيها الرضاع وهي أربعة وعشرون شهراً.

ومن وصية الله للإنسان بالإحسان إلى الوالدين انتقل كتاب الله إلى وصفِ نموذجين من نماذج الأولاد التي يواجهها الآباء والأمهات في حياتهم باستمرار:

الأول: نموذج الولد البار المهتدي الذي يَمَثِلُ وصية الله بالإحسان إلى والديه، ويقوم بها حق القيام، وهذا له الجزاء الحَسَن عند الله.

والثاني: نموذج الولد العاق الضال، الذي يُهمل وصية الله، فيعامل والديه بالإساءة والتأفف دون أي اعتبار، وجزاؤه الخُسْران والهوان في الدنيا والآخرة.

وإلى النموذج الأول وهو الولد البار المهتدي يشير قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾، أي: ألهمني، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾، وإلى ما أدخره الله له من الجزاء الحسن يشير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

وإلى النموذج الثاني وهو الولد العاق الضال يشير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ مَا اتَّعَدَانِي أَنْ أُخْرِجَ﴾، أي: أبعث، ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾، أي: مضى

الأموات من قبلي ولم يرجع منهم أحد، ﴿ وَهُمَا ﴾، أي: وإلذاه،
﴿ يَسْتَعِيثُنِ اللّٰهَ وَيَلْتَكِ ءَامِنِ اِنَّ وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا فَيَقُوْلُ ﴾، أي:
الولد العاق الضال، ﴿ مَا هَذَا اِلاَّ اَسْطِيْرُ الْاَوَّلِيْنَ ﴾، وإلى ما
أعده الله له من العذاب والنكال يشير قوله تعالى: ﴿ اُولٰٓئِكَ الَّذِيْنَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾، أي: حق عليهم العذاب، ﴿ اِنَّهُمْ كَانُوْا
خٰسِرِيْنَ ﴾.

وعقب كتاب الله على نموذج الولد البار المهتدي، ونموذج
الولد العاق الضال فقال: ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجٰتٍ مِّمَّا عَمِلُوْا وَلِنُؤْفِیْهُمُ
اَعْمٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُوْنَ ﴾.

الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

وَأَذَكَّرَ أَخَاعَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدْ وَإِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
 عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ الْهَتَنِ فَاِنْتَ
 بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ
 وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾
 فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا
 بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ
 شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاجِدَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي
 الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ
 وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفِيدَةً فَمَا آغْبَى عَنْهُمْ
 سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفِيدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا
 بِمِحْدُونَ بِنَايَةِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرْبَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَهُمْ بَرَجُوعًا ﴿٢٧﴾
 فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا - إِلَهَةً
 بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾
 وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ إِذَا
 قُرِئَ فَخَسِرُوا لَهُ فَإِنْ حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ
 مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن
 بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى
 طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا
 بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾
 وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ
 مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ
 اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْبُدْ بِمُخَلَقَاتِهَا
 بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُجِيبِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾
 وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ
 قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
 تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا
إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ حَقِّ
مِن رَّبِّهِمْ كَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا ابْتِغَوْا الْبُطْلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ابْتِغَوْا الْحَقَّ مِنْ
رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فِإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَّخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا
مُنَابَعِدُ وَإِمَا فِدَاءٍ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ
لَأَنْصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾
وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ
يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ
أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة «الأحقاف» المكية: ﴿وَأذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، إلى قوله تعالى في سورة «مُحَمَّدٍ» المدنية: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ أَعْمَلَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾.

في هذا الربع يوالي كتاب الله إمداد رسوله الأعظم عليه الصلاة والسلام بأخبار من سبقه من الرسل، وأخبار من سبق أمته من الأمم، وهو إذ يستعرض أمام رسوله هذه الأخبار يُثبِت قلب رسوله على الحق، كما يُثبِت قَدَم رسوله في محاربة الباطل، وإذ يستعرضها أمام مشركي قريش يُنذرهم بعاقبة الإنكار والجحود، ويحذّرهم من الإصرار على معارضة الرسالة الإلهية التي هي خاتمة الرسالات، ومن الوقوف في وجهها، ويذكّرهم بالهلاك والدّمار الذي أصاب قوماً آخرين سبقوهم، وهم من نفس جنسهم ومن جيرانهم الأقربين.

وفي هذا السياق يتناول كتاب الله قصة هود عليه السلام وعاداً وقومه، فيذكر نوع الدعوة الإلهية التي دعا إليها جميع الأنبياء والرسل، وهي الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر: ﴿وَأذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ثم يحكى كتاب الله الرد الذي قابلت به عاد دعوة هود عليه السلام، وما يتضمنه هذا الرد من شك وتكذيب وعناد، وما احتوى عليه من التحدي لقدرة الله، رغماً عن أنه القاهر فوق عباده: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّكِنَ مِنَ اللَّهِ رِجَالَنَا فَأْتِنَا بِالْحُكْمِ﴾، أي: لتصدنا عنها، ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، أي: فاتنا بالعذاب الذي تنذرنا به من عند الله.

ويتصدى هود عليه السلام لجواب قومه عادٍ جواباً خالياً من الإدعاء والتطاول على الله: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، أي فهو سبحانه الذي يعلم متى يُذيقكم العذاب، ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، أي: تُصرون على الجهل بوحداية الله وقدرته، وتردون دعوة الله الموجهة إليكم رداً غير جميل.

ويمضي كتاب الله في وصف ما آل إليه أمر عاد في النهاية، إذ تعرّضوا لغضب الله، جزاء عنادهم وإصرارهم وتحديهم لقدرة الله، فقد نقلت الروايات أن عاداً أصابها الحرّ الشديد، وطال عليها الجفاف والجذب، واحتبس عنها المطر، حتى أصبحت جميع الأنظار فيها متطلعة نحو السماء، تنتظرُ تصريف

الرياح وتسخير السُّحُب بالغيث النافع، فلما رأوا السحاب مقبلاً على أوديتهم فرحوا واعتقدوا أنه سحاب غيث وإحياء، لا سحاب هلاك وإفناء: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾، ولكن الحق سبحانه وتعالى الذي ينجز وعده بالثواب لمن يستحقه، لا يُخلف وعيده بالعقاب لمن تحدى أمره وتحدى رسله، رغماً عن توالى الحجج والبيّنات، وها هو لسان القدرة يُعيد على أسماعنا في كتاب الله نفس الجواب الحاسم، الذي تلقته عاد، أشدّ ما تكون خيبة أمل، وكأنها تستمع إليه الآن: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾، ثم يصفُ كتاب الله مشهدَ الدمار والخراب الشامل، الذي حل بعاد فأصبحت أثراً بعد عين، ولم يبق من ذكرياتها إلا مساكنها، لكنها خالية موحشة ينعق فيها البوم: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسْكِنَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

ويتعرض كتاب الله في أعقاب هذا الحديث إلى ما كانت عليه عاد من الذكاء والقوة، لكنها لم تستعملهما في مرضاة الله، إذ لم تستجب إلى دعوته. فعاقبها وأخذها أخذاً وبيلاً: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَراً وَأَفْتَدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْتَدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

وقوله تعالى في بداية هذه القصة: ﴿ وَادْكُرْ آخَا عَادٍ ﴾، إشارة إلى هود عليه السلام نفسه، لكن كتاب الله ذكره هنا بصفته

لا باسمه، تنبيهاً إلى رابطة الأخوة التي كانت تربطه بقومه، وتستوجب عطفه عليهم، وحرصه على هدايتهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾، إشارة إلى موطن عاد في جنوب جزيرة العرب بين اليمن وعمان، وقد قامت دولة عاد الأولى في جنوب الجزيرة العربية قبل ميلاد المسيح بعشرين قرناً، وقبل الهجرة النبوية بسبعة وعشرين قرناً، و«الأحْقَافُ» جمع «حِقْف» وهو الكَثِيب المرتفع، أو الجبل المستطيل من الرمال.

وقوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، إشارة إلى أن الظواهر الكونية على اختلافها - والرياح من جملتها - إنما هي كائنات مسخرة بأمر الله، لا تتحرك إلا وفق مراده، طبقاً لنواميس كونية معلومة، ولا تُنفذ إلا خطأ إلهية مرسومة.

ثم عَقَّبَ كتابُ الله على قصة عاد وما أصابها من الهلاك والدمار، بآية أخرى تُذكر مشركي قريش بما أصاب الأقسام الذين كانوا من حولهم عموماً، وما حل بديار أولئك الأقسام من العذاب الشديد، وما نالهم من الخيبة واليأس، عندما رأوا المعبودات التي كانوا يَدْعُونَهَا ويتقربون إليها بالقرابين عاجزة كل العجز عن إغاثتهم وإنقاذهم في وقت الشدة واليأس، وقد تخلت عنهم وتجاهلتهم، لأنها في الحقيقة لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: وَالْيَئِنَّا عَلَيْهِمْ مُخْتَلِفٌ مِّنَ الْآيَاتِ وَالْقَوَارِعِ،

واحدةً بعد واحدة، عسى أن تؤثر فيهم هذه الآية إن لم تنفع فيهم الأخرى، ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾، أي: فهل نصرتهم معبوداتهم عند احتياجهم إليها في وقت الشدة، ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

والإشارة في قوله تعالى هنا: ﴿مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾، إلى أقوام من العرب أيضاً يشاركون مشركي قريش في نفس الجنس والسلالة، وهم «عاد» بالأحقاف، و«سبأ» باليمن وكلاهما في جنوب الجزيرة العربية، وثمود ومدين في شمالها بين الحجاز والشام، ولوط التي يمر ببخيرتها تجار قريش في رحلتهم إلى الشام، والمعنى المقصود من هذه الإشارة هو أن عاقبة الجحود والعناد واحدة بالنسبة للجميع، بالنسبة لغير العرب ولنفس العرب، وإذا كانت الآيات القرآنية تحدثت في مكان آخر من كتاب الله عن مصير فرعون وقومه في مصر البعيدة عن جزيرة العرب، فما هي تتحدث الآن عن مصارع أقوام من نفس العرب، قريبة من المشركين، بحيث يرون آثارها، ويشاهدون أطلالها، ويروون أخبارها، عسى أن تكون الموعظة بمن هم من جنسهم، وحول ديارهم، أوقع في النفس، وأعمق في التأثير.

وكما سجل كتابُ الله في سورة أخرى أن جميع المخلوقات تدين لله بالتسبيح والتنزيه، إلا أن البشر لا يفهمون تسبيحها، إذ قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤)، تحدثت الآيات الكريمة في هذا الربع عن نفر من الجن هداهم الله للاستماع إلى القرآن،

فأنصتوا إليه خاشعين، ثم ولّوا إلى قومهم منذرين، محدّرين إياهم من الضلال المبين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾، ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾، ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: «ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، فلما سمعوا القرآن وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر استمعوا له»، وقال الحسن البصري: «أنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه خبرهم».

ويتصل بهذا الموضوع قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ (الجن: ١)، وفيه دليل على أنه ﷺ أنما عرف قول الجن، عن طريق الوحي الذي أنزل عليه، كما رواه البخاري ومسلم.

ثم اتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أمراً له بالثبات على الحق، والصبر إلى النهاية على تكاليف الدعوة ومتاعبها، ومسؤولياتها وأخطارها، ضارباً له المثل بصبر «أولي العزم» من الرسل، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ليكون خامسهم وخاتمهم، وقد ورد ذكر أسمائهم جميعاً في آيتين من سورة الأحزاب وسورة الشورى، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.

والآن ونحن ننتهي من سورة «الأحقاف» المكية تستقبلنا

سورة مدنية لا مكية، يطلق عليها «سورة محمد» لذكر اسمه الشريف فيها، كما يطلق عليها «سورة القتال»، لأنها تضمنت الإذن للرسول وصحبه بالجهاد في سبيل الله، ردّاً لعدوان المشركين، وحمايةً لحِمَى المومنين، ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ (محمد: ٢٠)، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوهَا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا
 وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ
 وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٣﴾ وَكُلِّينَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ
 أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٤﴾
 أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَفَرَ بِهِ وَسَاءَ عَمَلُهُ وَاتَّبَعُوا
 أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ
 غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ
 لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
 وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا
 فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا

مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ
 الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾
 وَالَّذِينَ إِهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانِيَهُمْ تَقْوِيَهُمْ ﴿١٧﴾
 فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا
 فَأَنبَى لَهُمْ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ
 وَمَثْوِيَكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ
 سُورَةٌ مَخْحَكُكُمْ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
 يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ
 وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾
 فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا
 أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾
 أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ آذَوْا
 عَلَى آذَابِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ
 وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ
 فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ

يَضْرِبُونَ وُجُوهُهُمْ وَأَذْبُرُهُمْ ۖ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا
أَسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ وَفَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۗ ﴿٢٨﴾
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ۗ ﴿٢٩﴾
وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ۗ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ
الْقَوْلِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۗ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ
وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ ۗ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنَ يُضْرَبُوا ۗ وَاللَّهُ
شَيْءًا وَسِيحِبُ أَعْمَالَهُمْ ۗ ﴿٣٢﴾

الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديثنا اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ . ونهايته قوله جلّ علاه: ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِبُّوا أَعْمَلَهُمْ ﴾ .

يتساءل كتابُ الله في مطلع هذا الربع عن مشركي قريش بشيء من الاستغراب، كيف أنهم لم يعتبروا بمصير الأقسام الذين سبقوهم فسقطوا صرعى، ولا بمصير الديار التي عمرها أولئك الأقسام فأصبحت بعدهم بلاقع، وكيف أنهم يُصِرُّون على الجحود والعناد، والفساد في البلاد، غافلين عن المصير السيء الذي يمكن أن يكون مصيرهم: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ .

ويصفُ كتابُ الله حالة الكافرين الذين ملأ الكفر قلوبهم، وأحاطت بهم خطيئاتهم من كل جانب، وما يكونون عليه من

الانهماك في اللذات، والإسراف في الشهوات، على نحو بهيمي سافل، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾، فهم لا يعرفون إلا شهوتي البطن والفرج، يقبلون عليها بنهم وشبق وهمجية بالغة، وهم قَلِقُونَ متهافتون في كل لحظة من اللحظات على هذا النوع من العيش باستمرار، إذ يرون أن حياتهم على سطح الأرض قصيرة الأجل، محدودة المدى، ولا أمل لهم ولا رجاء فيما وراءها، لأنهم لا يؤمنون بحياة ثانية أطول أمداً، وأفضل نعمة، كما هو شأن المومنين الذين يَدَّخِرُونَ من يومهم لغدهم، ومن دنياهم لآخرتهم والذين تنتظرهم عند الله حياة أديم وأخلد، وأفضل وأسعد، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

ويشير كتاب الله في هذا الربع إلى الضغط المادي والأدبي الذي مارسه مشركو قريش لمُحاصرة الدعوة الإسلامية، حتى أتجه الرسول وَمَنْ معه من أصحابه إلى مفارقة مكة والانتقال عنها إلى المدينة، الأمر الذي يوازي في لغة الواقع إخراج قريش للرسول من مكة، مهد الرسالة ومنزل الوحي الأول، مُبيناً أن ما تعتر به قريش - المُهيمنة إذ ذاك على مقاليد مكة - من القوة والمال والرجال، لا يقف أمام قوة الله وقدرته، فقد أهلك الله قبلها دياراً

لَا تُحْصَى عَدَاً كَانَتْ أَشَدَّ مِنْهَا قُوَّةً وَأَكْثَرَ مَنَعَةً، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَايُنَ مَنْ قَرِيَّةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرِيَّتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾، وَيَكْشِفُ كِتَابَ اللَّهِ السَّرَّ فِيمَا أَصَابَ تِلْكَ الدِّيَارَ، مِنْ الْهَلَاكِ وَالْبَوَارِ، وَأَنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى، وَالْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، يَجْرَانُ دَائِمًا إِلَى الْخَرَابِ وَالدمَارِ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

وتصف الآيات الكريمة مشهداً من مشاهد «المنافقين» بالمدينة، وهم أولئك الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، عجزاً منهم عن المجاهرة بالعداء للإسلام، إذ أصبح له جنود وأنصار، وقوة ترخر بها الديار، فهم بحكم انتمائهم إلى الإسلام يحضرون مجالس الرسول عليه الصلاة والسلام، ويستمعون إليه وهو يتلو القرآن، لكنهم بحكم ما انطوا عليه من الكفر لا يجدون في أنفسهم أي استعداد لفهم ما أنزل عليه، بل هم في حيرة وخبال، والتباس دائم وإشكال، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. وفي مقابل هذا الوصف الذي كشفت به الآيات الكريمة وَقَعَ الْقُرْآنُ فِي نفوس المنافقين جاءت بوصف آخر لَوْعَ الْقُرْآنُ فِي نفوس المومنين حتى تتم المقارنة بين الفريقين، إذ قالت: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوِيَهُمْ﴾.

وَتَصَدَّى كِتَابُ اللَّهِ مَرَّةً أُخْرَى لَوْصَفَ الْمُنَافِقِينَ، فَهَمَّ الْعَنْصَرُ الْجَدِيدَ وَالْعَنِيدَ، الَّذِي أَصْبَحَ يَقُومُ فِي الْمَدِينَةِ بِالذُّورِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ، وَهَذَا هُنَا يَصِفُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَعَ الْقُرْآنَ فِي نَفُوسِ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَمَا تَنْزَلُ أَوْامِرُهُ بِذِكْرِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَبِحُكْمِ أَنَّهُمْ يَتَمَوَّنُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ فِي الظَّاهِرِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَقَدَّمُوا لِلْفِدَاءِ فِي سَبِيلِهِ، وَبِحُكْمِ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ لِلْإِسْلَامِ فِي الْبَاطِنِ لَا يَرُونَ مُبَرَّرًا لِلتَّضْحِيَةِ بِأَرْوَاحِهِمْ فِي سَبِيلِهِ، وَلَا مَصْلَحَةَ لَهُمْ فِي تَرْجِيحِ كَفِّهِ عَلَى كَفِّ الشَّرْكِ، الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ سَنَدُهُمُ الْأَصِيلُ، وَمُنْطَلَقُ حُبِّهِمُ الْأَوَّلُ، وَذَلِكَ مَا يَسْجَلُهُ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَاِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

وَعَادَ كِتَابُ اللَّهِ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ تَلْوِيحًا وَتَعْرِيزًا، دَاعِيًا إِيَّاهُمْ إِلَى التَّبَصُّرِ فِي الْعَوَاقِبِ وَحَسَنِ الْإِخْتِيَارِ، إِذْ أَنْ نَجَاتِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَتَوَقِّفَةٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ، وَعَلَى تَطْهِيرِ الْقَلْبِ مِنَ الْوَسَاوِسِ، وَصِيَانَةِ اللِّسَانِ مِنْ مُنْكَرِ الْقَوْلِ وَالزُّورِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأُولَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَاِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

وَيَمْضِي كِتَابُ اللَّهِ فِي هَذَا السِّيَاقِ إِلَى نَهَائِهِ، مُوجِّهًا خُطَابَهُ لِلْمُنَافِقِينَ، مُتَسَائِلًا عَنْ اِحْتِمَالِ عَوْدَتِهِمْ إِلَى الشَّرْكِ مَرَّةً ثَانِيَةً،

وبصفة علانية، بدلاً من الإسلام الذي يتظاهرون به، فيبين أن مآل أمرهم إذا ارتدوا إلى الشرك هو العودة إلى ما كانوا عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض، وسفك الدماء، وقطيعة الأرحام، وأنهم إن عادوا إلى شركهم الأول، بدلاً من أن يمضوا قدماً في الإخلاص للإسلام، فلن يكونوا سوى عبيد مسخرين للشيطان الذي استهوهم وأغواهم واستخفهم فأطاعوه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا عَلَيَّ أَدْبَرْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴾ .

ويهتك كتاب الله أستار المنافقين بالمرة، فينبه إلى المؤامرات والدسائس التي يدبرونها مع حلفائهم من المشركين والكتابين ضد الإسلام، ويبين أن الله عالم بأسرارهم، وأنه قادر على إبراز أضغانهم، وأنه لو شاء لعرفهم لرسوله بسيماهم، وفي لحن القول الذي يجري على ألسنتهم، ويكشف عن دخائل نفوسهم «فمن أسر سريرة ألبسه الله رداءها» وذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتَهُمْ بِسِيمَانِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ .

ويتبأ كتاب الله بالمصير المفجع الذي ينتظر المنافقين والكافرين جزاء نفاقهم وكفرهم: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ

وَكْرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٤٠﴾ ، كما يتنبأ بما سينالهم من العذاب الأليم عند موتهم أولاً ، ومن الخسران المبين عند بعثهم أخيراً ، وذلك قوله تعالى في ختام هذا الربع : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَلَهُمْ ﴾ .

الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين
في المصحف الكريم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ۗ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
إِلَهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۗ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا
إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ۖ وَلَنْ يَتْرُكُمْ ۚ وَأَعْمَلَكُمْ ۗ ﴿٣٥﴾
إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ۗ وَإِنْ تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ
أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۗ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْ هَا فَيُحْفِكُمْ
تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَصْغَانَكُمْ ۗ ﴿٣٧﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤِلَآءِ تَدْعُونَ
لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ
فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۗ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ۗ وَإِنْ
تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ۗ ﴿٣٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۗ ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا

تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ وَعَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ
اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ
لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ
ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾
إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُقِرُّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ
عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَوْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ
مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ

شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ
 وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ
 ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾
 سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا
 ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ
 لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ
 بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾
 قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ آوَىٰ بِأْسِ شَدِيدٍ
 تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَامُونَ فَبِإِذْنِ اللَّهِ أُجْرًا حَسَنًا
 وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾
 لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ
 حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ نَعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في سورة «محمد» المدنية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا ءَعْمَلَكُمْ﴾، إلى قوله تعالى جلّ علاه في سورة «الفتح» المدنية أيضاً: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ نَعْدْبَهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

لا تزال التوجيهات الإلهية تترى على المسلمين الأولين بما يهديهم ويُسَدِّدُ خطواتهم، ويُقيِّم دَعَائِمَ دولتهم الأولى بالمدينة المنورة، على أساس متين، من الحق المبين.

ففي هذا الربع يتجه الخطاب الإلهي إلى المومنين بأحب وصف إليهم، وأعز شعار عليهم، وهو وصف «الإيمان» بالدين الحنيف، وشعاره المنيف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ثم يؤكد الحق سبحانه وتعالى أمره لهم بطاعة الله وطاعة رسوله، طاعةً كاملة مطلقة، لا تردد فيها ولا التواء، وذلك حذراً من إبطال

أعمالهم، وإحباط مساعيهم، إذا لم يبادروا إلى الامتثال، أو ظهرت منهم بؤادر الإهمال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

ثم يتحدث كتاب الله عن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، بما يضعونه في طريق المومنين من العراقيل، وما يدبرونه من المؤامرات والدسائس لعرقلة الدعوة الإسلامية، حتى لا تتمكن من تحقيق أهدافها، والوصول إلى غاياتها، ويُنذر هؤلاء الأعداء الألداء للإسلام والمسلمين بأنهم إذا واصلوا نفس الخطة تجاه الإسلام، ولم يتراجعوا عنها إلى أن أدركهم الموت، فإنه لا سبيل إلى غفران ذنوبهم، ولا إلى نجاتهم من العذاب الأليم الذي ينتظرهم، ومعنى هذا أن فرصتهم الوحيدة المواتية إلى الآن وحتى الآن هي تدارك ما فات بالدخول في حظيرة الإسلام، والتوقف عما اعتادوه من الدسائس والآثام، فإذا تابوا إلى الله قبل أن يدركهم الموت توبة نصوحاً كان لهم في الإسلام رِذءٌ وأيُّ رِذءٍ، وِجَنَةٌ واقية من عذاب الله، إذ الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

واتجه خطابُ الله بعد ذلك مرة أخرى إلى المومنين جميعاً، ناهياً لهم عن الرضى بالوَهْنِ والفشل والتخاذل، وعن الميل إلى مُوَادَعَةِ الأعداء ومسالمتهم، إن كانت تلك المُوَادَعَةُ والمسالمة لا خير فيهما للإسلام، ولا نفع من ورائهما للمسلمين، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾، قال القاضي أبو بكر

(ابن العربي): «إن الصلح إنما هو إذا كان له وجه يُحتاج فيه إليه، ويفيد فائدة».

ووضَّحَ كتاب الله السر في نهى المسلمين عن التخاذل والوهن، وعن الصلح إذا لم تكن فيه فائدة محققة للإسلام، فقال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾، إشارة إلى أن الدعوة الإسلامية التي يدافع المسلمون عن حريتها، ويجاهدون في سبيل استقرارها واستمرارها دعوة سامية يجب أن يُكتبَ لها البقاء، لأنها أجل قدراً وأعظم مقاماً، وأجدى نفعاً للبشرية جمعاء، من دعوة الشرك والجاهلية التي هي دعوة سافلة منحطة يجب القضاء عليها إلى الأبد، ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾. يضاف إلى ذلك أن الدعوة الإسلامية دعوة إلهية من الملأ الأعلى تُسدّد خطواتها إرادة الله النافذة، وحكمته البالغة، فمن نصرها وحمل لواءها كان الله معه في حركاته وسكناته: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾، ومن كان الله معه لم يقف في وجهه شيء: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٤٥)، ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتْرُكُمُ أَعْمَالُكُمْ﴾، أي: لن يقطع عنكم جزاء أعمالكم، بل يمنحكم الجزاء الأوفى.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التهوين من شأن المصالح المادية، والمنافع الشخصية، التي قد تعوق الإنسان عن الفداء والتضحية في سبيل عقيدته السامية، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ، وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُوتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾، إشارة إلى أن خير زاد يتزوّد به المسلم في هذه الدار لتلك الدار هو ما يملأ به قلبه من الإيمان، وما يشغل به جوارحه من الأعمال الصالحة

المزدوجة النفع، دنيا وأخرى، فذلك هو الزاد الذي يدوم ويبقى، أما ما عداه من الشهوات والملذات، والأغراض البشرية الصرفة التي يصرف الناس فيها حياتهم، فمآلها إلى الانصراف والزوال، وهي تنتهي بانتهاء وقتها في الحال.

واتجه كتاب الله إلى مخاطبة المسلمين في موضوع حساس بالنسبة لحياتهم المادية، ألا وهو موضوع البذل في سبيل الله، والإنفاق على الدعوة الإسلامية، وعلى الجهاد الإسلامي المشروع، لحماية هذه الدعوة وضمأن وجودها، مُنبهاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يأمر المسلمين بإنفاق كل ما يملكونه في هذا السبيل، لأنه لو أمرهم بإنفاق كل ما يملكون لَشَقَّ عليهم هذا التكليف وضاقوا به ذرعاً، إذ يكون فيه نوع من الإحراج: ﴿وَلَا يَسْئَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِن يَسْئَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجَ أَضْغِنَكُمْ﴾، ومبدأ الإسلام الأساسي: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» وقاعدته الأصلية: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» لكن المطلوب من المسلمين هو أن لا يتخلفوا عن واجباتهم الأساسية، وأن يبذلوا من أموالهم في سبيل تحقيقها والوفاء بها ما هو ضروري لذلك في حدود المستطاع، وامثال المسلمين لهذا الأمر الإلهي يعود عليهم قبل غيرهم بالصلاح والرشاد، ويضمن لهم القوة والهيبة بين العباد، فإذا بخلوا بأموالهم، وتخلوا عن واجباتهم جنوا ثمرة بخلهم ضعفاً في أنفسهم، وهواناً على الله وعلى الناس، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿هَآئِنَّمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُتَفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ

مَنْ يَبْخُلْ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴿١﴾. قال ابن كثير: «وصف الله بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه»، وهذا أمر واضح، ما داموا فقراء إلى رزقه في الدنيا، وإلى أجره في الآخرة.

وُخِّمَتْ سُورَةُ «مُحَمَّدٍ» أَوْ سُورَةُ «الْقِتَالِ» بِخَاتِمَةٍ تَعْتَبَرُ إِذْ بَارَأَ أَوْ شَبِهَ إِذْ بَارَأَ، مِمَّا كَانَ لَهُ وَقَعٌ عَظِيمٌ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ، ذَلِكَ أَنَّهَا تَعْلَنُ فِي حَزْمٍ وَصِرَاحَةٍ أَنَّ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي وَكَّلَهَا اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا هِيَ أَمَانَةٌ مُودَعَةٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، شَرَفَهُمُ اللَّهُ بِهَا وَمَيَّزَهُمْ بِفَضْلِهَا عَلَى بَقِيَّةِ النَّاسِ، فَإِنْ وَقَّوْا بِهَا، وَقَامُوا بِحَقِّهَا، وَضَحَّوْا فِي سَبِيلِهَا، كَانُوا أَهْلًا لَهَا، وَمَضَوْا فِي حِمْلِ أَمَانَتِهَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَإِنْ تَخَلَّوْا عَنْهَا، أَوْ أَهْمَلُوا شَأْنَهَا، أَوْ بَخِلُوا فِي سَبِيلِهَا بِبَذْلِ النَّفْسِ وَالْمَالِ نَزَعَ اللَّهُ أَمْرَهَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَاسْتَبَدَلَ بِهِمْ غَيْرَهُمْ، وَجَعَلَ هَذَا الْغَيْرَ أَفْضَلَ مِنْهُمْ فِي الْقِيَامِ بِحَقِّهَا، وَالْوَفَاءِ لَهَا، وَالتَّفَانِي فِي سَبِيلِهَا، وَذَلِكَ مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي خُطَابِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الفتح» المدنية أيضاً، وهذه السورة نزلت في السنة السادسة من الهجرة عقب «صلح الحديبية» الشهير، «والفتح» الذي تشير إليه هو صلح الحديبية نفسه، باعتبار ما كان فيه من المصلحة في البداية، وما آل إليه أمره في النهاية، لا «فتح مكة» كما يتبادر إلى بعض الأذهان، قال عبد الله بن

مسعود: «إنكم تَعُدُّون (الفتح) فتح مكة، ونحن نَعُدُّ الفتح صلح الحديبية»، وقال جابر: «ما كنا نَعُدُّ الفتح إلا يوم الحديبية»، وروى البخاري بسنده عن البراء قال: «تَعُدُّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نَعُدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية». إلى آخر الحديث. ذلك أنه مضت خمسة أعوام منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة والمشركون يمنعونهم ويمنعون المومنين من دخول مكة ولو في الأشهر الحُرْم، حتى كان العام السادس للهجرة، فخرج رسول الله ﷺ لزيارة بيت الحرام في رُفقة ألف وأربعمائة من المسلمين، وذلك في شهر ذي القعدة، وخرج «مُعْتَمِراً» لا يريد حرباً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، إيذاناً للمشركين بأنه فعلاً غيرُ عازم على حربهم ولا على فتح مكة، لكن قريشاً لبسوا «جُلُودَ النُّمُور» وخرجوا لملاقاته، إذ تعاهدوا فيما بينهم على أن لا يدخلها أبداً، وتبودلت الرسل بين الفريقين، وكان عثمان بن عفان رسول رسول الله إلى قريش، وكان سهيل بن عمرو رسول قريش إلى رسول الله، وانتهى الأمر بكتابة صلح الحديبية الشهير، الذي كان من جملة ما تضمنه أن يرجع الرسول عامه ذلك، ثم يأتي إلى مكة من العام القابل، وكان علي رضي الله عنه كاتب الصحيفة المتضمنة لشروط الصلح، وعند مُنصَرَف رسول الله ﷺ من الحديبية وهو في طريقه إلى المدينة المنورة نزلت عليه سورة «الفتح» المدنية التي نحن بصدد تفسيرها الآن، وبمناسبة نزولها قال رسول الله ﷺ كما رواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك بن أنس: «نزل عَلِيٌّ البارحة سورة هي أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا

لَكَ فَتَحًا مُبِينًا لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴿١٠٠﴾، فقد كان هذا الخطاب الإلهي الكريم بشري مضاعفة لرسول الله ﷺ بما يناله في الدنيا وما يناله في الآخرة، وذلك بالإضافة إلى ما تضمنه من تصديق لمعاهدة الصلح التي عقدها مع قريش، ومن إعلان الله لرضاه عن الأهداف السامية الموفقة، التي رمت إليها تلك الخطة النبوية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، يتضمن إحدى الخصائص التي يختص بها رسول الله ﷺ ولا يشاركه فيها غيره من الناس. قال ابن كثير: «وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغير رسول الله ﷺ أنه عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهذا تشریف عظيم لرسول الله، هذا وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة، التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين».

وانتقلت الآيات إلى الحديث عن «السكينة» التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين، وما ينتظرهم من الجزاء الحسن عند الله، وما ينتظر المنافقين والمشركين من العذاب الأليم، وبينت الآيات أن مبايعة المؤمنين لرسول الله تحت الشجرة في «بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ» بالحديبية إنما هي مبايعة لله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، ولم يهمل كتاب الله الحديث عن موقف المنافقين من الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله، وعن الأعداء التي يُنتظر أن يتحلوها ليبرروا بها تخلفهم عنه، ويفضح كتاب الله نواياهم الحقيقية، ومخاوفهم الوهمية: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ

أبدأ ﴿﴾، ويحدد كتاب الله الموقف المناسب اتخاذه منهم، فيما يُستقبل من معارك الجهاد الإسلامي، كما يتنبأ بما سيُمْتَحَنُونَ به في مستقبل الأيام: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَيَّ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾.

ويُعرِّجُ كتابُ الله في نهاية هذا الربع على الأعذار المقبولة شرعاً للتخلف عن الجهاد، والإعفاء من الواجبات العسكرية، وفي هذه الأعذار ما هو لازم ودائم، كالعمى والعرج المستمر، وما هو عارض ومؤقت، كالمرض الذي يطرأ ثم يزول، إذ يُعتبر المريض مُلْحَقاً بذوي الأعذار العارضة حتى يبرأ من مرضه، وذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾.

وتُخْتَمُ آياتُ هذا الربع بنفس المبدأ الذي كان فاتحة لها، ألا وهو مبدأ الطاعة لله والطاعة لرسوله، وما يناله المطيع من الجزاء بالحُسنى، وما يناله العاصي من العذاب الأليم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ نَعْدْبُهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين
في المصحف الكريم

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ

عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾
وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ
أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأَخْبَرِي لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوَلَّوْا إِلَّا دَبْرَ شَمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾
وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ
مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرًا ﴿٢٦﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ
مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ وَأَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً
بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا
لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٧﴾ إِذْ جَعَلَ
الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ
اللَّهُ سَكِينَتَهُ وَعَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ
التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُءَ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا
قَرِيبًا ﴿٢٩﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٣٠﴾
مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ
تَرَاهُمْ رُكْعًا يَسْجُدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْبَةِ وَمَثَلُهُمْ

فِي الْإِنْجِيلِ كَزُرْعِ أَخْرَجَ شَطْرَهُ وَقَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَبَوَى
 عَلَى سُوقِهِ ۖ يُجِيبُ الزُّرْعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٧﴾

الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، ونهايته قوله جلّ علاه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

تتحدث الآيات الكريمة في مطلع هذا الربع عن «بَيْعَةِ الرُّضْوَانِ» التي دعا إليها رسول الله ﷺ في السنة السادسة للهجرة كل من رافقه من المسلمين عندما كانوا بالحدبية، وذلك في فترة انتظاره لجواب قريش، بعدما بلغهم عزمه على زيارة البيت الحرام مُحْرِمًا بالعمرة، وبصحبته ألف وأربعمائة من أصحابه، وكانت قريش قد احتبست عندها عثمان بن عفان الذي وجهه رسول الله ﷺ إليها لإبلاغها ما عزم عليه، وراجت إشاعة قوية مؤداها أن قريشاً قد قتلت عثمان بن عفان مبعوث رسول الله إليها

في هذه المهمة، فنادى منادي رسول الله: «ألا إن روح القدس قد نَزَلَ على رسول الله ﷺ وأمر بالبيعة، فأخْرَجُوا على اسم الله تعالى» وكان المسلمون قد تفرقوا في ظلال الشجر، فما كادوا يسمعون المنادى حتى ساروا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة، وأحدقوا به من كل جانب، وتسابقوا إلى بيعته، فبايعوه على الاستماتة والثبات معه إلى النهاية، فأرعب ذلك المشركين من أهل مكة، وأرسلوا من احتبسوه عندهم من المسلمين، ودَعَوْا رسولَ الله والمومنين إلى المودعة والصلح، فكان من ذلك كله «صلح الحُدَيْبِيَّة».

ومما يستحق الذكر في هذا المقام أن عثمان بن عفان رسولَ رسولِ الله إلى قريش بمكة كان غائباً حين ابتدأ عقدُ هذه البيعة، إذ لم يزل عثمان آنذاك مُحْتَبَساً عندهم، فلما بايع الناس رسولَ الله ﷺ تولى الرسولُ بنفسه النيابة عن عثمان في بيعته إياه، أو قال ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة إلى الله تعالى وحاجة رسوله»، ثم ضرب الرسول ﷺ بإحدى يديه على الأخرى، إيداناً ببيعة عثمان له، فحَلَّتْ يَدُ رسولِ الله محل يد عثمان، وكانت بالنسبة إليه خيراً من أيدي بقية المسلمين لأنفسهم، كما روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه.

ومن لطائف «بيعة الرضوان» أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يبلغه خبر البيعة كان قد وَجَّه ابنه عبد الله بن عمر، للإتيان بفرس له عند أحد الأنصار المرافقين للرسول عليه الصلاة والسلام، إذ كان عمر يَسْتَلْتِمُ للقتال، واحتاج إلى فرسه ليقاتل

عليه إذا دعت الضرورة، نظراً للإشاعات القوية التي بلغت المسلمين عن عزم قريش على مقاومتهم، والإشاعة التي راجت عن قتل قريش لعثمان بن عفان مبعوث الرسول إلى مشركي مكة، وبينما عبدُ الله بن عمر في طريقه للإتيان بفرس أبيه إذا به قد وجد المسلمين يبائعون رسول الله فبايعه أولاً، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى أبيه عمر، وأخبره أن رسول الله يُبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، ومن هنا تحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر. والحق أن الوالد أسلم قبل ولده، روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: «كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه وعُمُرُ آخِذٌ بيده تحت الشجرة، وهي سَمْرَةٌ» الحديث. وروى مسلم أيضاً عن مَعْقِلِ بْنِ يسار قال: «لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يُبايع الناس، وأنا رافعُ غُصْنًا من أغصانها على رأسه، ونحن أربعُ عَشْرَةَ مائة» الحديث. وحدث جابرُ بن عبد الله أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بيعة الرضوان: «أنتم خيرُ أهل الأرض اليوم» وما قاله لهم رسول الله ﷺ يومئذ هو مصداقُ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، ومن أجل رضى الله عن المومنين بسبب هذه البيعة سميت «بيعة الرضوان». أما الشجرة التي كان رسول الله ﷺ يتلقى البيعة - وهو مستظل بظلها - فقد كانت شجرة سَمْرَةٌ كما سبق في حديث جابر الذي رواه مسلم، وأما ما انطوت عليه قلوبُ المومنين وهم يبائعون رسول الله ﷺ في الحديبية، فهو

الوفاء والصدق، والثباتُ على الحق، وكظمُ غيظهم أمام حرب الأعصاب التي شنها المشركون عليهم، عن طريق الاستفزاز والتهديد، والتزامُ السمع والطاعة لله ورسوله في المنشط والمكروه، وأما «السكينة» التي أنزلها الله على المؤمنين فهي ما ألقاه في قلوبهم من الطمأنينة على مصير الإسلام، ومن الثقة بوعده الله الذي لا يستطيع أحد أن يحول دون إنجازه مهما بلغ من القوة والعدا، وأما «الفتح القريب» الذي عوَّضهم به الحق سبحانه وتعالى عن زيارة بيت الله الحرام في ذلك العام، فهو صلح الحديبية نفسه، الذي أجراه الله على أيديهم بينهم وبين أعدائهم، إذ كان بدايةً لفتوح كثيرة متتالية، من بينها فتح «خيبر»، وكان على رأسها فتح مكة، الذي تم بعد سنتين من صلح الحديبية فقط، ثم فتحُ سائر البلاد والأقاليم في دنيا الإسلام، قال الزُّهري: «ما فتح في الإسلام فتح قبل صلح الحديبية كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث اتقى الناس، فلما كانت الهدنة - أي: صلح الحديبية، وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا لم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين، أي: بين صلح الحديبية وفتح مكة: مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر» قال ابن هشام: «والدليل على قول الزُّهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف».

وقوله تعالى في التعقيب على ذلك: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، فيه إشارة إلى ما أكرم الله به المؤمنين من «العزة»

المنافية للذلة، فقد أمدهم من عزته بما أدّى إلى حفظ كرامتهم وحفظ كرامة الإسلام، كما أن فيه إشارة إلى «الحكمة الإلهية» التي كانت تقود خطوات الرسول ﷺ، عندما عزم على زيارة بيت الله الحرام، استعمالاً لحق المسلمين الذي أنكره عليهم المشركون منذ الهجرة، ثم عندما قرر تأجيل هذه الزيارة إلى العام القابل، على أساس صلح الحديبية، الذي فتح في وجه الدعوة الإسلامية آفاقاً جديدة، وكسب لها حقوقاً واسعة، هي بداية النهاية للشرك والمشركين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، قال مجاهد: «هي جميع الغنائم إلى اليوم»، يريد جميع المغنم التي تقع عليها أيدي المجاهدين أثناء جهادهم في سبيل الله إلى يوم الدين، وها هنا لا بد من التنبيه إلى أن كتاب الله عندما يذكر «المغنم» في سياق الجهاد لا يذكرها باعتبار أنها هدف أساسي من الجهاد في سبيل الله، وإنما يذكرها عرضاً في هذا السياق، إيحاءً للمسلمين بضمنان الفوز والغلبة لهم، والنصر على أعدائهم، إذ «الغنيمة لا تقع تحت يد الغالب إلا بعد هزيمة المغلوب، فالغنيمة إنما تكون بعد الهزيمة».

وقوله تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾، إشارة إلى صلح الحديبية نفسه كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾، إشارة إلى أن الله كفى المومنين القتال هذه المرة، فلم ينلهم أعداؤهم بسوء، رغماً عما أضمره واستعدوا له من الحرب والقتال.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، إشارة إلى نفس وقعة الحُدَيْبِيَّةِ وصلحها الشهير، فقد كان هذا الصلح مفاجأة كبرى لبعض المسلمين أول الأمر، حتى خِيلَ إليهم أن فيه شيئاً من التراجع إلى الوراء، لكن الله الذي يسد خطوات نبيه بالوحي من عنده، هو الذي كان يَعْلَمُ ما لهذا الصلح من عواقب محمودة الأثر، سريعة الظهور، وها هو الحق سبحانه وتعالى يُثَبِّتُ للمؤمنين أن هذا الصلح نفسه سيكون آية لهم، ومعجزة جديدة للإسلام، وكذلك كان الأمر، فَصَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، ونصر جنده.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، إشارة إلى ما أقدم عليه فريق من مشركي مكة: حيث تسللوا وهم مسلحون إلى المكان الذي ينزل فيه رسول الله ومن معه بالحديبية، عسى أن ينالوا منه ومن المسلمين شيئاً، فسيقوا أسارى إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم عليه السلام: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا» فعفا عنهم وخلي سبيلهم، كما رواه النسائي في سننه.

وانتقل كتاب الله إلى وصف هذه الوقعة المؤثرة، والدور الذي لعبته قريش فيها، وإلى ذكر ما أنزله الله من السكينة على رسوله والمؤمنين، حتى أخذت الأحداث مجرى آخر لصالح الإسلام والمسلمين، فقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾، وقال

تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ، حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ .

ثم عرّج كتاب الله على قصة الرؤيا التي رآها الرسول عليه الصلاة والسلام في منامه، وأخبر بها أصحابه وهو بالمدينة قبل عام الحديبية، وهو «أنه دخل مكة وطاف بالبيت»، فلما سار في طريقه إلى مكة ظن جماعة منهم أن تعبير تلك الرؤيا سيتم في نفس هذا العام، ونبه كتاب الله إلى أن رؤيا الرسول ﷺ إذا لم تتحقق في نفس هذا العام، أي: في السنة السادسة للهجرة، فإنها ستصدق في فرصة أخرى، لأنها رؤيا صالحة، «والرؤيا الصالحة جزء من النبوة»، وهي واقعة لا محالة بحول الله وقوته: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَأَمِينِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ ، فلما كان ذو القعدة من العام السابع للهجرة، وهو العام التالي لصلح الحديبية، خرج رسول الله ﷺ إلى مكة مُعْتَمِرًا هو ومن كان معه في الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدى إلى ذي طوى، ودخل مكة ومعه أصحابه يُلبسون، وهو على ناقته القصواء، وهي نفس الناقة التي كان يركبها عليه الصلاة والسلام في الحديبية من العام الماضي، وعبد الله بن رواحة الأنصاري يقود ناقته، وكل من في مكة من الرجال والنساء والولدان يتطلعون إلى طلعتة البهية من مختلف المنازل والطرق، ما عدا رؤوس الشرك الذين لم يستطيعوا رؤية ذلك المشهد العظيم، ففارقوا مكة طيلة

زيارة الرسول، وبذلك تحققت رؤيا رسول الله، وتمَّ وعدُ الله، وأكد كتاب الله أن الخطة التي اختطها رسوله لحل أزمة الحديبية عن طريق الصلح كانت بوحى الله وتوفيقه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

وتنبأ كتابُ الله بنصرة دينه وإظهاره على بقية الأديان، وذلك ما تم على يديه وعلى أيدي خلفائه الراشدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ
صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ
أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ② إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ
اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
عَظِيمٌ ③ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ④
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ⑤ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ
تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ⑥ وَعَلِّمُوا
أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ

وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّامِنَ
 اللَّهِ وَنِعْمَةً مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَافَتِن مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 أَقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَت إِحْدِيهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَتَلُوا
 أَنْتِ تَسْبِغِ حَتَّى تَغِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآت فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ
 وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
 فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا
 خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ
 وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالآ لَقِبِ بِبِيسِ الْإِسْمِ
 الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِن بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
 وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ
 أَخِيهِ مَيْتًا فَكْرِهْتُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا
 النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
 لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
 خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «الحجرات» المدنية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، إلى قوله جلّ علاه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

هذه السورة الكريمة سميت «سورة الحجرات» أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وأول ما يلفت النظر في هذه السورة الكريمة على العموم، وخاصة في الربع المُخَصَّص لهذا اليوم، أنّ آياتها البينات تُعنى على الخصوص بإرشاد المومنين إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم نحو الله ورسوله، وما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوك بعضهم نحو بعض، في حالة الطمأنينة وحالة الاضطراب، وما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم جميعاً نحو غيرهم من بقية الناس.

ففيما يتعلق بسلوك المومنين الواجب عليهم نحو الله ورسوله أوصاهم الحق سبحانه وتعالى بأن لا يُسرِعوا في معالجة الأمور قبله، وأن لا يفتاتوا على رسول الله بشيء، حتى يقضي الله فيه من عنده، بحيث يكونون تبعاً له، بدلاً من أن يتقدموا بين يديه، فالمومن ينبغي له أن لا يسبق ربه في أمر ولا نهى، وعليه أن يُوجِّه رأيه وإرادته في الطريق السويّ المرسوم من ربه، ابتغاء مرضاة الله، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، قال الضحاك: «أي لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم».

وفيما يتعلق بسلوك المومنين نحو رسول الله خاصة أوصى الله عباده المومنين بأن يحترموا مقام الرسول عليه الصلاة والسلام، فلا يرفعوا أصواتهم على صوته إذا كانوا في مجلسه الشريف، وذلك يستلزم أمرهم - من باب أولى وأخرى - بأن لا يتجادلوا فيما بينهم أمامه، فضلاً عن أن يجادلوا الرسول أو يعارضوه فمقام الرسول عند ربه وفي أمته ليس هو مقام بقية الناس بعضهم مع بعض، وما جاز للصحابة في معاملة بعضهم لبعض لا يجوز لهم في معاملة الرسول الأعظم عليه صلوات الله وسلامه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، وحذّر كتاب الله من عاقبة سوء الأدب مع الرسول ورفع الصوت عليه، فقد ينتهي ذلك بما لا تُحمد عقباه، ويؤدي إلى إحباط عمل المومن وخسرانه، وذلك قوله تعالى:

﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾، أي: إنما نهيناكم عن ذلك خشية أن يحبط عملكم. جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة في رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة، وأن الرجل ليتكلم بالكلمة من سُخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض».

ثم ندب الله تعالى المومنين إلى خفض أصواتهم عندما يكونون بمحضر رسول الله، فذلك دليل على ما يملأ قلوبهم من إخلاص وسكينة وهيبة لمقام الرسول، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾. ومما يتصل بهذا المقام ما روى عن أمير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه في عهد خلافته كان بمسجد النبي ﷺ، فسمع رجلين قد ارتفعت أصواتهما في المسجد، فأقبل عليهما قائلاً: «أَتَدْرِيَانِ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ ثم قال: مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ فقالا من أهل الطائف، فقال لهما عمر: «لو كتتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً». ونص العلماء على أنه يُكره رفع الصوت عند قبره عليه الصلاة والسلام، كما كان رفع الصوت أمامه مكروهاً في حياته سواء بسواء، لأنه ﷺ مُحْتَرَمٌ حَيًّا، ومحترم في قبره دائماً.

ومضت الآيات الكريمة في نفس السياق، فنبهت إلى أن الاستعجال بمناداة الرسول ﷺ من خارج بيته الشريف، للخروج إلى الناس، واستقبالهم لقضاء حاجاتهم، بدلاً من انتظار خروجه

دون مناداة ولا إزعاج، إِنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الْجَهْلِ وَسُوءِ الْأَدَبِ وَقِلَّةِ الْعَقْلِ، وبذلك يُحْضِرُ كِتَابُ اللَّهِ عَلَى وَجُوبِ انْتِظَارِ الْمُسْلِمِينَ لِلرَّسُولِ، إِلَى أَنْ يَفْرَغَ مِنْ شَأُونِهِ الْخَاصَّةِ. ويخرج إليهم، وإذ ذاك يُقْبَلُ عَلَيْهِ مِنْ لَهُ عِنْدَهُ حَاجَةٌ، وَذَلِكَ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وفيما يتعلق بسلوك المسلمين بعضهم مع بعض نهبت الآيات الكريمة بادية ذي بدء إلى وجوب التثبت في كل ما يُنسَبُ إلى الغير من أقوال وأفعال، فكثيراً ما يكون الأمر المنسوب إلى الغير كذباً، وكثيراً ما تكون نسبته إلى الغير خطأً، وإذا لم يقع التثبت في نسبة الأقوال والأفعال هل هي حق أم باطل، وإذا لم يحصل التحقق منها ومن ملابساتها، وقع المسلمون في البلبلة أحياناً، وفي الظلم أحياناً، وارتكبوا من الشطط وسوء التقدير، ما يؤدي إلى سوء المصير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِبْحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾، قال ابن كثير: «من ها هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال، لاحتمال فسقه في نفس الأمر».

ثُمَّ لَفَّتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ أَنْظَارَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ مُلْزَمًا بِمُوَافَقَةِ أَصْحَابِهِ وَتَرْضِيَّتِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا يَعْضُونَ عَلَيْهِ مِنْ رَغَبَاتٍ وَأَرَءَاءٍ، فَقَدْ يَرْغَبُونَ فِي شَيْءٍ يَظُنُّونَهُ خَيْرًا

وليس بخير، وقد يرون الرأي يعتقدونه صالحاً وهو غير صالح، فالمرجع الأعلى للمسلمين يجب أن يظل دائماً وأبداً هو مقام الرسالة الأسمى، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، أي: اعلّموا أن بين أظهركم رسول الله، فعظّموه وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم، ولو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى الحرج الذي ليس من الدين، وإلى مثل هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (المؤمنون: ٧١).

وقوله تعالى هنا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾، هذا بالنسبة إليه وهو لا يزال على قيد الحياة بين أظهر المسلمين، فإذا فارقهم الرسول وانتقل إلى الرفيق الأعلى كان حاضراً بينهم أيضاً، إذ أن كتاب الله وسنة رسوله حاضران وخالدان بين المسلمين على الدوام، فلا بدّ من الرجوع إليهما والاهتداء بهديهما، على حد قوله ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي».

ثم عقب كتاب الله بما يُقوّي في المسلمين روح الطاعة والامتثال، وَيَدْفَعُهُمْ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ التَّأَدُّبِ مَعَ مَقَامِ الرِّسَالَةِ، والمزيد من التفاني في تحقيق الأهداف التي رَسَمَتَهَا لِلْمُسْلِمِينَ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ

فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾، وهذه الآيات ترسم في نفس الوقت معالم الإيمان الصحيح لكل من يريد أن يلتحق بركب المومنين الصادقين في أيّ جيل من الأجيال، أو عصر من العصور، ألا وهي محبة الإيمان وكُره الكفر، ومحبة التقوى وكُره الفُسوق، والتزام الطاعة لله ورسوله، وعدم التجرؤ على عصيانهما، فمن كان على هذه الوتيرة خرج من دائرة «السفهاء» ودخل في عداد «الراشدين». ولعل التعبير «بالراشدين» في هذه الآية، هو السند الذي استند إليه السلف الصالح في إطلاق لقب «الخلفاء الراشدين» على خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام الأولين، رضي الله عنهم أجمعين، علاوة على الحديث الوارد في شأنهم بهذا اللقب.

وفيما يتعلق بسلوك المومنين بعضهم مع بعض في حالة الاضطرابات والقلاقل أوصى كتابُ الله بفض كل نزاع قد يقع بينهم، على أساس العدل المطلق، وفي إطار الأخوة الإسلامية الصميمة، التي تعتبر المومنين كلهم إخوة في دين الله، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَت إِحْدِيهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقْتَلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾.

ثم عادت الآيات الكريمة مرة أخرى إلى ذكر الآداب السامية التي يجب أن يلتزمها المسلمون في معاملة بعضهم

لبعض، منبهةً إلى وجوب تبادل الاحترام وحسن الظن فيما بينهم، وعدم الوُلُوغ في أعراض الآخرين، سواء كانوا حاضرين أو غائبين، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

وُحِّمَتْ آيَاتُ هذا الربع بخطاب مُوجه إلى بني الإنسان عموماً وإلى المسلمين خصوصاً، يتضمن الإشارة إلى أن «الإنسانية» رغم ما فيها من اختلاف في الأجناس والألوان والأديان، تُعتبر وَحْدَةً مترابطة فيما بينها، فلا بُدَّ للمسلمين إِذْنٍ من التعارف مع غيرهم، ومن التعاون مع كل من يَجْنَحُ إلى التعاون معهم على ما فيه خير الإنسانية عموماً، وخير الإسلام خصوصاً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لَّمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا
 أَسْمَأْنَا وَمَا يَدْخُلُ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا
 الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا
 بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٧﴾
 قُلْ أَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ يَمُنُونَ
 عَلَيْكَ أَنْ أَسْمَأُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ
 عَلَيْكُمْ أَنْ هَبْدِكُمْ لِلْإِيْمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّ اللَّهَ
 يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ق وَالْقُرْءَانَ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ

الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أ. ذَامِنًا وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ
 بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ
 حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ
 يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾
 وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 نَبَاتٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
 مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا
 طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾
 كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ
 لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْآيِكَةِ وَقَوْمِ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُهُ ﴿١٤﴾
 أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾
 وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُوسٍ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
 إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ
 قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ
 سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدٌ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
 ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
 الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٢٣﴾ الْقِيَامِ فِي
 جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ
 مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَالْقِيَامَ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾

الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة «الحجرات» المدنية: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لِّمَ تُوْمِنُونَ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه في سورة (ق) المكية: ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مِّنَّا لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

كما تحدث كتاب الله في «سورة الفتح» عن المُخَلَّفِينَ من الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله عام الحُدَيْبِيَّةِ، لظنهم بالله ظن السوء، تحدث كتابُ الله في مطلع هذا الربع من سورة «الحجرات» المدنية عن طائفة أخرى من الأعراب دخلوا في الإسلام، ثم أخذوا يتبجحون ويؤمنون على رسول الله، بأنهم انضموا إلى صفوف المسلمين ولم يقاتلوهم، كما قاتلهم غيرهم من العرب.

وقد فهم الإمام البخاري من الآيات الواردة في هذا الربع،

بشأن هذه الطائفة من الأعراب أنهم داخلون في عداد المنافقين، بينما فهمها ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة على أن القصد منها هو أن أولئك الأعراب لم يكونوا منافقين، وإنما لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، وادَّعَوْا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فادَّبُوا على ذلك حتى لا يَمُنُّوا على الله ورسوله بشيء، ولو كانوا منافقين بالمرَّة لَعُنُّوا وفُضِحُوا كما عُنَّفَ غيرُهم في سورة أخرى، وهذا الفهم هو الذي اختاره ابن جرير الطبري في تفسيره وارتضاه ابن كثير، ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا﴾، فقليل لهم تأديباً: ﴿قُلْ لَمْ تُمِنُوا﴾، أي: لم تومنوا بالإيمان الكامل، ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، أي: استسلمنا وسالمنا، فالإسلام هنا لا يزيد على الاعتراف باللسان، والانقياد بالجوارح، وعصمة الدم والمال، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أي: ولم يتمكن الإيمان الكامل من قلوبكم بعد، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾، أي: أن الله تعالى - رغماً عن أن إيمانكم لم يصل بعد إلى درجة الكمال - لا يَنْقُصُكم من أجوركم شيئاً إذا التزمتم الطاعة لله ورسوله، فلن تضيع أعمالكم كما تضيع أعمال الكفار. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «غفور» لمن تاب، «رحيم» لمن أناب.

ثم وصفت الآيات الكريمة خصال المومنين الكاملين الذين يُضْرَبُ بهم المثل في الإيمان، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: المومنون الكاملون إيماناً، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، أي: ثبَّتوا بعد إيمانهم على وتيرة واحدة من

التصديق القلبي الخالص، دون تردد ولا تزعزع ولا اضطراب، فقد يؤمن الشخص العادي ثم تعرض له عوارض وطوارئ تزعزع إيمانه، وتهزُّ كيانه، أما المؤمن الحق فلا يُزعزع إيمانه أي شيء، لا في الشدة ولا في الرخاء، لا في السراء ولا في الضراء، وهذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾، واردة على غرار قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (فصلت: ٣٠)، فالسر كله في «الاستقامة» إذ عن طريقها ومن خلالها يبرز ما ينطوي عليه القلب من عقيدة صالحة وإيمان صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، هذه صفة أخرى مميزة لكامل الإيمان، فهم يؤمنون بأن كل ما يملكونه من نفس ونفيس إنما هو عطية من الله وهبة منه، ولذلك فهم لا يبخلون ببذل هباته وعطاياه، بما فيها المهج والأرواح، ما دامت في سبيله وابتغاء مرضاته.

وَعَقَبَ كِتَابُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمِثَالِيَةِ لِأَهْلِ الْكَمَالِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، بما يفيد أن المتصفين بها قولاً وعملاً، والعاملين بمقتضاها سرّاً وعلناً، هم «الصادقون» في إيمانهم، إذ تشهد بذلك تصرفاتهم وتضحياتهم، كما يشهد به وفاؤهم وثباتهم، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، بخلاف أولئك الأعراب الذين يَمُنُّون على رسول الله بإعلان إسلامهم، وكونهم لا يقاتلونهم مثل بقية العرب، فهؤلاء لا زالوا في المرحلة الأولى من مراحل الإيمان، وهم يتدرجون في طريقهم إلى بقية المراحل، بقدر ما

تخالطُ بشاشةُ الإيمانِ قلوبَهُم يوماً بعد يومٍ .

ثم خاطب كتابُ الله أولئك «الأعراب السُّدَج»، مُبيناً لهم أن الحق سبحانه وتعالى - الذي يعلم السر وأخفى - غَنِيٌّ عن أن يكشفوا له عما في ضمائرهم، فَمَن أحاط بكل شيء علماً، وهو يعلم ما في السماوات وما في الأرض، لا يتوقف على تصريحاتهم، لِيُطَّلِعَ على مكنوناتهم، ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وكشفت الآياتُ الكريمة الستار عن طبيعة الموقف الساذج الذي وقفه أولئك الأعراب، والذي دعا إلى تأديبهم وتهذيبهم حتى لا يعودوا لمثله، فقال تعالى: ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ ﴾، ثم يَتَّجِهْ إليهم خطاب الله على سبيل التنزل، بأنهم على فرض أنهم صادقون في الجمع بين الإسلام والإيمان، فإن المنة في إسلامهم وإيمانهم إنما هي لله ورسوله، إذ هو الذي هداهم إلى طريق الإيمان أولاً وأخيراً، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وَحْتِمَتِ سورة «الحُجُرَات» المدنية بما يؤكد إحاطة علم الله بكل شيء، ولا سيما العلم بغيب السماوات والأرض، بما فيه غَيْبُ السرائر والضمائر، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

والآن فلنقبل على تفسير سورة (ق) المكية، مستعينين بالله جلت قدرته وأول شيء يستلفت النظر في هذا المَقَام هو أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه السورة الكريمة يوم الجمعة على المنبر إذا خطب الناس، كما روى ذلك مسلم في صحيحه، وأبو داود والنسائي وابن ماجه في السنن، وقد تلقاها من لسان رسول الله ﷺ وَحَفِظَهَا عَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «وَالْقَصْدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يقرأ بهذه السورة في المَجَامِعِ الْكِبَارِ كَالْعِيدِ وَالْجُمُعِ، لِأَشْتِمَالِهَا عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ، وَالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ، وَالْمَعَادِ وَالْقِيَامِ، وَالْحِسَابِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ».

وأول ما نتحدث عنه آيات هذه السورة الكريمة، كتاب الله المجيد، المَلْتَفُ فِي حُلُلِ الْمَجْدِ وَالْعِظْمَةِ، وَهِيَ هُنَا نَجِدُ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ يُقَسِّمُ بِهِ، دَلَالَةً عَلَى عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ، وَإِرْشَاداً إِلَى الْمَنْزِلَةِ الْعَظِيمِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَحْتَلِهَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَفِي حَيَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ.

وحرف (ق) الذي هو أول حرف في كلمة «قرآن» وأول حرف ورد في هذه السورة حتى سميت باسمه، إشارةً إلى أن كتاب الله المعجز للبشر يتألف لفظه من نفس الحروف التي ننطق بها، غير أنه لا يَقْدِرُ عَلَى تَأْلِيفِهِ الْمَعْجِزُ أَحَدٌ سِوَى اللَّهِ، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾، (الشورى: ٥٢)، كما أن المادة التي يتكوّن منها الأحياء مُلْقَاةٌ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ، بحيث يراها الناس ويعيشون معها، ولكنهم لا يستطيعون أن يُؤَلِّفُوا

منها ولو كائناً حياً واحداً في أبسط صوره وأشكاله، لأن ذلك من صنع الله وحده.

ويشير كتاب الله إلى تعجب المشركين واستغرابهم من إرسال رسول إليهم من بينهم، أي من البشر لا من الملائكة، ومن العرب، لا من بني إسرائيل، بعد أن ظلت النبوة والرسالة مستمرة في بني إسرائيل زمناً طويلاً، وذلك قوله تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

وعرّج كتاب الله على عقيدة «البعث» التي هي عقيدة أساسية في دين الله الذي لا يتبدل، والتي دعا إلى الإيمان بها كافة الأنبياء والرسل، وتحدث عن الشبه السخيفة والحجج الواهية، التي يلوكها بالستهم من لا يؤمنون بهذه العقيدة الثابتة، ومردّ شبههم كلها إلى استبعاد الحياة من بعد الموت، نظراً لما يلحق جثث الأموات من تحلل وفناء، ناسين أو متناسين أن الله الذي أنشأ الحياة قبل الموت هو الذي تكفل بأن ينشئ الحياة بعد الموت، فنشأة الحياة بالنسبة إلى قدرته سبحانه وتعالى عملية سابقة أولاً، ومكررة ثانياً، وليس فيها ما يُستغرب ممن هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء عليم، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿أ. ذَامِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، أي: بعيد الوقوع، ثم يتولّى الحق سبحانه وتعالى الرد عليهم قائلاً: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾، وهذا هو الجواب عن القسم الذي جاء في مطلع سورة «ق» حسبما حكاه

ابن جرير الطبري عن بعض النحاة، كما ردَّ الحقُّ سبحانه على منكري البعث ردّاً مُفحِماً إذ قال: ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

ويعرضُ كتابُ الله بعض آيات الله البارزة في الآفاق، مما يدل على قدرته، وعلمه وحكمته، ويصِفُ بالخصوص كيف يُحيي الله الأرض بعد موتها، مُبَيِّناً أَنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ بَعْدَ مَوْتِهِ شَبِيهَةٌ بِهَا كُلِّ الشَّيْءِ: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ ، فخرج الإنسان من تحت الأرض بعد موته، وبعثه في الوقت المعلوم، عملية لا تختلف في جوهرها كثيراً عما يراه الناس في كل وقت دون أن ينتبهوا إليه، إذ تكون الأرض هامة قاتمة مَيِّتة من أثر الفَحَطِ والجَدَبِ، فينزل عليها المطر من عند الله، وإذا بها تُصبح مَضْرِبِ الْأَمْثَالِ فِي الْخِصْبِ وَالنَّمَاءِ وَالإِنْتِاجِ، ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ .

وأشارت الآيات الكريمة إلى مصير المكذبين بالرسالة، وفي طليعتهم: ﴿ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبَعِّعُ كُلُّ كَذَّابٍ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدٌ ﴾ ، والمراد «بالرِّسِّ» هنا البير المَطْوِيَّة، غير المبنية، والمراد «بِالْأَيْكَةِ» الشجرُ الملتف الكثيف، وسبق ذكر «أصحاب الأيكة» في الآية الثامنة والسبعين من سورة «الحجر» وفي الآية السادسة والسبعين بعد المائة من سورة «الشورى»، وفي الآية الثالثة عشرة من سورة «ص» .

واستعرض كتاب الله حالة الإنسان المتمرد على طاعة الله، كيف يكون أثناء حياته، وعند موته، وحين بعثه، ووقت حسابه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، أي: أقرب إليه من العرق الذي يجري فيه دمه، وتتم بواسطته دورته الدموية، ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾، ﴿فَالْقِيَةُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

وأجمل كتاب الله في إحدى آيات هذا الربيع ما يكون عليه المكذبون بالحق في كل عصر وجيل، أفراداً وأمماً، من اضطراب في الفكر، وتناقض في الرأي، وقلق في النفس، وحيرة في الاتجاه، بسبب أنهم لم يعتصموا بالحق، فتقاذفتهم الأهواء المختلفة من كل جانب، وتجادبتهم التيارات المتعارضة من كل فج، وذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾، قال ابن كثير: «والمريح المختلف المضطرب الملتبس، كقوله تعالى في سورة «الذاريات» التالية: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾. وهذا حال كل من خرج عن جادة الحق، وارتمى في أحضان الباطل، مهما قال أو فعل بعد ذلك فهو باطل، لأنه دخل في تيه الحيرة والغواية، الذي لا تعرف له بداية ولا نهاية.

الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

قَالَ قَرِينُهُ،

رَبَّنَا مَا أَطَغَيْتُهُ، وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْضَمُوا لَدَيَّ
وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلِيمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ يَقُولُ لِحَبَّتِهِمْ هَلْ أَمْتَلَأْتِ وَقَوْلُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾
وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ
حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا
بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ
هَلْ مِنْ مَّحِيسٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ

مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ
 الْخُرُوجِ ﴿٤١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُمِيتُهُمْ وَإِنَّا لَبِنَاءُ الْمُصِيرِ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ
 عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
 وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ أَنَّ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَهُ ﴿٤٤﴾
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِمَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
 فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾
 وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ ﴿٨﴾ يُوفِّكُ عَنْهُ مَنْ آفَكَ ﴿٩﴾
 قَبْلَ الْخُرْصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ
 الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ
 بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ اخْذِينَ مَا
 آتَيْتَهُمْ رَبُّهُنَّ وَأَتَيْنَهُنَّ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ
 اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْبَاحِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ
 حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي
 أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾
 فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾

هَلْ آتَيْكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
 فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ
 بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ وَإِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
 خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ
 إِمْرَأَتُهُ فِي صَرَقَةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾
 قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «ق» المكية: ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾، إلى قوله جلَّ علاه في سورة «الذاريات» المكية أيضاً: ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾.

في نهاية الربع الماضي تحدث كتاب الله عن المَلَكِ المُوَكَّلِ بتسجيل عمل ابن آدم، وأنه سيشهد على ابن آدم يوم القيامة، بكل ما فعل، إذ يكون السجل الذي أعده عن حياته مهيباً حاضراً من غير إبطاء ولا انتظار، ودون زيادة ولا نقصان ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عِنْدِي ﴾، فيصدرُ حكم العلي الأعلى في حقه بما هو أهل له من ثواب أو عقاب.

وفي بداية هذا الربع تحدث كتاب الله عن قرين للإنسان من نوع آخر، ألا وهو «قرين السوء» الذي يُزَيَّن له الشر، ويوقعه في شبك الخبال والضلال، وقرين السوء الأكبر هو الشيطان الرجيم، ثم أولياؤه ومساعدوه الأقربون، المجندون تحت لوائه

لإغواء الخلق، من الدُّعاة المفسدين، فهذا القرين الذي يكون من بين قرناء السوء مستشاراً للإنسان، ومحلاً لثقلته طيلة حياته، هو نفسه الذي يتبرأ من ابن آدم يوم القيامة أمام الله، مُلقياً على عاتقه وحده تَبَعَةَ أعماله وتصرفاته، متهماً إياه بأنه هو الذي اختار لنفسه بمحض إرادته الضلال على الهدى، والشرُّ على الخير: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتَهُ وَلَنْ كُنَ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، وقد جاء ما يُشبه هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (إبراهيم: ٢٢).

ثم أشارت الآيات الكريمة إلى ما يُنتظر أن يقوم يوم القيامة بين الشيطان وضحاياه، من تلاؤم وتخاصم أمام الله، فيأمر الحق سبحانه بوضع حد للخصام والملام، إذ لا محل لهما في ذلك المقام: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

ويصفُ كتابُ الله الحالة التي تكون عليها جهنم، وهي تستقبل أفواج المشركين والكافرين، والمُصِرِّين على الذنب والعصيان من العصاة المذنبين، ﴿يَوْمَ يَقُولُ لِرَجُلَيْنِ هَلْ أَمْتَلَاتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

ويتنقلُ كتابُ الله إلى وصف الجنة التي أُعدت للمتقين، وما يلقونه فيها لدى ملائكة الرحمن من الثناء العاطر وحسن

الاستقبال، جزاء ما قاموا به ومَارَسُوهُ فِي حَيَاتِهِمْ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ، ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، إذ كل ما هو آت قريب، وفي خلال هذا الوصف نُوهت الآيات الكريمة بالأوصاف التي رَشَّحَتْ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِلْجَنَّةِ، وذلك قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾، و«الأواب» هو الذي إذا أذنب بادر إلى الإقلاع عن ذنبه وتاب منه توبة نصوحاً، و«الحفيظ» هو الذي إذا عاهد الله حفظ العهد، وحافظ عليه من المهد إلى اللحد، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾، أي: مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ غَائِباً عَنْ أَعْيُنِ الرَّقَبَاءِ، وهذه الآية شبيهة بقوله ﷺ في الحديث الشريف: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»، من بين السبعة الذين يُظْلِمُهُمُ اللَّهُ بظلمه يوم لا ظل إلا ظله. ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾، أي: لقي الله بقلب سليم يملؤه الخشوع والخضوع.

وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ إشارة إلى التحية التي يتلقى بها ملائكة الرحمن ضيوفهم من أهل الجنة، عندما يَأْذَنُونَ لَهُمْ بِالدُّخُولِ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، التي لا يفارقونها ولا يَبْعُونَ عَنْهَا حِوَالاً: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾، أي: مهما اختاروا وجدوا، ومهما طلبوا أحضر لهم، وقوله تعالى هنا: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، كقوله تعالى في سورة يونس (٢٦): ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقوله جلّ علاه في سورة التوبة (٧٢): ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وعادت الآيات الكريمة مرة أخرى إلى تذكير المشركين بمصارع الأمم الغابرة التي أَصْرَّتْ قَلْبَهُمْ عَلَى الضَّلَالِ، فأصبحت

مضرب الأمثال بين بقية الأجيال، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى سابقة: ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَعَآثِرًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (غافر: ٨٢)، قال قتادة: «نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ»، أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب والمتاجر أكثر مما طُفتم. يقال لمن طَوَّفَ فِي الْبِلَادِ «نَقَّبَ فِيهَا». وقوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ مَّحِصٍ ﴾، أي: لا مَفْرَّ لَهُمْ وَلَا لَكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وكما أن قوتهم، وثروتهم لَمْ تَحُولَا دُونَ قِضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، فلن تُفْلِتُوا أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ مِنْ قَبْضَةِ اللَّهِ الْقَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِهِ.

ثم عَقَّبَ كِتَابُ اللَّهِ عَلَى مَا اسْتَعْرَضَهُ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَحْوَالِ أَهْلِ النَّارِ، وَعَلَى مَا وَصَفَهُ مِنْ مِصَارِعِ الْغَابِرِينَ، وَمَوَاقِفِ الْمَكْذِبِينَ بِالرِّسَالَةِ مِنَ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ، بِمَا يَفِيدُ أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي هَذَا الاسْتِعْرَاضِ إِنَّمَا هِيَ تَنْبِيهُ مَنْ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ وَذَهْنٌ مُتَيْقِظٌ، إِلَى اسْتِخْلَاصِ الْعِبْرَةِ وَالِانْتِفَاعِ بِالذِّكْرِ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِّمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التذكير بقدرته الله، بديع السماوات والأرض، والتذكير بكونه سبحانه منزهاً عن أن يلحقه أيُّ تعب أو إعياء، لا بالنسبة لإيجاد المخلوقات، ولا بالنسبة لإمدادها، لا بالنسبة للنشأة الأولى، ولا بالنسبة للنشأة الآخرة، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً عملية البعث والنشور، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لَّغُوبٍ ﴾، أي: ما مسنا تعبٌ ولا نصب، وإلى

نفس هذا المعنى يشير قوله تعالى في سورة (الأحقاف: ٣٣): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْنِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقوله تعالى في سورة (النازعات: ٢٧) ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾، وقوله تعالى في سورة (غافر: ٥٧): ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

وقد نبهنا في حديث سابق إلى أن «الأيام الستة» التي خلق الله فيها السماوات والأرض وما بينهما ليست من جنس أيامنا التي نقضيها فوق هذا الكوكب الأرضي، وإنما هي من الأيام التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧)، وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤)..

واتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول الأعظم عليه السلام داعياً إياه إلى المزيد من الصبر على أذى المشركين، وإلى الالتجاء إلى الله بالعبادة والتسبيح والدعاء: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ السُّجُودِ﴾.

وختمت سورة (ق) بنفس الموضوع الذي كان فاتحة لها، وهو موضوع البعث والحياة بعد الموت: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا

ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٠﴾ .

ومن هنا نتقل إلى سورة «الذاريات» المكية أيضاً، وفي بدايتها نجد التذكير بنفس البعث والمعاد، والقسم من الله على وقوعهما: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَمَلَاتِ وَقُرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعٌ ﴿٤١﴾ ، والمراد «بالذاريات ذروا» الرياح، والمراد «بالحاملات وقرا» السحب، لأنها تحمل الماء، والمراد «بالجاريات يسرا» السفن، لأنها تجري في البحر بسهولة، والمراد «بالمقسّمات أمرا» الملائكة، لأنها تنزل بأوامر الله الكونية والشريعة وهذا التفسير مروى عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

وتحدث كتاب الله عن «الخرّاصين» المرتابين الذين يكذبون على الله ورسوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿٤٢﴾ ، وعن المتقين وما ادّخر لهم الحق سبحانه في دار النعيم، جزاء إيمانهم وإحسانهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٤٣﴾ .

وأشار كتاب الله إلى ما لله من آيات ناطقة بقدرته، متجلية في الأرض والسماء والأنفس، فقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ .

وُخِّمَ هذا الرُّبْعُ بالحديث عن قصة إبراهيم وضيوفه من الملائكة المُكْرَمِينَ، وكيف أن إبراهيم الخليل عليه السلام استقبل ضيوفه أحسن استقبال، حتى أصبح عمله دستوراً في «آداب الضيافة» معمولاً به عند السُّلْفِ والخَلْفِ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في هذه القصة: ﴿ هَلْ أَتِيكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا. قَالَ سَلَامٌ ۗ ﴾، ثم قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ۗ ﴾، أي: أن إبراهيم جاء لضيوفه بالطعام بسرعة ودون سابق إشعار، ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۗ ﴾ أي أنه أتى بأفضل ما عنده، وهو عجل فتي مشوي (فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ) أي وضعه بين أيديهم، ثم قال لهم على سبيل العَرَضِ والتلطف، لا على سبيل الأمر والتكلف: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ۗ ؟ ۙ ﴾ .

واشتمل سياق هذه القصة على تبشير الملائكة لإبراهيم بغلام يولد له: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۗ ﴾، لكن امرأته استغربت من هذه البشرى، نظراً لكونها تشعر أنها ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۗ ﴾ إلا أن الملائكة ردوا عليها رداً يُزِيلُ من ذهنها كلَّ تعجب واستغراب، ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ. إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۗ ﴾، وقد حقق الله لإبراهيم وزوجه هذه البشرى بولادة إسحاق عليه السلام، لأن الأقدار الإلهية هي التي تكون نافذة الأحكام على الدوام، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۗ ﴾ (يس: ٨٢).

الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين
في المصحف الكريم

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ
 مُّجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ ﴿٣٨﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ
 رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ فَمَا
 وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ
 يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤٢﴾ وَفِي مِثْلِهَا إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
 بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٣﴾ فَنُوحِيَ إِلَيْهِ الْكَلِمَٰتُ وَوَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٤٤﴾ فَأَخَذْنَاهُ
 وَجُنُودَهُ وَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٥﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا
 عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَةَ ﴿٤٦﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
 كَالرَّمِيمِ ﴿٤٧﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُم تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٨﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ
 رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٩﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ
 وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥١﴾
 وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٥٢﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا

فِنِعْمَ الْمُهْدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾
كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ
فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾
وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ
رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ
الْمُتِينِ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا
يَسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ قَعٌ ﴿٧﴾ مَالَهُ
مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى
نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا
 تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْجَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
 فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَاءٍ أَيْسُهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَيْهِمْ رَبُّهُمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِنِينَ
 عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ
 مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ
 بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ تَمَائِشْتُهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا
 لَّا لَعْنٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ ﴿٢٣﴾

الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الذاريات» المكية: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة «الطور» المكية أيضاً: ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمُ﴾.

في بداية هذا الربع يواصل كتاب الله الحديث عن إبراهيم وضيوفه من الملائكة المكرمين، ويبين لنا كيف استفسر إبراهيم ضيوفه عن المهمة التي أرسلوا لإنجازها في هذه الرحلة المستعجلة، كما يعرض علينا كتاب الله فحوى الجواب الذي أجابوا به إبراهيم عن سؤاله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾، أي: ما شأنكم، وفيم جئتم أيها المبعوثون، ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، والمراد «بالقوم المجرمين» هنا قوم لوط حسبما يؤخذ من قوله تعالى في آية أخرى عن قصة إبراهيم وضيوفه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٤، ٧٥، ٧٦﴾. ثم يكشف ضيوف إبراهيم لمضيفهم الكريم، كما في نفس هذه الآية، عن الغرض الأساسي من بعثهم وإرسالهم إلى قوم لوط، ألا وهو إنزال العقاب الإلهي بهم، بانتقاء نوع خاص من الحجارة وقع عليه الاختيار الإلهي، ورجمهم به من السماء، فيفعل بهم فعل الطاعون والوباء، وذلك قوله تعالى على لسان ضيوف إبراهيم: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

غير أن الله جلت قدرته، ودقت حكمته، لم يجمع في عذابه بين «المسرفين» و«المومنين»، فيؤاخذ هؤلاء بجرم أولئك، بل نجى من العذاب لوطاً ومن كان معه من المومنين، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وقد نصّ كتاب الله في آية أخرى على أن امرأة لوط - واسمها «وَأَغْلَةَ» فيما يرويه المؤرخون - لم تكن من بين الناجين، بل كانت من الهالكين، كما قال تعالى في سورة (العنكبوت: ٣٢): ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

ولا يستغربن أحد اهتمام إبراهيم الخليل بقصة قوم لوط، وحواره مع ضيوفه في شأن لوط وقومه، فعلاقة إبراهيم الخليل بلوط عليهما السلام علاقة وثيقة جداً، إذ أن لوطاً هو ابن أخ إبراهيم، وكان إبراهيم الخليل يحبه حباً شديداً، واشترك معه في رحلته إلى الشام، إلى جانب امرأته «سارة» فاستقر إبراهيم

بفلسطين، واستقر لوط بالأردن، وأرسله إلى أهل «سُدُوم» وما يليها، وكانوا كفاراً يأتون من الفواحش ما لم يسبقهم به أحد من العالمين إذ استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، فلما طال تماديتهم في غيِّهم ولم ينزجروا دعا عليهم لوط عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٠)، فأجاب الله دعاءه، وانتصر له بإهلاك مكذبيه، ودمر قري قوم لوط، فأصبحت أثراً بعد عين، كما قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ (هود: ٨٢).

ثم عقب كتاب الله على ما دار من الحوار بين إبراهيم الخليل وضيوفه حول مصير قوم لوط، بما يفيد أن العذاب الأليم الذي استحقوه إنما ضرب الله به المثل لمن يأتي بعدهم، حتى يكون لغيرهم عبرة وذكرى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وقد أثبت البحث أن المكان الذي كان يعيش فيه قوم لوط قد تحوّل منذ حلّ بهم عذاب الله إلى بحيرة خبيثة مُنتنة يتجنبها الناس.

ثم أعاد كتاب الله الكثرة بذكر قصص الأمم الغابرة التي كذبت الرسل وأعرضت عن رسالات الله، وورد ذلك هنا على وجه الإجمال، بعد ذكرها مفصلة في سورٍ أخرى، وفي أول القائمة قصة «فرعون» وقومه وما أصابهم من الغرق، وقصة «عاد» وما أصاب ديارهم من دمار بالريح، وقصة «ثمود» وما فعلت بهم الصاعقة، وقصة «قوم نوح» وما فاجأهم من الطوفان، وذلك قوله

تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَى إِذِ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴾،
 أي: بحجة قاطعة، ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾، أي: اغتر فرعون بقوته، واعتمد
 على قومه، ﴿ وَفِي عَادٍ إِذِ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾، أي:
 الريح التي تهلك ولا تنتج شيئاً، ﴿ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ آتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا
 جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ ﴾، أي: إلا قضت عليه بالذبول والفناء، كالجسم
 المنحل الفاني، ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذِ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ فَعَتَوْا
 عَنَ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنَ
 قِيَمٍ وَمَا كَانُوا مُتَّتَصِرِينَ ﴾. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى:
 ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ
 صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (فصلت: ١٧)،
 ويتصل بها قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ
 أَيَّامٍ ﴾ (هود: ٦٥)، ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾، أي: واذكر قوم
 نوح من قبل بقية الأقسام، لأنهم سبقوهم جميعاً، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا
 قَوْمًا فَسِقِينَ ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تذكير عباده بوجوب النظر والتأمل في
 كتاب الكون الأكبر، المفتوحة صفحاته لعقول الناس وقلوبهم
 جميعاً، بما فيه من سماء وأرض وأحياء، وما فيه من أنواع
 وأصناف بلغت في التعدد والتنوع إلى حد يفوق كل إحصاء،
 وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾، أي: بنيناها بقوة،
 ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾، أي: جعلناها مستقراً ملائماً للإنسان كأنها
 الفراش الذي يأوي إليه، ونظراً لكونها مهدياً لحياة الإنسان فقد
 مهَّدنا له فيها سبل العيش، ووفَّرنا له فوق سطحها وسائل الحياة

وإمكاناتها، ﴿فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، أي: أن قدرة الله بلغت غاية الغاية في الإنشاء والإبداع على غير مثال سابق: حتى أنها لم تكتف بخلق جنس واحد، أو نوع واحد، أو صنف واحد، بل انفردت بخلق مختلف الأجناس والأنواع والأصناف، وشمل ذلك جميع المخلوقات، بما فيها الحيوانات والنباتات والجمادات، فهناك على سبيل المثال سماء وأرض، وبر وبحر، وشمس وقمر، وليل ونهار، وضياء وظلام، وحياة وموت، وسعادة وشقاء، وهكذا إلى ما لا نهاية له، حتى «الذرة» نفسها مؤلفة من زوج من الكهرباء: موجب وسالب.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تنبيه على أن استخلاص العبرة، والوصول إلى معرفة الله عن طريق أعمال الفكر في مخلوقاته، هو الثمرة المرجوة من النظر فيها، والتأمل في عجائبها وأسرارها، ولذلك وقع التعقيب على هذه الآية مباشرة بقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، والفرار إلى الله معناه التخفف من أثقال البشرية، والتحرر من أغلالها الوهمية، وفي الطليعة الفرار من عبادة الأوثان، إلى عبادة الرحمن، والفرار من الضلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، ومن العبودية للأصنام والطواغيت إلى العبودية لله وحده، وبها يتم التحرر الكامل الشامل، ويتحقق الاعتماد الكلي في جميع الأمور على خالق الخلق، ورازقهم الذي يحيى ويميت: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وذكر كتاب الله بظاهرة غريبة سجلها تاريخ النبوات

والرسالات منذ البداية إلى النهاية، ألا وهي تصدّي طائفة من البشر لمحاربة الرسل، والتشنيع عليهم، والتشهير بهم، ووصفهم بأقبح الصفات، حتى كأن خصوم الرسالات الإلهية يتواصون فيما بينهم عبّر الأجيال بنفس الادعاءات، إذ يرددون على ألسنتهم دائماً نفس الاتهامات، وإلى هذه الظاهرة الغريبة يشير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ اتَّوَصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، وإلى هذا المعنى نفسه يشير قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (فصلت: ٤٣).

وكان كتاب الله عندما ذكّر خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام بهذه الظاهرة الغريبة التي واجهها جميع الأنبياء والرسل من قبله أراد أن يهدّئ من روعه، ويخفف عنه وقع الاتهامات التي يوجهها إليه المشركون من قومه، ولذلك أتبعها بدعوته إلى تجاهل ما يوجهونه إليه من الأذى والتعنيف، والإعراض عنه كأنه لم يكن، فقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى متصف بصفة «الغنى المطلق»، فهو غني عن خلقه على الدوام، كما أن فيه إشارة إلى أن تحقق المخلوق بكونه مخلوقاً، وبكونه محتاجاً على الدوام إلى رعاية خالقه، وإحسان رازقه، كافٍ لأن يجعله مقبلاً

على الله، يبتغي طاعته ويلتمس رضاه، ويرجو نواله ونعماه، وإلا فكيف يُعقل أن يعرف المخلوق أنه «مخلوق» ثم يتجاهل الله الذي خلقه ورزقه، وأوجده من العدم؟ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

والآن وقد فرغنا من تفسير سورة «الذاريات» المكية نشرع في تفسير سورة «الطور» المكية أيضاً، مستعينين بالله. وأول ما يستقبلنا في هذه السورة الكريمة قَسَمٌ من الله عظيم، على أن «الساعة» آتية لا ريب فيها، وعلى أن المَعَادَ حَقٌّ بكل توابعه ونتائجه، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ، وَكِتَابٍ مُسْتُورٍ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ومعنى «الطور» الجبل إذا كان فيه شجر، ومعنى «البحر المسجور» الذي يتأجج ناراً، و«المور» تحرك السماء بأمر الله ومَوْجٌ بعضها عند قيام الساعة، ومعنى «يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ» يُدْفَعُونَ إِلَيْهَا وَيُسَاقُونَ.

وبعدما وصفت الآيات الكريمة حالة المكذِّبين بالرسول، وما أعد الله لهم في جهنم من العذاب الأليم، تولت بالشرح والوصف والمقارنة حالة المتقين وهم في جنات ونعيم، وأشارت

بالخصوص إلى ما يتفَضَّلُ به الحق سبحانه عليهم، إذ يجمعُ شمل المومنين من الآباء والأبناء في مَقام واحد، ويُقَرُّ أعين الآباء، فيُلحِقُ بهم ما لهم من أبناء، وإن كان بعضهم أعلى درجة من البعض الآخر عند الله، بالنسبة إلى عمله الصالح وتقواه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ ﴾ .

ولمَّا أخبر كتاب الله عن «مقام الفضل» وهو رَفَعُ درجة الأبناء إلى منزلة الآباء، من غير عمل كاف يقتضي ذلك، أخبر عن «مقام العدل»، وهو أنه لا يواخِذُ أحداً منهم بذنب الآخر وأنَّ كل امرئٍ مُّرتَهَنٌ بعمله، لا يُحْمَلُ عليه ذنبٌ غيره من الناس، سواءً كان أباً أو ابناً، فقال تعالى: ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (الأنعام: ١١٥).

الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ
كَأَنَّهُمْ لَوْلُو مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَوَقَيْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ
أَنَّهُ هُوَ أَلْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ
بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ
رَبِّبَ الْمُتُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾
أَمْ تَأْمُرُهُمْ وَأَحْلَاهُمْ يَهْدِئَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
تَقَوْلُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا
صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾
أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ
خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ

فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَعْتِمُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ
 وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾
 أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ
 كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌُ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ
 عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا
 سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ
 يَصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
 بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
 الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾
 ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
 فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْجَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْجَىٰ ﴿١٠﴾
 مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُكْفَرُونَهُ وَعَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ

نَزَلَةَ آخِرَى ⑫ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ⑬ عِنْدَ هَاجِنَةِ الْمَأْوَى ⑭
 إِذِغَشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ⑮ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ⑯ لَقَدْ رَأَى
 مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ⑰ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّى ⑱ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ
 الْآخِرَى ⑲ الْكُورُ الَّذِ كُرُو لَهُ الْأُنْبَى ⑳ تِلْكَ إِذْ أَوْسَمَهُ ضَيْزَى ㉑
 إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
 سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
 مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ㉒ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْتَعَى ㉓ فَلِلهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ㉔

الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة «الطور» المكية: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾، ونهايته قوله تعالى في سورة «النجم» المكية أيضاً: ﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِللهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾.

في بداية هذا الربع يصف كتاب الله نوع الأحاديث التي يتبادلها أهل الجنة فيما بينهم، عندما يستقرون، بفضل الله، في «دار الخلود» فها هم أولاء يُقبلُ بعضهم على بعض في مودة وإخاء، ويسأل بعضهم بعضاً في ثقة واطمئنان وها هم يستعيدون ذكرياتهم عما مضى لهم في الحياة الدنيا، وها هم يُحللون حالتهم النفسية والخلقية التي كانوا عليها في «دار التكليف» وها هم يستخلصون النتائج والعبر مما كانوا عليه، ومما صاروا إليه، وذلك ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلْ بِعَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنْ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَوَقَيْنَا عَذَابَ السُّمُومِ ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾.

ومعنى قول أهل الجنة: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي: كنا في حد ذاتنا، وفيما بين أهلنا ووسط عشيرتنا، ملتزمين لتقوى الله، متجنِّبينَ لمعصية الله، خائفين من حساب الله، ولم نكن طاعينين ولا متمردين ولا غافلين، ومعنى قول أهل الجنة: ﴿ فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَيْنَا عَذَابَ السُّمُومِ ﴾، أن الله تعالى تفضل علينا بما آتانا من النعيم المقيم، وبما نَجَّانا منه من العذاب الأليم. واعترافهم في هذا المقام «بمِنَّة الله عليهم» دون «الامتنان عليه» بعمَلهم، أو باستحقاقهم للجزاء عليه، يَدُلُّ على مبلغ ما هم عليه من أدب مع الله، فهم يعتبرون الأعمال الصالحة التي عملوها في «دار الفناء» مُجرَّد توفيق من الله، وَيَعُدُّونَ الجزاء الحسن عليها في «دار الجزاء» مجرد مِنَّة من الله، وذلك منتهى الكمال في الأدب، في الدنيا والآخرة.

ومعنى قول أهل الجنة: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ أَنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾، أنهم كانوا على الدوام يترقبون باب الله، دون أن يَمَلُّوا من الدعاء والتضرع والابتهاال، إذ كانوا واثقين بأن «الدعاء هو مُخُّ العبادة» كما جاء في الحديث الشريف، بحيث يلتجئون إليه سبحانه في السراء والضراء، والشدة والرخاء، إيماناً منهم بأنه لا ضارَّ ولا نافع سواه، وتجاوباً منهم مع التوجيه الإلهي القاطع: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (النمل: ٦٢)، وهم عندما كانوا يتوجهون بدعائهم، ويتجهون فيه إلى الله وحده، لم يكن يُدْخِلُهُمْ أدنى شك في برِّ الله لهم، ورحمته إياهم، إذ هو سبحانه «البرُّ الرحيم» بأوسع معاني البر، وأعم وجوه الرحمة.

وانتقل كتاب الله إلى تثبيت قلب الرسول عليه السلام، وحمله على الصبر إلى النهاية، في سبيل تبليغ الرسالة، دون أن يتأثر بما يوجهه إليه أعداء الله من قذف بالكهانة حيناً، وبالجنون حيناً، فقد حماه الله منهما، وأنعم عليه بأكبر النعم، إذ اختاره سبحانه وتعالى لأمر عظيم، وأكرمه بخلق عظيم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾.

ثم استنكر كتاب الله ما يُلفقه المشركون أحياناً أخرى من وصف الرسول عليه السلام بأنه مجرد «شاعر»، على نمط ما اعتادوه من الشعراء المغرّفين في الخيالات والنزوات والأحلام، وإن كانوا يعرفون حق المعرفة أنّ كلام الله الذي يُتلى عليهم ليس من الشعر ولا من النثر في شيء، وذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴾، أي: يزعمون أنه مجرد شاعر، ويرون أنه لا بأس - إذا اقتضى الحال - بغض الطرف عنه، في انتظار أن يدركه الموت، فيستريحوا منه ومن شعره، كما كان أمرهم مع الشعراء الأولين، ثم يردُّ عليهم كتاب الله قائلاً: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾، أي: قل لهم يا محمد: انتظروا فإنني منتظر معكم. وكأنه يقول لهم: إن الأمر هنا على خلاف ما تظنون، فهو يتعلق برسالة خالدة إلى يوم الدين، يموتون هم جميعاً ولا تموت هي أبداً، وإنَّ الأمر يتعلق بكتاب إلهي خالد، قد تكفل الحق سبحانه وتعالى بحفظه في الصدور، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وليس الأمر متعلقاً - كما يدعون - «بشعر جاهلي» يعيش في ظل الجاهلية، ثم يموت وينتهي مفعوله

إلى الأبد. كما استنكر كتابُ الله ما يدَّعيه المشركون في مناسبات أخرى، مِنْ أن الوحي الذي تنزَّل على رسول الله ﷺ إنما هو مجردُ «تَقَوْل» من عنده وافتراءٍ على الله، متحدِّياً لهم أن يأتوا بمثله إذا كان ما يدَّعونه حقاً وصدقاً، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوْلُهُ بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَاتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾، وهيهات لهم ذلك، فإن كتابَ الله تَسْرِي فيه روح من أمر الله، ومعانيه نابعةٌ من مَعِينِ علم الله، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحسن في كل شيء صنعاً.

وعرَّج كتابُ الله مرة أخرى على قصة «بدأ الخليقة»، ومركز الإنسان الحقيقي بالنسبة لبقية المخلوقات، وتحدي المشركين الذي يجهلون أو يتجاهلون أن الله واحد أحد، وأنه لم يلد ولم يولد، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبُنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

واستغرب كتابُ الله ما عليه المشركون من إعراض عن الرسالة العظمى التي جاءهم بها الرسول عليه السلام، رغمًا عن أن هذه الرسالة مجردُ عطية إلهية، وهبة ربانية، تَكْرَمُ عليهم بها الحق سبحانه وتعالى، هدايةً لهم، وأخذاً بيدهم، ورغمًا عن أن القائم بها والداعي إليها لا يطلب لنفسه أيَّ أجر عليها، ولا

يُلْزِمُهُمْ بِأَدَاءِ أَيِّ مَغْرَمٍ خَفَّ أَوْ ثَقُلَ، مُقَابِلَ تَبْلِيغِهَا لَهُمْ، وَنَشْرُهَا بَيْنَهُمْ، وَذَلِكَ مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾.

وأشار كتابُ الله إلى أن العذاب الذي يسلطه الله على المشركين والمكذِّبين، وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ مِنَ الْعَصَاةِ الْمَذْنِبِينَ، وَالْمُسْرِفِينَ الظالمين، نوعان اثنان:

النوع الأول: «العذاب الأكبر» وهو العذاب الماحق الساقق، الذي ينتهي بالإبادة والفناء في الدنيا، وبالخلود في جهنم في الآخرة.

النوع الثاني: «العذاب الأدنى» وهو العذاب الذي يراد به مجرد التذكير والتأديب والتلوم في الدنيا، عسى أن يقبل المشركون على الإيمان بالله، وَعسى أن يعودَ العصاة إلى طاعة الله، وَعسى أن ينتهي الطغاة عن تعدي حدود الله.

فبالنسبة للنوع الأول قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، أي: إِنْ يَرَوْا عَذَابًا نَازِلًا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُوا جُحُودًا وَعِنَادًا إِنَّهُ سَحَابٌ مُّقْبِلٌ عَلَيْهِمْ بِالماءِ وَالحياةِ وَالبَرَكةِ، ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

وبالنسبة للنوع الثاني قال تعالى في نفس السياق: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾، وهذا النوع من العذاب يتلى به الله الأمم التي انحرفت عن الطريق السوي، ولا يرفعه عنها إلا

إذا عادت إلى رشدها، وخرجت من تيه الغواية والضلال، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة: ٢١).

ويتنقل كتابُ الله من مُحَاجَّةِ المشركين، والرد على ادِّعاءاتهم الباطلة، ووصف ما هم عليه من الجحود والعناد، إلى مخاطبة الرسول عليه السلام، ودعوته إلى الاستمرار على ما هو عليه من صبر مُزدوج: صبرٍ في أداء الرسالة بكل تَفَانٍ وثبات وإخلاص، وصبرٍ على أذى المشركين الذي لا ينقطع أبداً، والذي يأخذ كل يوم لوناً جديداً من التقولات والادعاءات وحرب الأعصاب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: أن الله تعالى قد تكفل بأن يعصمك من الناس، وبأن يردعك بعينه التي لا تنام. وفي هذا الخطاب الإلهي الرقيق مُنتهى التأييد والإعزاز والإكرام.

ثم دَعَا نبيُّه عليه السلام إلى الاستعانة على ما هو بصدده من أعباء الرسالة العظمى، بالعبادة والدعاء والتسبيح، فذلك أكبر مدد يُمدُّ الله به أصفياءه من خلقه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾.

وبهذا العرض الواضح نختم سورة «الطور» المكية، ونتنقل إلى سورة «النجم» المكية أيضاً، وأول ما يواجهنا في هذه السورة الكريمة قَسَمٌ من الله عظيم على صدق الرسول في رسالته،

وعلى تصديق الوحي الذي ينزل عليه من عند الله، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

ويشير كتاب الله في إيجاز وإعجاز إلى أول لقاء ونعارف تم بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام في بداية نزول الوحي، عندما بعثه الله على رأس الأربعين، ورأى جبريل على صورته، وذلك قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: ذو قوة، والمراد به هنا جبريل، ﴿فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾، أي: على بُعد ما بين القوسين أو أدنى، تعبيراً عن منتهى القرب منه، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، أي: أوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله ما أوحاه إليه ربه: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾، أي: أن رؤية النبي عليه السلام لجبريل الذي نزل عليه بالوحي كانت رؤية مشاهدة وعيان، ويقين قاطع، بحيث لا تقبل شكاً ولا جدالاً: ﴿أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَبْرئ﴾.

ثم أشار كتاب الله بالخصوص إلى لقاء آخر تم بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام، إذ رآه على هيئته التي خلقه الله عليها ليلة الإسراء والمعراج، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ آخِرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ، إِذْ يَغْشَىٰ السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾، يستفاد منه معنيان: المعنى الأول أن رؤية النبي ﷺ لجبريل (ع) ليلة الإسراء كانت رؤية حقيقية ليس فيها أدنى غلط في المشاهدة، مما قد يَعْتَوِرُ أعين الناس العاديين حيث يقع لهم أحياناً غلط في الرؤية، وخالط في النظر بالبصر، والمعنى الثاني أن رسول الله ﷺ لم يُجاوِزْ في هذا المقام العظيم ما أمر به، ولم يتطلع لكشف ما لم يُودَّنْ له فيه، ولم يسأل أكثر مما أُعطي، فلا زهو ولا إلحاح ولا تطاول. بل كان عليه السلام في منتهى الطاعة ومنتهى الثبات ومنتهى الأدب. قال ابن كثير: «وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتأها»

وقوله تعالى هنا: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾، تنويه بما أطلع الله عليه خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، من آثار قدرته الباهرة، ودلائل سطوته القاهرة، في العالم العلوي الفسيح، وذلك علاوة على ما أوحاه إليه في كتابه المبين، من الدلائل القاطعة، والحجج الساطعة. وحكمته سبحانه في ذلك كله أن يزود رسوله بأكبر زاد من المعرفة واليقين، وأن يُعده لحمل رسالته على أكمل وجه إلى العالمين.

وانتهى هذا الربع بتسفيه معتقدات المشركين ومقدساتهم من الأصنام والأوثان: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾، وبين كتاب الله أنهم لا يعتمدون في معتقداتهم الباطلة إلا على مجرد الظنون والأهواء والأمانى، وكل

منها لا يصلح أساساً للاعتقاد، ولا سنداً للسلوك: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ
إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ أَمْ
لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَىٰ فَلَئِنَّ الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

وَكَرَّمْنَا مَلَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ
 اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ۗ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ
 تَسْمِيَةَ الْإِنثَى ۗ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا
 يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۗ ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدِ إِلَّا الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا ۗ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
 وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ۗ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۗ ﴿٣١﴾
 الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْأَسْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ
 الْمَغْفِرَةِ ۗ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ وَإِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ وَأَجْنَةٌ
 فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۗ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۗ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَتَّبِعَى ۗ ﴿٣٢﴾
 أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۗ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْبَدَى ۗ ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ وَعِلْمُ
 الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۗ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَهُ يُنْبَأُ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۗ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۗ ﴿٣٧﴾

الْأَتْرُزُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى ③٨ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ③٩
 وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ④٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ④١ وَأَنْ
 إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ④٢ وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ④٣ وَأَنْتَ هُوَ آمَنَ وَأَحْيَا ④٤
 وَأَنْتَ هُوَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ④٥ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ④٦
 وَأَنْ عَلَيْهِ النِّشَاءَ الْأُخْرَى ④٧ وَأَنْتَ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَى ④٨ وَأَنْتَ هُوَ
 رَبُّ الشَّعْبَى ④٩ وَأَنْتَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ⑤٠ وَتَمُودًا أَتْبَى ⑤١
 وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ وَأَظْلَمَ وَأَطْغَى ⑤٢ وَالْمُوتَفِكَةَ
 أَهْبَى ⑤٣ فَغَشَّيْهَا مَا غَشَّيْتُ ⑤٤ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ⑤٥
 هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ⑤٦ أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ ⑤٧ لَيْسَ لَهَا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ⑤٨ أَفِنَّ هَذَا الْحَدِيثِ تَجْبُونَ ⑤٩ وَتَضْحَكُونَ
 وَلَا تَنْبَكُونَ ⑥٠ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ⑥١ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ⑥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا
 سِحْرٌ مُّسْتَقَرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ③
 وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا
 تُغْنِ النَّذْرُ ⑤ فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَىٰ شَيْءٍ تُكْمِرُ ⑥

خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴿٧﴾
 مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ
 قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾

الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديثنا هذا اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم. ابتداء من قوله تعالى في سورة «النجم» المكية: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾، إلى قوله تعالى في سورة «القمر» المكية أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

كانت آخر آية في نهاية الربع الماضي هي قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾، وأول آية تليها في ربع اليوم هي قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً﴾، والآيتان مرتبطتان كل الارتباط، فكتاب الله يريد أن يؤكد للجميع، وخصوصاً لمن أشركوا بالله غيره، فعبدوا الأصنام والأوثان والشياطين، أو الملائكة، أن جميع ما يُخَيَّلُ إليهم أنهم يتقربون بعبادته، ويتوسلون به، ويُعَلِّقُونَ عليه الآمال، من غير الله، لن ينفعهم في الدنيا ولا في الآخرة، ذلك أن الحياة الأولى - وهي الدنيا - لا تُفَلِّتُ من قبضة الله، وأن الحياة الآخرة لا أمر فيها ولا

سلطان لغير الله، ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴾، ﴿ لَمَّنَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (غافر: ١٦). وما دامت هذه هي الحقيقة الناصعة التي لا حقيقة سواها، فكلُّ ما يُمَنِّي به المشركون أنفسهم وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ من شفاعة الشفعاء يوم القيامة لا يُغني عنهم من الله شيئاً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً ﴾، اللهمَّ إِنْ أذن الله للشفيع بأن يشفع، وللمشفوع فيه بأن يناله حظُّ الشفاعة، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾، على غرار قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَدْنَىٰ لَهُ ﴾ (سبأ: ٢٣)، قال ابن كثير: «فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رُسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه» فالأمرُ إذن متعلِّقٌ ببدءٍ وختاماً بمشيئة الله ورضاه، وعليه لا على غيره يجب أن يكون الاعتماد، وإليه لا إلى غيره يلزم أن يكون التوجه. على أن نفس أولئك المقربين الذين تُعلِّق عليهم آمال الشفاعة للمذنبين، لا يسمَحُ لهم مقتضى ما هم عليه من الأدب مع الله، والمعرفة الكاملة بمدى جلاله وعظيم سلطانه، أن يتقدموا بين يديه، دون إذنه ورضاه، أو أن يشفعوا فيمن يعرفون أنهم أعداء الله، فضلاً عن أن يضمّنوا للمستشفعين بهم مُسَبِّحاً الغفرانَ والرِّضوانَ، ودخول الجنان.

وأشارت الآيات الكريمة إلى معتقد باطل من معتقدات المشركين التي جاء لمحاربتها القرآن، ألا وهو اعتقادهم أن الملائكة إناث وبنات، بناء على مجرد الظنون والأوهام، وذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ .

ثم تَوَجَّه الخطابُ الإلهي إلى الرسول عليه السلام، طالباً منه الإعراض عن المشركين الذين أصروا على معتقدات الشرك، مع علمهم بأنها ضلال في ضلال وخبال في خبال، ما داموا قد اختاروا لأنفسهم الاستمتاع البهيمي المطلق، بملذات الحياة وشهواتها، وَفَضَّلُوا عدم التقيد بأي قيد من قيود الدين والأخلاق، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضَ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ ﴾ .

وعادَ كتابُ الله مرةً أخرى للحديث عن الجزاء العادل الذي يناله المحسنون والمسيئون، مُبَيِّنًا أن كل ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، بما فيهم الشفعاء والمقربون الذين تُعَلَّقُ عليهم الآمال، من طَرَفِ المقصِّرين المهمِّلين لصالح الأعمال، إنما هو ملكٌ لله وفي قبضته، وتحت قهره ومشيتته، وإذن فلا مفر للمسيئين من انتظار العقاب، ولا سبيل لحرمان المحسنين من انتظار الثواب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ .

بِالْحُسْنَى ﴿١﴾، فَتَفَرَّدُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمُلْكِهِ وَحُكْمِهِ هُوَ الضَّمَانَةُ الْوَحِيدَةُ لِلْجِزَاءِ الْعَادِلِ، الَّذِي يَنْتَظِرُهُ الْخَلْقُ جَمِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَلَى يَدِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ.

ومن هذا الموضوع انتقلت الآيات الكريمة إلى وصف «المحسنين» الذين تنتظرهم «الحُسْنَى» عند الله، فأوضح كتابُ الله أن شأن المحسنين أن يجتنبوا كبائر الإثم، وأن يجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً، بمجرد ما يقع منهم أدنى تقصير أو تفريط، «فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» كما قال عليه السلام، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

وَعَقَّبَ كِتَابُ اللَّهِ عَلَى مَا وَصَفَ بِهِ الْمُحْسِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ، بِمَا يَفِيدُ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْعَادِي قَدْ خَلَقَ ضَعِيفاً عَنْ مَقَاوِمَ شَهْوَاتِهِ وَنَزَوَاتِهِ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ، وَأَنَّهُ بِحُكْمِ ضَعْفِهِ الْبَشَرِيِّ قَدْ يَتَعَرَّضُ لِارْتِكَابِ بَعْضِ الذُّنُوبِ فِي بَعْضِ الْفَتَرَاتِ، وَدَوَاءُ ذَلِكَ هُوَ الْمَبَادَرَةُ بِالْإِقْلَاعِ عَنِ الذَّنْبِ، وَعَدَمُ الْإِصْرَارِ عَلَيْهِ، وَالتَّوْبَةُ مِنْهُ تَوْبَةً نَصُوحاً، وَفِي هَذَا السَّبِيلِ أَعْفَى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَهُ مِنْ ادِّعَاءِ مَا لَيْسَ فِيهِمْ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ لَا يَرْضَى مِنْهُمْ بِتَرْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ وَتَقْدِيسِهَا، وَمَدْحِهَا أَمَامَ الْغَيْرِ بِسُلُوكِ نَهْجِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالتَّقْوَى عَلَى الدَّوَامِ، فَالْجَوَادُ يَكْبُؤُ، وَالسَّيْفُ يَنْبُؤُ، كَمَا يَقُولُ الْمَثَلُ الْعَرَبِيُّ الشَّهِيرُ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى يَشِيرُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنَّكُمْ أُجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا

أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴿١﴾ .

وانتقل كتابُ الله إلى وصف نموذج من الناس تفيض فيهم عاطفة البر والإحسان، فيبادرون في بعض الأحيان إلى إسداء الخير لمستحقِّيه، وبذل المعروف لأهله، ثم تجفُّ في قلوبهم هذه العاطفة النبيلة، فينقلبون إلى بخلاء أشحاء، مُوسوسين بالتفكير في «اليوم الأسود» الذي يفاجئهم بالعسر بعد اليسر، وبالفقر بعد الغنى، وأبطل كتاب الله مخاوف هذا الصنف من الناس الذين يقبضون أيديهم بعدما بسطوها بالبر والإحسان، مؤكداً لهم أن علم الغيب أمر قاصر على الله، وأنه لا مبرر لخوفهم من المستقبل المظلم، من جرّاء مداومتهم على عمل البر، فذلك أمر لا يتفق مع التصديق بوعد الله، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلاً وَاكْدَى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ ﴿٢﴾ .

ثم استعرضت الآيات الكريمة جملةً من التعليمات الإلهية، والعقائد الدينية الإسلامية، التي احتوت عليها صُحف إبراهيم وموسى، مما يُعتبر تراثاً دينياً خالداً مشتركاً بين جميع الأنبياء والمرسلين، وكافة المومنين، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى إِلَّا تَزُرُّ وَازِرَةً وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى وَأَنْهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنْهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى وَثَمُوداً فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا

هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى وَالْمُوتَفِكَةَ أَهْوَى فَعَشَّيْهَا مَا عَشَّى فَبَأَى ءِالَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴿١٢﴾ .

فقوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾، معناه أنه لا تحمل نفسٌ حِمْلَ أُخْرَى، وإنما تحمل كل نفس وزرها وحدها، دون أن يُسَمَّحَ للغير بالتخفيف عنها، ولا أن يُسَمَّحَ لها بتثقيل كفة الغير.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾، معناه أن الإنسان كما لا يحِملُ وزر غيره، فإنه لا يُؤَجَّرُ إِلَّا على عمله الخاص، ولا يشاركُ غيره فيما يناله الغير من أجر على العمل الذي قام به دونه. قال ابن كثير: «فأما الدعاء والصدقة فهما مجتمعٌ على وصول ثوابهما إلى الميت، ومنصوص من الشارع عليهما»، وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ، إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم يُتَّفَعُ به» فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعي الإنسان وكده وعمله، كما جاء في الحديث: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ». والصدقة الجارية، كالوقف ونحوه هي من آثار عمله، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءِثْرَهُمْ ﴾ (يس: ١٢)، والعلم الذي نشره في الناس، فاقتدى به الناس بعده، هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً». انتهى ما أورده ابن كثير.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾، معناه أن الإنسان سيُعرض عليه يوم القيامة كل ما عمله في حياته من خير أو شر، وأنه سينال على سعيه وعمله جزاءه العادل، دون زيادة ولا نقصان، على غرار قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨)، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ اِعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾، معناه أن مآل الإنسان ومصيره المحتوم هو الرجوع إلى الله، أحب أم كره، رضي أم سخط، فلا مآوى له في نهاية المطاف إلا في دار النعيم أو في دار الجحيم، وفي هذا تنبيه للإنسان إلى أن يفكر ويُقدّر منذ بداية رحلته في هذه الحياة، حتى يلائم سلوكه مع نهايته المحتومة، ويُكيّف حياته الفانية، بما ينسجم مع حياته الباقية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، إشارة إلى جملة من عجائب صنع الله في خلقه، ولا سيما ما في خلق الإنسان وتكوينه من أسرار ظاهرة وباطنة، لم يصل الإنسان نفسه حتى الآن إلى تحديدها، واستكناه حقيقتها، رغماً عن مرور القرون الطويلة على حياته فوق سطح الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾، إشارة إلى

النجم الذي هو أثقل من الشمس بعشرين مرة، والذي تبلغ قوة نوره خمسين ضعفاً من نور الشمس، وقد كان لهذا النجم من يَرُصُّده ويعبُده من دون الله فبيِّن الحق سبحانه أن «الشُّعْرَى» ليست إلا جزءاً بسيطاً من مخلوقاته، وأنه هو «رب الشعري» ورب كل النجوم صغيرها وكبيرها، بل ربُّ السماوات والأرض وما بينهما: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، والحديث عن «الشعري» في هذه السورة الكريمة مناسب لاسمها الذي هو «سورة النجم» التي نفسرها، فقد تصدر مطلعها قَسَمَ اللهُ العَظِيمَ على صدق رسوله، إذ قال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ﴾، إشارة إلى ما سلف من الأخبار عن الأقوام التي هلكت في سالف الزمان كما فسره أبو مالك الغفاري، وقال قتادة ومحمد بن كعب وأبو جعفر: إنه إشارة إلى رسول الله ﷺ الذي افتتحت به هذه السورة في أولها، تأكيداً لأنه عليه السلام ليس بدعاً من الرسل، وأنه نذير من بين «النذر» الذين أرسلهم الله إلى خلقه على التابع، لهدايتهم إلى سواء السبيل.

كما أشارت الآيات التالية إلى قرب الساعة بعد ظهور الرسالة المحمدية، وذلك أمر لا غرابة فيه، ما دامت الرسالة المحمدية هي آخر الرسالات الإلهية إلى الخلق، فلا رسالة بعدها، ولا رسول بعد الرسول الذي جاء بها، روي أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ السَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ»، وفرق عليه

السلام بَيْنَ أُصْبُعِيهِ الْوَسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامِ. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾، على غرار قوله تعالى في السورة الآتية: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: لا يكشف هولها وخطبها إلا الحق سبحانه وتعالى، أو لا يكشف عن وقت حلولها سوى الله، وكلا التفسيرين صحيح.

وَسَجَّلَ كِتَابُ اللَّهِ مَا يُوحَى بِهِ إِعْرَاضُ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، من التعجب والاستغراب، فبدلاً من أن يتعظوا به عند سماعه، وتقشعروا جلودهم، وتخضع قلوبهم، يضحكون منه، ويعرضون عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

والآن فلنلق نظرة على سورة «القمر» المكية أيضاً، وسنجد بدايتها مرتبطة أوثق ارتباطاً بالآيات الختامية لسورة «النجم» السابقة عليها في الترتيب، ومنسجمة معها كل الانسجام، فقد سبق لنا في نهاية سورة «النجم» قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، وها هي سورة «القمر» تبتدىء بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، مما يؤكد نفس المعنى ويقويه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، يشير إلى ظاهرة كونية تعرض لها القمر في الماضي، وسيعرض في المستقبل لما هو أخطر منها وأكبر، وذلك عند قيام الساعة، على غرار قوله تعالى

في سورة (القيامة: ٧، ٨، ٩، ١٠)، ﴿فَإِذَا بَرَقَ أَبْصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ﴾، وقوله تعالى في سورة (الإنشقاق: ١، ٢): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، والإتيان «بإنشقاق القمر» في سياق الحديث عن «اقتراب الساعة»، دليل واضح على ما بينهما من ارتباط وثيق، فما علينا إلا التصديق بآيات الله الشرعية والكونية، والله في خلقه شؤون.

وإثبات القرآن «لإنشقاق القمر» دليل على أن ما أصابه سيصيب غيره من بقية الكواكب، ولا سيما عند قيام الساعة، وفي ذلك ردٌ قوي وحجة بالغة على «الدهريين - الماديين» الذين ينكرون «أن الساعة آتية»، بدعوى أن العالم لا بداية له ولا نهاية، وأنه سيظل على حاله مهما طال الزمان، وسيبقى فيه ما كان على ما كان. قال فخر الدين الرازي: «إن مُنكر خراب العالم ينكر انشقاق السماء وانفطارها، وكذلك قوله في كل جسم سماوي من الكواكب، فإذا انشق بعضها ثبت خلاف ما يقول به، وأن خراب العالم جائز»، وما قاله الرازي من جواز خراب العالم هو ما يشبه العلم الحديث بمختلف فروعه في هذا العصر، مؤكداً أن للعالم بداية ونهاية. وذلك ما سبق إلى إثباته كتابُ الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢).

وأخيراً استنكر كتابُ الله ما عليه المشركون من تجاهل لآيات الله التي تتعاقب أمام أنظارهم يوماً بعد يوم، دون أن

ينزجروا عن غيِّهم، أو يتراجعوا عن ضلالهم المبين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، ثم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ خُشِعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّتَشِيرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين
في المصحف الكريم

فَدَعَا

رَبَّهُ وَآتَى مَغْلُوبٌ فَانصَرَّ ﴿١٦﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنَمَّرٍ ﴿١٧﴾
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٧﴾ وَحَمَلْنَاهُ
عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ﴿١٤﴾
وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١١﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ وَأَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعَةٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ
كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾
كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَاحِدًا نَسَبُهُ وَ
إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعِيرٍ ﴿٢٤﴾ أ. لَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا
بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾
إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

وَنَبِّئَهُمْ وَأَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ
فَنَعَا جِئْ فَعَقِرْ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطٍ بِالتُّذْرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
حَاصِبًا إِلَّا آلَ لوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَابٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ
نَجَّيْنَاهُ مِنْ شَكْرٍ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ ﴿٣٦﴾
وَلَقَدْ رَوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٩﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ
النُّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ وَأَخَذَ عِزْرَهُمْ مُقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾
أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ
الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْيَبٌ وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾
إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى
وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾
وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَمَا صَحَّ بِالْبَصْرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا

أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي
 الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي
 جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين في المصحف لكريم، وبدأته قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

لا نزال نتذكر أن كتاب الله - في نهاية الربع الماضي - أعاد إلى الأذهان قصة نوح وقومه حيث قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾، وفي بداية هذا الربع يتوالى الحديث عن نفس القصة، إذ يبين كتاب الله أن نوحاً عليه السلام، بعد جهود متواصلة وتوضيحات متوالية، وصل إلى مرحلة قطع فيها كل رجاء وأمل في إصلاح حال قومه، أو إنقاذهم من الضلال الذي هم فيه، فلم يجد نوح عليه السلام بُدّاً من أن يعلن أمام ربه عجزه عن إصلاحهم، ويستنجد عليهم بقوة الله القاهر فوق عباده، وذلك قوله تعالى هنا حكايةً عن نوح: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾، وعلم الله الذي أحاط بكل شيء لم

يفاجئه بأس نوح من قومه، ولا طلبه النصر عليهم من الله، فقد كان دعاء نوح مجرد سبب، لأن ينال قوم نوح من العذاب الأليم ما هم أهل له. وما أسرع ما وقع انتصار الله لدينه ولنبيه، بتسليط طوفان عارم على قوم نوح، اشتركت فيه السماء والأرض على السواء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾. ونجى الله نوحاً من عذاب الطوفان على ظهر سفينة كانت تكلؤها عناية الله، وتحميها من كل خطر، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَاحِ وَدُسْرٍ﴾، و«الدُّسْر» مسامير السفينة أو أضلاعها. ثم قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: تجري بأمرنا وتحت حفظنا. وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾، إما أن يكون المراد به رعاية الله لنوح، وحمله ومن آمن معه في «سفينة النجاة» إكراماً له من الله، وإنقاذاً له من كفران قومه به وبرسالته، وإما أن يكون المراد به عذاب الطوفان الذي سلطه الله على قوم نوح، جزاءً لهم على كفرهم وعنادهم، وسوء معاملتهم لنوح عليه السلام.

وأشار كتاب الله إلى أن الحكمة في عرض مثل هذه القصة على المشركين والكافرين هي تذكيرهم بما وقع للأقوام والأمم من قبلهم، حتى يعودوا إلى رشدهم، ويتجنبوا الوقوع تحت ضربات السوط الإلهي الذي يمهل ولا يمهل، وتعريفهم بأن عاقبة الصلاح واحدة، وعاقبة الفساد واحدة، إذ «ما جرى على المثل يجري على المماثل». وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا

ءَايَةٌ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٠﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَعَا الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَعَايَةٌ ﴿١١﴾﴾ (الحاقة: ١١).

ثم أورد كتابُ الله قصة عاد مع هود عليه السلام وما حل بهم من العقاب الإلهي الشديد، وقد كانت منازلهم في جنوب جزيرة العرب، إذ سَلَطَ اللهُ عليهم ريحاً عنيفة في منتهى البرودة، فأخذت تقتلعهم من الأرض حتى تُغَيِّبَهُمْ عن الأبصار، ثم تنكسهم وتُلْقِي بهم على رؤوسهم، فيسقطون صَرَعى وهم جثث هامدة، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٠﴾﴾.

واتجه الخطابُ الإلهي إلى كل من يسمع القرآن ويُتلى عليه من الناس، مذكراً أربع مرات في هذا الربع، بأن هذا الذكر الحكيم الذي أكرم الله به البشر قد جعله الله مُيسراً للفهم، ميسراً للحفظ، ميسراً للتلاوة، بحيث يكفي أن يُنصت إليه الإنسان، وأن يفتح له عقله وقلبه، ليدرك أثره في نفسه ومشاعره، وفي حياته كلها دون إبطاء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٠﴾﴾، ومعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٠﴾﴾، فيما نقله الإمام البخاري تعليقاً عن مَطَرِ الْوَرَّاقِ: «هل من طالب علمٍ، فيعان عليه؟».

وأشارت الآية الكريمة في هذا السياق إلى قصة ثمود مع

صالح عليه السلام، وقد كانت منازلهم في شمال جزيرة العرب، وما واجهوه به من السّفه والتحدي والعناد، وعدم الطاعة والانقياد، وما ابتلاهم الله به من أمر «الناقة» التي قاسمّتهم الماء: يوم لها ويوم لهم، فضاقوا بها ذرعاً ولم ينقادوا لأمر الله، ولم يصبروا على ابتلائه، وذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ. أَلْقَى الذُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِ إِنَّا مُرْسِلُونَ النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَبَيَّنَّهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضِرٌ فَنَادَوْا صَحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿١٢﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿فَنَادَوْا صَحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾، إشارة إلى عاقر الناقة الذي كان أشقى واحدٍ في قومه، وإليه يشير قوله تعالى في سورة (الشمس: ١٢): ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾، وهو أحد الرهط المفسدين الذين يشير إليهم قوله تعالى في سورة (النمل: ٤٨): ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾، أي: أنهم بادوا عن آخرهم ولم يبق منهم باقية، كما يقع للزرع والنبات عندما يبيسُ ويحترق وتذروه الرياح.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التذكير مرة أخرى بقصة لوط، حيث سلط الله عليهم ريحاً تحمل حجارة من طين، فاقتلعت

قراهم، وقضت عليهم القضاء المبرم، جزاء تمردهم على الله، وانحرافهم عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، بممارسة الشذوذ الجنسي البغيض، حتى وصل بهم الأمر إلى مراودة ضيوف لوط عليه السلام، ومحاولة الاعتداء عليهم أنفسهم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نُّعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرٍ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرٍ﴾. ثم تعرض كتاب الله لقصة فرعون وقومه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

ووجه كتاب الله بعد ذلك كله إلى المشركين عدة أسئلة كلها تقريع واستنكار: هل يعتبرون أنفسهم خير من كل من سبقهم من الأقيام والأمم، التي عاقبها الله أشد العقاب على كفرها وعنادها؟.

هل إن عند المشركين صكاً إلهياً مسجلاً في الكتب المنزلة من عند الله يعطيهم حصانة دائمة، وبراءة قاطعة من كل عقاب وعذاب؟.

هل يعتقدون أن لهم من القوة والمنعة ما يتقون به الخذلان والهزيمة، وما يقف في وجه القوة الإلهية التي لا تغلب ولا تُغالب؟.

وإلى ذلك كله يشير قوله تعالى: ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُتْتَصِرُونَ ﴾ .
 وردَّ الحقُّ سبحانه على المشركين ردًّا مُفْجِحاً فقال: ﴿ سَيَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ .

وتحدث كتاب الله عن مصير المجرمين الذين أصروا على الشرك والكفر، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ﴾ .

وأكد كتاب الله مرة أخرى ما للحق سبحانه من حِكم بالغة في خلقه، ومن أسرار باهرة في صنعه، وما لقدرته من سرعة الإبداع والإنجاز، والتنفيذ والقضاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ .

وعقَّب كتابُ الله على ما سبق من قِصص الرسل مع أقوامهم، وما عاقب به مُكذِّبهم، فقال تعالى مخاطباً لمشركي قريش، الذين هم ورثة أولئك المكذبين: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴾ .

وختمَ هذا الربع من كتاب الله بما أعده الله للمتقين من عباده، فقال تعالى منوهاً بهم، ومُمتناً عليهم بمغفرته ورضوانه: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ .

الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنْسَانَ ③ عَلَيْهِ الْبَيَانُ ④
 الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ ⑤ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥
 وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧
 وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ⑨ وَالْأَرْضَ
 وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑩ فِيهَا فَكْهَمَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ⑪
 وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ⑫ فَبِأَيِّ آيَاتِنَا تُكذَّبَانِ ⑬
 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ⑭ وَخَلَقَ الْجِبَانَ
 مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ بَارٍ ⑮ فَبِأَيِّ آيَاتِنَا تُكذَّبَانِ ⑯
 رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ⑰ فَبِأَيِّ آيَاتِنَا تُكذَّبَانِ ⑱
 مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ⑲ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ⑳ فَبِأَيِّ آيَاتِنَا

رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يُخْرِجُ مِنْهُمَا التُّرَابَ أَوْ الْمَرْجَانَ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ
تُكذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ
آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ
ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ
رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَيْنِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ
تُكذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ بِمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا
مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا وَلَا تَنْفُذُونَ إِلَّا
بِإِذْنِ رَبِّكُمْ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٣٣﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ
مِن بَارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٤﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٣٥﴾
فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٦﴾ فَبِأَيِّ
آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٣٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ
إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٨﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٣٩﴾
يَعْرِفُ الْجُرُومَ بَسْمَلَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤٠﴾ فَبِأَيِّ
آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٤١﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكذِّبُ بِهَا الْجُرُومُونَ ﴿٤٢﴾
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ - إِنِ ﴿٤٣﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ ﴿٤٤﴾

وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
 ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
 تَجْرِيَانِ ۖ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ
 زَوْجَانِ ۖ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ
 بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَاتُ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۖ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ فِيهِنَّ قَصْرَاتُ الْطَّرِيفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
 إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۖ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾
 كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۖ ﴿٧٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾
 هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۖ ﴿٨٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٨١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَيْنِ ۖ ﴿٨٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٨٣﴾ مُدْهَامَتَيْنِ ۖ ﴿٨٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٥﴾
 فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَيْنِ ۖ ﴿٨٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٧﴾
 فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۖ ﴿٨٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٩﴾
 فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ۖ ﴿٩٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩١﴾ حُورٌ
 مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۖ ﴿٩٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
 إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۖ ﴿٩٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٥﴾ مُتَّكِئِينَ

عَلَى رَفْرِفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمَا
 مُكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «الرحمّان» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ إلى قوله تعالى في ختام نفس السورة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

تتضمن هذه السورة الكريمة امتنان الله على خلقه، بإنزال القرآن عليهم وتعليمه لهم، وامتنانه سبحانه بخلق الإنسان، وما منحه من المنطق والبيان، ثم تستعرض السورة آيات الله الناطقة، ونعمه السابغة، التي بثها في العالم العلوي والعالم السفلي، من شمس وقمر، ونجم وشجر، وسماء وأرض، وما خلقه من جن وإنس، ومشرق ومغرب، وماء أجاج وماء عذب، وتُعقّب السورة على ذلك كله بمشهد الفناء المطلق لجميع الخلائق، ومشهد البقاء المطلق لوجود الخالق.

فقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، امتنان من الله على عباده بنزوله، وتيسير حفظه وفهمه، وهدايتهم باتّباع تعاليمه،

وإسعادهم بتطبيق شرائعه، وتهذيبهم بالتخلق بأخلاقه.

وقوله سبحانه: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾، امتناناً على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وتزويده بالنطق والفهم والإدراك السليم، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ (النمل: ٧٨).

وقوله تعالى: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾، إشارة إلى تسخير الله لهما بالخصوص لخير الإنسان. نعم، إنَّ هنالك من النجوم ما هو أكبر وأعظم، ولكن ليست له علاقة مباشرة بحياة الإنسان، ولا تأثير مباشر على سطح الأرض «كالشُّعْرَى» و«السماك الرامح» و«سهيل» وإن كان نورها أقوى من نور الشمس أضعافاً مضاعفة، أما «الشمس» فهي أهم شيء بالنسبة للإنسان ولحياته، إذ لولا ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها لَمَا أمكن للإنسان أن يعيش على سطح الأرض، فضلاً عن النبات والحيوان، اللذين تتوقف عليهما حياة الإنسان، وكذلك الشأن في «القمر» فرغماً عن كونه تابعاً صغيراً للأرض يُعتبرُ ذا أثر قويٍّ في حياتها، وحياة الإنسان المستقر فوقها، وقد ربط الله بالقمر حركة المدِّ والجَزْرِ في البحار، وهذه الحركة الدائمة هي التي عليها في فن المِلاحة المَدَار.

وقوله تعالى: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾، إشارة إلى خضوع جميع الكائنات لمكوَّنها ومبدِعتها، وإلى سلطة الله

المبسوطة على جميع خلقه، فالكل مرهون بربوبيته، بحيث لا يتخلف عن مشيئته أي مخلوق، جَلَّ شأنه أو صَغُرَ، في الأرض أو في السماء، والكل ينشأ وَيَنمو وَيَفنى طَبَقاً للسنن الثابتة، التي رسمتها للجميع قدرة الله وحكمته وعلمه، وذلك على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ (الحج: ١٨).

وقوله سبحانه: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾، تنبيه للإنسان على استجلاء عظمة الله وبالغ قدرته، من خلال هذا الفضاء الواسع المُتْرَامي الأطراف، الذي تَسَبَّح فيه ملايين الملايين من النجوم، على اختلاف أصنافها وأحجامها وأبعادها، دون أن يصطدم بعضها ببعض، ودون أن يصيبها خلل أو فتور، و«الميزان» الذي وضعه الله لهذا الكون هو تقديره المُحَكَّم الذي لا يختل، القائم على أساس التناسق والتناسب والإنسجام والتكامل.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾، تنبيه للمومنين إلى أنهم ينبغي أن يتخلقوا بخلق الله، وأن يستمدوا من سنن الله الثابتة في خلقه منهاج سلوكهم في حياتهم، بالنسبة لأنفسهم وبالنسبة لبقية الناس، وذلك أن يقيموا حياتهم على أساس من الحكمة والعدل، وحسن التقدير والتدبير، حتى لا يلحقها خلل كبير أو صغير.

وقوله سبحانه: ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَكِهَةٌ

وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿٤٠﴾، إشارة إلى ما أنعم الله به على الإنسان من تمهيد للأرض، كي يسهل عليه الاستقرار فوقها، ويستطيع الانتفاع بخيراتها وثمراتها، ولو لم تكن الأرض ممهدة كالفراش لاستحال عيش الإنسان فوقها بالمرة، ويكفي أن نتخيل منطقة بُرْكَانِيَّةٍ أو زلزالية في حركة دائبة تنفث الرُّعْبَ، واللهب، لنُدرك استحالة العيش فيها، وتعذّر الحياة بين جنباتها، ولنقدّر ماذا يكون عليه الإنسان من شقاء سَرْمَدِيٍّ وتشرّدٍ أبديٍّ.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾، إشارة إلى شروق الشمس وشروق القمر، وغروب الشمس وغروب القمر، وذلك بمناسبة ذكرهما والامتنان بهما في الآية السابقة: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، ويمكن أن يفهم من «المشرقين» مشرق الصيف ومشرق الشتاء، ومن «المغربين» مغرب الصيف ومغرب الشتاء، كما جاء في آية أخرى قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ (المعارج: ٤٠)، إشارة إلى اختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، بالإضافة إلى ما يتضمنه الشروق والغروب في حد ذاتهما من المنافع والفوائد للإنسان وبقية الأحياء.

وقوله سبحانه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، إشارة إلى ما أقامته القدرة الإلهية من حاجز حصين يفصل ماء البحر المالح عن الماء العذب المستودع في الأنهار، رغماً عن اتصالها بالبحار، فلا ماء البحر ينقلب حلواً، ولا ماء

النهر ينقلب ملحاً، إذ بينهما برزخ إلهي غير منظور، يحول دون تجاوز كل منهما لحدّه المقدور.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾، إشارة إلى الفلك التي تمخر البحار، والتي لولا تسخير الله لها لما استطاعت - وهي فوق الماء وبين الأمواج - أن يقر لها أي قرار.

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾، إشارة إلى تفرد الحق سبحانه بالبقاء، وإلى اختفاء أشباح الخلائق وظلالها عندما يدق ناقوس الفناء.

وقوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ﴾، إشارة إلى الحصار الإلهي المضروب من حول خلقه، أقباء وضعفاء، أغنياء وفقراء، مرءوسين ورؤساء، فلا سبيل لهم إلى الإفلات من قبضة الله، ولا مفر من الوقوع بين يديه، والانتهاه في نهاية المطاف إليه. وإذا أصبح في إمكان الإنسان أن يجول بين بعض ﴿أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وداخلها فإن ذلك لا ينفي أنه عاجز كل العجز عن أن يتجاوزها ويفارقها ويخرج منها بالمرّة، وذلك هو «النفاذ منها».

وانتقلت الآيات الكريمة إلى الحديث عن قيام الساعة، وما يبرز فيها من ظواهر كونية خارقة للعادة: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، وإلى الحديث عن مصير المجرمين من

خصوم الرسالات الإلهية، وما يلقونه من العذاب الأليم: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾، وعن مصير المتقين، الصادقين الراشدين، وما ينالونه من النعيم المقيم، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، الذي تكرر في سياق هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، معناه كما قاله مجاهد وغيره: «بِأَيِّ النِّعَمِ يَا مَعْشَرَ الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ تُكَذِّبَانِ»، أن النعم ظاهرة عليكم، وأنتم مغمورون بها، فكيف تستطيعون إنكارها وجحودها.

وختمت سورة «الرحمان» بتمجيد اسم الله وتقديس جلاله وعظمته، فهو سبحانه أهل لأن يُشكَّرَ ويُذكَرَ، فلا يُنسى ولا يُكْفَرُ، وذلك قوله تعالى في ختام هذه السورة الكريمة، «وختامها مسك»: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لَوْعِهَا كَذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③
 إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا ⑥
 وَكُنُومًا زُجَاجًا ثَلَاثَةً ⑦ فَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مَأْصِحُ الْيَمِينِ ⑧
 وَأَصْحَبُ الشِّمَّةِ مَأْصِحُ الشِّمَّةِ ⑨ وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ ⑩
 أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ⑫ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ⑬ وَقَلِيلٌ
 مِنَ الْآخِرِينَ ⑭ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ⑮ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ⑯
 يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ⑰ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ
 مَعِينٍ ⑱ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ⑲ وَفَلَكَمَ تَمَّ ابْتِخَارُكُمْ ⑳
 وَالْحَمْرُ طَيْرٌ مِمَّا يَشْتَمُونَ ㉑ وَحُورٌ عِينٌ ㉒ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ㉓
 جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ㉔ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ㉕ إِلَّا قِيلًا
 سَلَامًا سَلَامًا ㉖ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَأْصِحُ الْيَمِينِ ㉗ فِي سِدْرٍ

تَخْضُودٍ ① ٢٨ ② وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ③ ٢٩ ④ وَظِلِّ تَمْدُودٍ ⑤ ٣٠ ⑥ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ⑦ ٣١ ⑧
 وَفِكْهَةٍ كَثِيرَةٍ ⑨ ٣٢ ⑩ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ⑪ ٣٣ ⑫ وَفُرْشٍ
 مَّرْفُوعَةٍ ⑬ ٣٤ ⑭ إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً ⑮ ٣٥ ⑯ فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ⑰ ٣٦ ⑱
 عُرْبًا أْتَرَابًا ⑲ ٣٧ ⑳ لَا صَعْبَ الْيَمِينِ ㉑ ٣٨ ㉒ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ㉓ ٣٩ ㉔
 وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ㉕ ٤٠ ㉖ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ㉗ ٤١ ㉘
 فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ㉙ ٤٢ ㉚ وَظِلٍّ مِنْ يَمُومٍ ㉛ ٤٣ ㉜ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ㉝ ٤٤ ㉞
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ㉟ ٤٥ ㊱ وَكَانُوا يُصِرُّونَ
 عَلَى الْغَيْثِ الْعَظِيمِ ㊲ ٤٦ ㊳ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
 وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ㊴ ٤٧ ㊵ أَوَّابًا أَوْنَا الْأَوَّلُونَ ㊶ ٤٨ ㊷ قُلْ إِن
 الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ㊸ ٤٩ ㊹ لَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ㊺ ٥٠ ㊻
 ثُمَّ إِنَّكُمْ وَايُّهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ ㊼ ٥١ ㊽ لَا كَلِمَ مِنْ شَجِرٍ مِنْ زَقُومٍ ㊾ ٥٢ ㊿
 فَتَأْكُلُونَ مِنْهَا الضُّطُونَ ① ٥٣ ② فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ③ ٥٤ ④ فَشَرِبُونَ
 شُرْبَ الْهَيْمِ ⑤ ٥٥ ⑥ هَذَا نَزُّهُمُ يَوْمَ الدِّينِ ⑦ ٥٦ ⑧ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا
 تُصَدِّقُونَ ⑨ ٥٧ ⑩ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ⑪ ٥٨ ⑫ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
 الْخَالِقُونَ ⑬ ٥٩ ⑭ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ⑮ ٦٠ ⑯
 عَلَىٰ أَنْ يُبَدَّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشَأَكُمْ فِي مَا لَا تَعْمَلُونَ ⑰ ٦١ ⑱ وَلَقَدْ

عَامَّتُمْ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ
 مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ
 نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٧٠﴾ إِنَّا الْمَغْرُمُونَ ﴿٧١﴾ بَلْ
 نَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴿٧٢﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٧٣﴾ ءَأَنْتُمْ وَ
 أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٧٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ جُجَابًا
 فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٥﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٦﴾ ءَأَنْتُمْ وَ
 أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٧﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا
 وَمَتَاعًا لِلْقَوِيينَ ﴿٧٨﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾

الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته فاتحة سورة «الواقعة» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَئِيسَ لَوْعَتِهَا كَذِبَةٌ﴾، ونهايته قوله تعالى في نفس السورة: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

موضوعُ سورة «الواقعة» المكية التي نفتح بها هذا الربع هو وَصْفُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي تُحِيطُهُ هَالَةٌ مِنَ الرَّهْبَةِ وَالْجَلَالِ، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ (الحج: ٢)، ثُمَّ عَرَضُ قِضِيَةِ «النَّشْأَةِ الْآخِرَةِ» عَلَىٰ وَجْهِ يُبْطَلُ شُبَّهُ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُكْذِبِينَ. وبذلك يطابق موضوعُ السورة نفسَ الاسمِ الَّذِي سُمِّيَتْ بِهِ، إِذْ لَفْظُ «الوَاقِعَةُ» هُنَا مُرَادِفٌ فِي مَعْنَاهُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ «بِالوَاقِعَةِ» لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهِ، رَغْمًا عَنِ جَدَلِ الْمُجَادِلِينَ، وَشَكِّ الشَّاكِينَ، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَذِبَةٌ ﴾ ، قال قتادة: «أي ليس فيها ارتداد ولا رجعة، فلا صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها»، وهذه الآية على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (الشورى: ٤٧)، قال ابن جرير: «الكاذبة» هنا مصدر، كالعاقبة والعافية.

وقوله تعالى: ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ ، معناه أنها تخفيض أقواماً وترفع آخرين، قال محمد بن كعب: «تخفيض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا مخفوضين». وقال السدي: «خَفَضَتِ المتكبرين، ورفعت المتواضعين»، وذلك لأن القِيم المتعارف عليها بين الناس كثيراً ما يكون ميزانها مُختلاً، فلا يستقيم ميزان القِيم على الوجه الصحيح إلاَّ بَيْنَ يَدَيِ الله.

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ ، إشارة إلى ما يعترى الأرض عند قيام الساعة من الاضطراب والحركة والاهتزاز طويلاً وعرضاً، كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (الزلزلة: ١)، وقوله تعالى أيضاً: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج: ١). كما أن فيه إشارة إلى ما يعترى رواسي الجبال الصلبة من نَسْفٍ وَتَفْتَتٍ يجعل الجبال عبارة عن فُتَاتٍ طائر في الهواء، كالهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت، والشَّرَر الذي يقع منها فلا يبقى له أيُّ أثر.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى تحديد الأصناف التي سيكون

عليها الناس يوم القيامة، وتصنيفهم درجاتٍ على أساس جديد، وبينت أنهم سينقسمون باعتبار أعمالهم والجزاء عليها فقط، لا باعتبار الغنى والفقر، ولا بحسب القوة والضعف، ولا على أساس الرياسة والتبعية، ولا على أساس فوارق الجنس واللون، مما تعارف عليه البشر فيما بينهم، فالناس يوم القيامة وأمام ربهم لا يخرجون عن ثلاثة أقسام: القسم الأول هم «السابقون»، والقسم الثاني هم «أصحاب الميمنة»، والقسم الثالث هم «أصحاب المشامة»، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾، على غرار قوله تعالى في سورة (فاطر: ٣٢): ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ﴾.

قال ابن عباس: «وكنتم أزواجاً ثلاثة»، أي: أصنافاً ثلاثة. وقال مجاهد: «وكنتم أزواجاً ثلاثة»، أي: فرقاً ثلاثة. وقال عثمان بن سراقه: «وكنتم أزواجاً ثلاثة»، أي: اثنان في الجنة وواحد في النار.

و«السابقون» إنما أُطلق عليهم هذا الوصف، لأنهم سابقون بين يدي الله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، فهم أخص وأحظى وأقرب من «أصحاب اليمين» الذين يُلونهم في المنزلة، وعلى رأس السابقين الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ثم الصديقون والشهداء والصالحون، وألحق ابن كثير بالقسم الأول، وهم «السابقون» جميع الذين

بَادِرُوا إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَارِعُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (آل عمران: ١٣٣)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَابِقُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحديد: ٢١)، فَمَنْ سَابَقَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَسَبَقَ إِلَى الْخَيْرِ كَانَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْكِرَامَةِ، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَكَمَا تَدِينُ تَدَانُ.

وَسَتَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَى هَذِهِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ مَرَّةً أُخْرَى فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ، تَأْكِيدًا لِمَا وَرَدَ فِي أَوَّلِهَا، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْأَهْمِيَّةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي يُؤَلِّفُهَا كِتَابُ اللَّهِ لِهَذَا التَّقْسِيمِ الشَّامِلِ وَالْعَادِلِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾، إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنَّهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ كَثْرَةٌ فِي الْأَوَّلِينَ، وَقَلَّةٌ فِي الْآخِرِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ، وَأَتَاهُمْ مِنَ الرَّعَايَةِ وَالْعَنَايَةِ، مَا أَعَانَهُمْ عَلَى أَنْ يَخْتَرِقُوا الصَّفُوفَ، وَيَكُونُوا فِي طَلِيعَةِ الطَّلِيعَةِ إِخْلَاصًا وَصَلَاحًا، وَعِزْمًا وَصَبْرًا وَطَاعَةً وَتَقْوَى.

وَالْمُرَادُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ «بِالْأَوَّلِينَ» الْأُمَّمُ الْمَاضِيَّةَ، وَ«بِالْآخِرِينَ» الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ، فِيمَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. وَرَجَّحَ ابْنُ كَثِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ «بِالْأَوَّلِينَ» صَدْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَ«بِالْآخِرِينَ» الَّذِينَ يَلْتَوْنَهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَنَسَبَ إِلَى ابْنِ سِيرِينَ الْقَوْلَ

بأن الجميع من هذه الأمة. ثم عقَّب ابنُ كثير على ذلك بقوله: «ويحتمل أن تُعمَّ الآيةُ جميع الأمم، كل أمة بحسبها، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث.

ووصفَ كتابُ الله مآل «السابقين» المقربين، وما ادَّخَرَ لهم الحقُّ سبحانه من مختلفِ العطايا، وميزهم به من المزايا في جنات النعيم، وعقَّب على ذلك بما يفيد أن الله تعالى قد صدَّقهم وعده: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وأنهم أثناء إقامتهم في دار الخلد، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾.

ثم انتقل كتابُ الله إلى وصف مآل «أصحاب الميمنة» الذين يُلون السابقين المقربين في المنزلة، فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ وَفِكْهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأُولِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: جماعةٌ كثيرة من الأولين، وجماعةٌ كثيرة من الآخرين، مما يفيد أن عدد «أصحاب اليمين» أكثر من عدد «السابقين» المقربين.

ومن «أصحاب اليمين» ينتقل كتابُ الله إلى وصف ما ينتظر «أصحاب المشأمة» من عذاب أليم، وسُموم وحميم، فقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾

وَوَظِلُّ مَنْ يَحْمُومٍ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿١٥١﴾ .

وَيُذَكِّرُ كِتَابُ اللَّهِ فِي نَفْسِ السِّيَاقِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ «أَصْحَابُ الشَّمَالِ» فِي حَيَاتِهِمْ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالتَّرَفِّ، وَمَا كَانُوا يَمَارِسُونَهُ مِنَ الْكُذْبِ وَالزُّورِ، وَمَا كَانُوا يُنْكِرُونَهُ مِنَ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ ، ثُمَّ يُبَادِرُ كِتَابُ اللَّهِ بِالرَّدِّ عَلَى دَعْوَاهُمْ الْبَاطِلَةَ قَائِلًا: ﴿قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ .

وَيَعُودُ كِتَابُ اللَّهِ إِلَى مُخَاطَبَةِ «أَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ» وَهُمْ يَتَلَقَّوْنَ عَذَابَ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ، فَيُوجِّهُهُمْ قَائِلًا: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ءَلَا تَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ رَّزْقِهِمْ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَرِبُونَ شَرِبَ الْهَيْمِ﴾ ، وَيُعَقِّبُ كِتَابُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ كُلَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ إِيضًا إِلَى أَنَّ هَذَا النُّوعَ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَابِ هُوَ ضِيَافَتُهُمْ الْمَفْضَلَةُ يَوْمَ حِسَابِهِمْ، تَدَشِينًا لِعَذَابِهِمْ، وَإِنَّهُ لِعَذَابٌ دَائِمٌ لَا رَاحَةَ بَعْدَهُ أَبَدًا.

وَعَادَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ إِلَى عَرْضِ جُمْلَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ الْبَارِزَةِ فِي خَلْقِهِ، وَوَصْفِ طَائِفَةٍ مِنْ نِعَمِهِ السَّابِغَةِ، الَّتِي يَتَقَلَّبُ فِيهَا الْإِنْسَانُ لَيْلَ نَهَارٍ صَبَاحَ مَسَاءٍ دُونَ أَنْ يَحْسَبَ لَهَا حِسَابًا:

- فهذه آية «الحياة» والنشأة الأولى التي أكرم الله بها الإنسان: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ .

- وهذه آية «الموت» في انتظار النشأة الآخرة، التي يُجَارَى فيها الإحسان بالإحسان: ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَ لَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

- وهذه آية «الزرع» الذي منه يقات الإنسان: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ، حتى إذا ما وقع ذلك، وأصبح الزرع حطاماً يشتتم وجرتم وقال بعضكم لبعض: ﴿ إِنَّا لَمُعْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ .

- وهذه آية «الماء» الذي يُرَوَى به الإنسان والنبات والحيوان: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ .

- وهذه آية «النار» التي لولا أن الله أنعم بها على الإنسان لما استطاع أن يتقدم خطوة واحدة في ميدان الحضارة والصناعة والعمران: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ .

وعقب كتاب الله على آية «النار» التي ننتفع بها في هذه الدنيا بما يشير إلى نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، في

الدار الآخرة، فقال تعالى: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَهَا تَذْكِرَةً ﴾، أي: تَذَكَّرْكُمْ بالنار الكُبرى، كما قال مجاهد وقتادة. رَوَى البخاري من حديث مالك، ومُسلم من حديث أبي الزناد أن رسول الله ﷺ قال: «نارُ بني آدمَ التي يُوقَدُونَ جُزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، فقالوا يا رسول الله: إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ. فقال: «إِنهَا قَدْ فَضَلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسْتِينَ جُزءاً».

وأشارَ كتابُ الله إلى ما في النار من منافع وفوائد لجميع البشر، فقال تعالى: ﴿ وَمَتاعاً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي متاعاً للمستمتعين، من الناس أجمعين. قال ابن كثير: «وهذا التفسير أعمُّ من غيره، فإنَّ الحاضر والبادي من غنيِّ وفقير، الجميع مُحتاجون إلى النار للطَّبِخِ والاصْطِلاءِ والإِضاءةِ، وغير ذلك من المنافع».

وانتهت الآياتُ الكريمة في هذا السياق بتمجيد الله وتقديس اسمه الأعظم، بعد أن استعرضت آثار قدرته في الأكوان، وما تفضل به سبحانه وتعالى على الإنسان، من نِعَمٍ سابعة تُقَوِّي في القلب روح الإيمان، وتستوجب الطاعة والإذعان، وتستحق مُضاعفةَ الشكر والامتنان. وذلك قوله تعالى في ختام هذا الربع من كتاب الله الكريم: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾.

الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين
في المصحف الكريم

فَلَا أُقِيمُ

بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾
 إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾
 نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْمَلُونَ
 رِزْقَكُمْ وَأَنْتُمْ نَكَذِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ
 تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ
 كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ
 مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ
 أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ
 مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ ﴿٩٤﴾
 إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 سَبِّحْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩٧﴾ لَهُ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَيْءٍ وَنُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾
 هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢﴾
 هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى
 الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
 وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾
 لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُوجِبُ اللَّيْلَ
 فِي النَّهَارِ وَيُوجِبُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾
 ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ
 لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾
 وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِكَ
 أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ
 اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ

اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾
 يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
 بُشْرَىٰ لَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا
 انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
 فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ
 قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهِمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ
 فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ
 جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ قَالَ يَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ
 وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الواقعة» المكية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، إلى قوله عز وجل في سورة «الحديد» المدنية: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَاؤَيْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

أول ما يُفتتح به هذا الربع قَسَمٌ من الله تعالى: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ على أن القرآن الكريم إنما هو تنزيل من عند الله، نَزَلَهُ على رسوله الصادق الأمين وليس كما يزعمُ المشركون وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ، شِعْرًا أَوْ سِحْرًا أَوْ كِهَانَةً، أَوْ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأُولِينَ، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

والمراد «بمواقع النجوم» منازلها ومطالعها ومشارقها، وقد كان أغلبُ الذين عاصروا هذا الخطاب الإلهي عند نزوله لا

يَعْرِفُونَ عَنِ النُّجُومِ وَمَوَاقِعِهَا الشَّيْءَ الْكَثِيرَ، وَتَبَعًا لِذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُقَدِّرُوا قَسَمَ اللَّهِ بِهَا كَامِلَ التَّقْدِيرِ، إِذْ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِمْ مَرَاوِدٌ عَظِيمَةٌ، وَلَا آلَاتٌ دَقِيقَةٌ لِرَصْدِ النُّجُومِ وَتَتَبِعَ حَرَكَاتِهَا فِي الْأَجْوَاءِ الْبَعِيدَةِ، وَلَكِنَّ خُطَابَ اللَّهِ مُوجَّهٌ إِلَى كُلِّ عَصْرٍ وَجِيلٍ، وَالْعَصْرَ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ أَصْبَحَ يَعْرِفُ عَنِ النُّجُومِ وَمَوَاقِعِهَا مَا يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ مَبْهُوتًا حَائِرًا أَمَامَ قُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّرَ تَقْدِيرًا أَوْفَى قَسَمَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، الَّذِي أَقْسَمَهُ «بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ»، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَجْمُوعَةَ وَاحِدَةٍ مِنْ مَجْمُوعَاتِ النُّجُومِ الَّتِي لَا تُحْصَى وَهِيَ «مَجْمُوعَةُ الْمَجْرَّةِ» الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا الشَّمْسُ تَبْلُغُ أَلْفَ مِليُونٍ مِنَ النُّجُومِ، وَهَذِهِ النُّجُومُ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ أَنْ تَرَاهُ الْعَيْنُ الْمَجْرُدَةُ، وَمِنْهَا مَا لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ إِلَّا بِالْأَجْهَازِ الْفَلَكِيَّةِ وَالْمَجَاهِرِ، وَمِنْهَا مَا لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ وَلَوْ عَنْ طَرِيقِ الْأَجْهَازِ الْفَلَكِيَّةِ، وَإِنَّمَا تُحَسُّ بِهِ الْأَجْهَازُ وَحَدَّهَا دُونَ أَنْ تَرَاهُ، وَمَا مِنْ نَجْمٍ نَجْمٍ إِلَّا وَهُوَ مُنَسَّقٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ - فِي آثَارِهِ وَتَأْثِيرَاتِهِ - مَعَ بَقِيَّةِ النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ، فَلَا اصْطِدَامَ فِي الْفَضَاءِ الْوَاسِعِ بَيْنَ نَجْمٍ وَآخَرَ، وَلَا تَطَاوُلَ مِنْ أَيِّ نَجْمٍ عَلَى الْمَجَالِ الْمَغْنَطِيسِيِّ الْخَاصِّ بِغَيْرِهِ مِنَ النُّجُومِ، بَلِ الْكُلُّ يَسِيرٌ طَبِيقًا لِتَدْبِيرِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ نَحْوَ هَدَفِهِ الْمَرْسُومِ، إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، فَمَنْ عَرَفَ أَسْرَارَ الْأَفْلَاكِ وَعَجَائِبَ النُّجُومِ أَدْرَكَ إِلَى أَيِّ حَدٍّ كَانَ قَسَمَ اللَّهِ عَظِيمًا «بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ»، وَأَنَّ ذَلِكَ الْقَسَمَ يُعَدُّ أَكْبَرَ تَرْكِيَّةٍ لَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَصْدَقَ شَاهِدٍ عَلَى صِحَّةِ الْوَحْيِ الْمُبِينِ، وَهَكَذَا كَلَّمَا مَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَتَقَدَّمَتِ مَعَارِفُ الْبَشَرِ، أَزْدَادَ بُرْهَانَ الْقُرْآنِ وَضُوحًا، وَأَزْدَادَ نُورِهِ تَوْهَجًا، وَأَزْدَادَتِ عَقِيدَةُ الْإِيمَانِ نَصْرًا وَفَلَجًا.

وقوله تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمْسُهُ إِلَّا
 الْمَطْهُرُونَ ﴾، نفى قاطع لمزاعم المشركين والكافرين الذي ادَّعوا
 أنه قد تنزلت به الشياطين، إذ لا يتصورُ عاقلٌ أن كتاب الله
 المصُون في علمه، والمحفوظ بحفظه، يُمكن أن تسطو عليه
 الشياطين من قريب أو بعيد، وهي على ما هي عليه من الرُّجس
 والخبث والشر والطرْد من رحمة الله، وإنما تنزلُ بكلام الله على
 رسله الملائكة الأبرار الأَطهار، فهذه إحدى المهام السامية
 الموكولة إليهم، والمقصورة عليهم، ولذلك جاء التعقيب المباشر
 بقوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وإلى هذا المعنى ينظر
 قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي
 لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾
 (الشعراء: ٢١٠، ٢١١، ٢١٢).

ثم وجه كتابُ الله الخطاب إلى المشركين المكذِّبين بالنشأة
 الآخرة والبعث والنشور، يستغربُ تكذيبهم لما يقصُّه عليهم الحق
 سبحانه في كتابه المبين، ويستغربُ جحودهم لنعَم الله الظاهرة
 والباطنة، دون أيِّ اعتراف بمنتَه عليهم، وذلك قوله تعالى:
 ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴾، أي: مكذِّبون غير مُصدِّقين،
 ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴾، أي: بدلاً من أن
 تشكروا الله، تكذبون كلامَ الله.

وتساءلَ كتابُ الله عمَّا ذا سيفعلون عندما تبلغُ الروح
 حُلوقهم حين الإحتضار، وهم في منتهى العجز والحيرة والجزع
 والاضطراب والذهول، ينظرون ذلك المشهد الرهيب، دون أن

يستطيعوا لشبح الموت ولا لسكراتها رَدًّا، وملائكة الرحمان حاضرةً لذلك المشهد قريبةً منه، لكنها لا تقع عليها أنظار البشر المحدودة، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

ويواصلُ كتابُ الله تفریعَ المشركين وإحراجهم بالسؤال، عندما يستفسرهم هل أنتم قادرون على إرجاع الروح إلى مقرِّها الأول، بعد أن بلغتِ الحُلُقُوم وهي في طريقها إلى مفارقة الجسد بالمرَّة؟. هل في إمكانكم أن تحجزوا الروح في مكانها فلا تدعوها متفلتة من صاحبها، وتحوُّلوا بينها وبين ما هي ذاهبة إليه بأمر الله، من حساب وجزاء عند الله؟. هذا وأنتم حولها مبهوتون مقهورون، وعن رَدِّها عاجزون، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، ومعنى «غيرَ مَدِينِينَ» أي غيرَ محاسبين كما قال ابن عباس، من «الدين» بمعنى الجزاء:

وعادتِ الآياتُ الكريمة إلى الحديث عن الأصناف الثلاثة الذين ينقسم إليهم البشر يوم القيامة، دون أي اعتبار خاص في التقسيم والتصنيف، ما عدا اعتبارَ العمل الذي قاموا به في الدنيا، والجزاء الذي استحقوه في الآخرة. وذلك قوله تعالى عن «السابقين» المقرَّبين: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾، وقوله تعالى عن «أصحاب الميمنة»: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلْمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾، وقوله تعالى عن «أصحاب المشأمة»: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذَّبِينَ

الضَّالِّينَ فُنزِّلَ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةً جَحِيمٍ ﴿١٠﴾ .

وُخِّمَتْ سُورَةُ «الْوَاقِعَةِ» الْمَكِّيَّةُ بِمَا يُؤَكِّدُ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ مِنْ حَقِيقَةِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالنَّشْأَةِ الْآخِرَةِ هُوَ عَيْنُ الْحَقِّ وَمُنْتَهَى الْيَقِينِ، وَأَنَّ مَا خَالَفَهُ مِنَ الْمَعْتَقَدَاتِ الْبَاطِلَةِ هُوَ الضَّلَالُ الْمُبِينُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ .

وَالآنَ فَلِنُنْتَقِلُ لِسُورَةِ «الْحَدِيدِ» الْمَدِينِيَّةِ، مُسْتَعِينِينَ بِاللَّهِ، سَائِلِينَ مِنْهُ الْهَدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ، وَقَدْ أُطْلِقَ عَلَيْهَا هَذَا الْاسْمَ، أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي آيَتِهَا الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ .

وَأَوَّلُ مَا نَلَاظُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهَا بَدَأَتْ بِتَنْزِيهِ اللَّهِ وَتَقْدِيسِهِ، وَالتَّوْجُّهِ إِلَيْهِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّعْظِيمِ، عَلَى غَرَارِ مَا جَاءَ فِي خَاتِمَةِ سُورَةِ «الْوَاقِعَةِ» السَّابِقَةِ، فَفَاتِحَةُ سُورَةِ «الْحَدِيدِ» فِي غَايَةِ التَّنَاسُبِ وَالتَّنَاسُقِ مَعَ تِلْكَ الْخَاتِمَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

وَالفَرْقُ الْوَحِيدُ بَيْنَ خَاتِمَةِ سُورَةِ «الْوَاقِعَةِ» الْمَكِّيَّةِ وَفَاتِحَةِ سُورَةِ «الْحَدِيدِ» الْمَدِينِيَّةِ أَنَّ تِلْكَ الْخَاتِمَةَ تَتَضَمَّنُ أَمْرًا لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَلِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ طَرِيقِهِ - بِتَسْبِيحِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَهَذِهِ الْفَاتِحَةُ تَتَضَمَّنُ الْإِخْبَارَ بِأَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ تَدِينُ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ، وَتَعْتَرِفُ لَهُ بِالْعِبَادِيَّةِ، وَتَلْتَزِمُ

السير بموجب الشُّنن التي سَنَّها لتسيير الكون، لا تتخلفُ عن أمره، ولا تتصرَّف على غير مُرادِه، وذلك بالنسبة إليها هو منتهى «التسييح» والتنزيه.

وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، إشارةٌ إلى الصفة التي جعلت الحق سبحانه هو وحده المستحق لأن يكون منزهاً معظماً مُطاعاً من كافة خلقه، فهو سبحانه الذي خضع كلُّ شيء لعزته، وهو الذي تجلَّى في تقديره وتدبيره وتشريعه بالغ علمه وحكمته.

واستعرضت الآيات الكريمة بعد ذلك جملة من أسماء الله وصفاته، ومظاهر قدرته، ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وليُعيد المشركون النظر فيما هم عليه من جحود وعناد، وذلك قوله تعالى: ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّهَرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، إلى قوله جلَّ علاه: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾. ونقل البخاري في صحيحه تفسير معنى «الظاهر والباطن» عن يحيى حيث قال: «الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً»، والمراد بيحيى هنا يحيى بن زياد الفراء صاحب كتاب «معاني القرآن». وقال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾، أي: رقيبٌ عليكم، شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم، من برٍّ أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو في القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سرركم

وجهركم كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (الرعد: ١٠) .

ثم وَجَّهَ كِتَابُ اللَّهِ خُطَابَهُ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، دَاعِيًا إِيَّاهُمْ إِلَى الْبَدْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، مَذْكَرًا لَهُمْ بِأَنَّ الرِّزْقَ رِزْقُهُ، وَالْمَالُ مَالُهُ، وَإِنَّمَا هُوَ وَدِيعَةٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ اسْتِخْلَافُهُمْ فِيهَا، لِيُبَلِّغُوهَا إِلَى أَهْلِهَا، وَلِيَصْرِفُوهَا فِي الْوُجُوهِ الْمَشْرُوعَةِ لَصْرِفِهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى أَيْضًا: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِّنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

وتحدث كتابُ اللَّهِ عَنِ الْحَالَةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي دَارِ النِّعَمِ، وَمَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ نُورٍ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَبِأَيْمَانِهِمْ، كَمَا وَصَفَ كِتَابُ اللَّهِ الْحَالَةَ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْمُنَافِقُونَ وَالْكَافِرُونَ فِي دَارِ الْجَحِيمِ، حَيْثُ يَلْتَمَسُونَ النُّورَ دُونَ جَدْوَى، فَلَا يَجِدُونَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَلَا مِنْ حَوْلِهِمْ إِلَّا ظُلُمَاتٍ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَقَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُؤْمِنِينَ السَّعْدَاءِ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرِيكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

وقال تعالى في وصف المنافقين والكافرين الأشقياء: ﴿يَوْمَ

يَقُولُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهْرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٠٠﴾

وبين كتاب الله ما يصيب المنافقين من خيبة وحسرة، وما يحاولونه من التطفل على المومنين السعداء والسير في ركابهم، وما يسمعونه من تفريع وتويخ، جزاءً وفاقاً: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلِيكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠٠﴾

الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

الْمَرِيانَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَحْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ
 مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ
 عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾
 اَعْمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا
 اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ءَأُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا ءَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اَعْمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
 وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ تَهَيَّجُ
 فَتَرِيهُ مُصَفَّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ
 الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ
 فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾
 مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي
 كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾
 لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ
 وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ
 وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾
 لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ
 لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ
 وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ
 إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
 وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ
 وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آءِ إِثْرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا
 بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافِقًا وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا
 عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ
 كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ
 وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمَ أَهْلُ
 الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ
 بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين في المصحف الكريم، وبدأته قوله تعالى: ﴿الْمَ يَانَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يتحدثُ كتاب الله في مطلع هذا الربع عن المومنين الذين أكرمهم الله بما أنزل عليهم من الذكر الحكيم، وبما هداهم إليه من الحق المبين، ومع ذلك لا يزالون متقاعسين عن الاستجابة لنداءاته، بعيدين عن التجاوب معه، مُخْلِينَ بِتَطْبِيقِهِ فِي حَيَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّةَ، فلا قلوبُهُم تخشع لذكر الله، ولا نفوسُهُم تستشعر عظمة الله ولا جوارحُهُم تأتمر بأمر الله.

وفي معرض هذا العتاب الإلهي الرقيق الرفيق يُذَكَّرُ كتابُ الله الغافلين عنه من المومنين، بما وقع فيه أهل الكتاب قبلهم من الغفلة عما أنزل إليهم، والتهاون بحقه، والإهمال لشأنه، ونسيان تعاليمه، وتحريف كلمه عن مواضعه، ونقضهم

الميثاق الذي وَاثَقُوا اللَّهَ بِهِ وَعَاهَدُوهُ عَلَيْهِ، مَنْبَهًا للمومنين من هذه الأمة المحمدية إِلَى أَنْ لَا يَسْلُكُوا مَسْلَكَ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ، فَيَتَّخِذُوا الْقُرْآنَ «مَهْجُورًا» لِأَنَّ ذَلِكَ سَيُؤَدِّي بِهِمْ إِلَى أَسْوَأِ الْعَوَاقِبِ دِينًا وَدُنْيَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾، وَقَدْ بَيَّنَّ كِتَابُ اللَّهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ، مَاذَا صَدَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمَاذَا عَوَّقُوا بِهِ مِنَ الْعِقَابِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة: ١٣).

ثُمَّ نَبَّهَ كِتَابُ اللَّهِ إِلَى أَنَّهُ إِذَا وَقَعَ الْمُؤْمِنُونَ فِي غَفْلَةٍ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ لِهَدَايَتِهِمْ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، كَمَا طَالَ الْأَمَدُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، فَإِنَّ بَابَ التَّوْبَةِ يَظَلُّ مُفْتُوحًا فِي وَجْهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِي إِمْكَانِهِمْ أَنْ يَعُودُوا إِلَى اللَّهِ، وَيَرْجِعُوا إِلَيْهِ تَائِبِينَ خَاشِعِينَ، وَبِذَلِكَ تَلِينُ قُلُوبِهِمْ لِذِكْرِ اللَّهِ، وَيَعْتَصِمُونَ مِنْ جَدِيدِ بَحْبُلِ اللَّهِ، وَتُشْرِقُ عَلَيْهِمْ شَمْسُ الْإِيمَانِ بِضِيَائِهَا وَحَرَارَتِهَا وَجَاذِبِيَّتِهَا، وَيَعُودُ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ حَيًّا مَذْكُورًا، بَعْدَ أَنْ تَرَكَوهُ فِي فِتْرَةِ الْغَفْلَةِ مَهْجُورًا، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى يُلَوِّحُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي نَفْسِ السِّيَاقِ: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وَإِذَا كَانَتْ الْأَرْضُ تَحْيَا بِفَضْلِ اللَّهِ بَعْدَ مَوْتِهَا، فَتَزْخُرُ بِالْخَيْرَاتِ وَالثَّمَارِ، وَتَصْبُحُ مُضْرَبَ الْمَثَلِ فِي الْخُصْبِ وَالنَّمَاءِ وَالْإِزْدِهَارِ،

فإن القلوب القاسية لا تَقَلُّ عن الأرض الميِّتة استعداداً للخير والصلاح، وفي إمكانها أن تَلِين أيضاً بذكر الله بعد قسوتها، وأن تحيا بهدايته بعد موتها، وأن يَنْجِلِيَ بنوره الصُّدأ عن مِرَاتِها، وأن يعود إليها الإِشراق والتألُّق الذي تمتاز به قلوبُ المومنين حقاً، المعتصمين بكتاب الله، والملتزمين لرضاه.

وانتقل كتاب الله مرة أخرى إلى الحَضِّ على الإنفاق في سبيل الله، والتنويه ببذل المال ابتغاء مرضاته، وهذا أصل أساسي من أصول الإسلام، لا تقوم بدونه أسرة ولا أمة ولا دولة، والتنويه به يتكرر في غير ما آية وفي غير ما مناسبة، إذ المال قوام الأعمال، ولولا أن المسلمين الأولين من سلفنا الصالح رضي الله عنهم استجابوا لله وِلَّرسوله، ولم يبخلوا بأموالهم ولا بأنفسهم في سبيل الملة والأمة، لما ارتفع للإسلام لواء، ولما ملأت دعوته الخافقين، وبلغت رسالته المشرقين والمغربين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَعَّفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، وهو تأكيد قوي لما سبق في الربع الماضي، عند قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، وعند قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَعِّفُهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، فقد تعهد الحق سبحانه لمن أنفق في سبيله بالأجر على ما أنفق، والخلف عما أنفق، ووصف سبحانه في الربع الماضي نوع الأجر أولاً بأنه «أجر كبير» ووصفه ثانياً بأنه «أجر كريم»، وكرر وصفه في هذا الربع أيضاً بأنه «أجر

كريم». ولينفقَ المومنُ في سبيلِ الله عن سخاءٍ وطواعيةٍ، ولا يبخلَ بما استخلفه الله فيه يكفيه أن يتذكر وعد الله له على ما أنفقَه «بالأجر الكبير والكريم» الكبير مرة، والكريم مرتين. وأجرُ يَصِفُه الغنيُّ الكريم نفسه «بالكِبَرِ وَالكَرَمِ» أَجَلٌ مِنْ أَنْ يُوصَفَ، وَأَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُقَدَّرَ، فما عليك أيها المومن إلا أن تُنفقَ في سبيلِ الله، وأن تقول كما قال رسول الله: «أَنْفَقْ بِلَالًا، وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا»، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (الروم: ٦٠)، ولا تكن ممن يبخلون أو يدعون الناس إلى البخل، فقد ذمَّهُمُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَأَعْلَنَ سُخْطَهُ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ وَعَنْ عَطَائِهِمْ، فقال تعالى في نفس هذا الربع: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

ويبين كتاب الله أن في إمكان المومن في أيِّ عصر وفي أيِّ جيل أن يبلغ أعلى درجات الإيمان التي بلغها السابقون الأولون، وهي درجة «الصديقية» متى آمن بالله ورسوله إيماناً قوياً يهيمن على حياته، ويقوده في جميع خطواته، بحيث تصبح حركاته وسكناته انعكاساً حقيقياً لعقيدته، ومرآة صادقة لدخيلة نفسه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ﴾.

وبعد ما بينت الآيات الكريمة فيما سبق فضل الإنفاق في سبيلِ الله ونوّهت ببذل المال في وجوه الخير النافعة للإسلام والمسلمين، انتقلت إلى بيان ما في التضحية بالنفس، وبذل

المهج والأرواح، والشهادة في سبيل الله، من أجر عظيم، ونور عميم، بالإضافة إلى ما يناله الإسلام على أيدي جنوده وشهادته من الفتح المبين، والعز والتمكين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، وقد نزلت في نفس المعنى عدة آيات قرآنية، ووردت عدة أحاديث نبوية.

ولعل تسمية هذا النمط الرفيع من المومنين باسم «الشهداء» جاءت من أنهم أعطوا الدليل بتضحيتهم، وبذل أرواحهم في سبيل دينهم، على صدق إيمانهم، وحماسهم لتعقيدهم، وبذلك جاوزوا العتبة، وأصبحوا فوق متناول الشبهات، كما أنهم بتضحيتهم بأنفسهم أعطوا الدليل أيضاً على أن العقيدة الإسلامية إذا خالطت بشاشتها القلوب تفعلُ بمعتقداتها الأعاجيب، وترفعُ نفوسهم إلى درجة عليا من السمو والإيثار والتفاني والإخلاص، بحيث يهونُ عليهم في سبيلها كلُّ غال ورخيص، ويجودون من أجلها بالنفس والنفيس، ثم ذكرت الآيات الكريمة في هذا السياق - على وجه المقارنة - ما يكون عليه الكافرون والمكذبون يوم القيامة من العذاب الأليم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

واتجة خطابُ الله إلى البشر عموماً، والمومنين خصوصاً، ليُعرفهم بحقيقة طالما غفلوا عنها وهم يرونها كل يوم، ألا وهي أن الحياة الدنيا بجميع علائقها ومتعلقاتها حياة عابرة لا ثبات لها ولا استقرار، وهي سائلة، مثل الزمن الذي تتَّم فيه، دون أن يقر لها قرار، ومهما طالَّت حياة الإنسان فحياته عبارة عن «يوم

مكرراً»، وإذا أدرك الإنسان رغباته اليوم فسيفتقر إلى نفس الرغبات التي تتجدد له غداً، بحيث يظل طيلة حياته أسيراً لشهواته ورغباته، في دوامة لا تفتّر ولا تنقطع، حتى إذا أقبل عليه نذيرُ النُقْلة إلى الدار الآخرة وجد نفسه فارغ الوفاض، بادي الإنفاض، ولم يتزود بأي زاد، وأصبحت حياته التي قضاها في الدنيا - بالنسبة إلى حياته المقبلة - عبارةً عن فراغ شامل، وإفلاس كامل، إذ لم يدخر من الدار الفانية للدار الباقية، لا قليلاً ولا كثيراً. وهذا ما يحرص كتاب الله على لفت الأنظار إليه، حتى تكون حياة الناس متوازنة متكاملة، فيها للدنيا نصيب، وفيها للآخرة نصيب. فقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيغُ فَتْرِيهِ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾.

فقوله تعالى هنا: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾، أي: كمثل مطر نزل من السماء بعد اليأس والقنوط الناشئ عن الجذب والجفاف. وقوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾، أي: اعجب الزراع ما أنبتته الغيث، و«الكافر» هنا بمعناه اللغوي هو الزارع، وفي اختيار هذا التعبير هنا تلميح إلى شدة اهتمام الكفار وإعجابهم بالحياة الدنيا، فهم أكثر الناس حرصاً عليها، وميلاً إليها. وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَهِيغُ فَتْرِيهِ مُصْفَرًّا﴾، أي: بعد ما كان النبات خضراً نضراً يصبح مُصْفَرًّا اللون وقت الحصاد. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾، أي: يصير يابساً متحطماً، وكذلك شأن الحياة على سطح الأرض في أطوارها المختلفة، وشأن الإنسان نفسه فوقها،

فالإنسان في أول عمره وعنفوان شبابه يكون غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ولا يكاد يدخل في طور الكهولة حتى تتغير طباعه، ويفقد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً ضعيف القوى قليل الحركة، يُعجزه الشيء اليسير. قال ابن كثير: «ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذر من عذابها، ورغب فيما فيها من الخير»، فقال تعالى: ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾، أي ليس في الآخرة إلا هذا أو هذا، فإما العذاب الشديد، وإما المغفرة والرضوان، فليختر العاقل لنفسه ما يشاء. ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾، أي: إنما هي متاع مهما طال فهو فان، فلا ينبغي للعاقل أن يركن إليها، ويقصر اهتمامه عليها، فضلاً عن أن يخادع نفسه ويعتقد أنه لا دار سواها، ولا معاد وراءها.

وانتقل كتاب الله إلى تبين عقيدة أساسية في الإسلام تجعل المومن بها أقرب إلى الرضى والاعتباط، بما يعتوره في حياته من عُسر ويُسر، وشدة ورخاء، بحيث لا يصيبه أي ذهول أو حيرة، أمام أحداث الحياة ومفاجأتها المتنوعة. «فما أصاب المومن لم يكن ليخطئه، وما أخطاه لم يكن ليصيبه»، ما دامت القدرة الإلهية من وراء الإنسان، ولها الكلمة الأولى والأخيرة في كل شأن وفي كل آن، وذلك ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَاهَا ﴾: أي: من قبل أن نخلق الخليفة،

﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، لأنه سبحانه كما يعلم ما كان وما يكون ، يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون ، ﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ ، أي : لكي لا تحزنوا وتأسفوا على ما فاتكم ، إذ لو قُدِّرَ شيء لكان : ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَيْكُمْ ﴾ ، أي : لكيلا تفخروا على غيركم بما أنعم الله به عليكم ، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً ، وفخراً وزهواً ، إذ مرجعها قبل كل شيء إلى فضل الله وإحسانه ، لا إلى مجرد سعيكم وكدكم ، كما قد يُخِيلُ إليكم : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ، أي : أنه سبحانه لا يحب كل متكبر فخور على غيره ، قال عكرمة : « ليس أحدٌ إلّا وهو يفرح ويحزن ، لكن اجعلوا الفرح شكراً ، والحزن صبراً » .

وأوضح كتابُ الله مرة أخرى حكمة الحق سبحانه في إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وأنها لا ترمي إلّا إلى شيء واحد وهو إسعاد الإنسان بالهداية والإرشاد ، وإقامة ميزان العدل والمساواة بين العباد ، وذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ .

و«الكتاب» هنا إشارة إلى سِجِلِّ الوحي الإلهي المتضمن للشرائع والأحكام ، و«الميزان» هنا رمز إلى العدل الإلهي الذي أرسل الله به وإقامته جميع الرسل والأنبياء ، وكما جاء «الميزان» هنا معطوفاً على «الكتاب» لأنه هو هدفه الأسمى وغايته الأخيرة ، فقد جاء «الكتاب والحكم» و«الكتاب والحكمة» متعاطفين في عامّة القرآن ، تأكيداً لتلازم الشريعة الإلهية مع الحكم بها بأسلوب حكيم ، وإقامة العدل على أساسها السليم . وذكرُ القرآن الكريم

«للميزان» في هذا السياق بصفته «رمزاً للعدل» هو السبب الذي نَبّه غير المسلمين إلى أن يقتبسوا منه هذا الرمز، ويجعلوا صورة «الميزان» رمزاً للعدالة في أختامهم ومنشوراتهم الخاصة بالقضاء.

وأشار كتابُ الله إلى ما أنعم به على البشر من خلق معدن «الحديد» وتسخيرهِ لحاجاتهم المدنية والعسكرية، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾. أما ما فيه من «البأس الشديد» فيتجلى في ردهه للمعتدين، وفي فصله الحاسم بين المتنازعين وأما ما فيه من «المنافع للناس» فشيء يفوق العَدَّ، ويتجاوز القياس، وما من حِرْفَةٍ حِرْفَةٍ وَصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ إِلَّا وللحديد فيها سَهْمٌ كبير، وللحديد في تطورها وازدهارها أكبر تأثير.

وقوله تعالى في نفس هذا السياق: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾، تلميحٌ إلى الجهاد بالسلاح في سبيل الله، حمايةً لنشر دينه، ودفاعاً عن دعوته، مما يقوم به المسلمون بين الحين والحين، حفظاً لوجودهم وكيانهم، وضمناً لنفوذهم وسلطانهم على بلدانهم، وعَقَبَ كتابُ الله على ذلك، بما يفيد أن قوة الله وعزته لا تفتقران إلى نصرة أحد ولا إلى تأييده، لا بسلاح ولا بغيره، وأن مَرَدَّ النصرة والدفاع في الحقيقة إنما هو نفسُ الدعوة الإسلامية وأهلها، الذين يجب أن يكونوا على أهبة الدفاع عن عقيدتهم وسيادتهم دائماً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وأشار كتابُ الله إلى ما وقع من تحريف للرسالات الإلهية،

وخاصَّةً على أيدي أهل الكتاب، مُبيناً أنه إلى جانب العدد القليل الذي اهتدى منهم قد وُجدَ فيهم كثير من المنافقين: ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، ﴿فَتَأْتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ثم اتجه الخطاب الإلهي في ختام هذا الرُّبُع إلى المومنين، مبشراً لهم برحمة الله وغفرانه، ومُعرِّفاً بما خصهم به من رعايته ورضوانه، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لَّيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ
 يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ
 مَنْ نِسَاءِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ
 لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ②
 وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ
 رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ ③ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا
 فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ وَتَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَكَتَبُوا كِتَابَتِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِهِ
 بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ⑤ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا

عَمَلُوا أَحْصِيَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾
 الْمَرْتَرَانِ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى
 ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ
 ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ وَأَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ الْمَرْتَرِ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى
 ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ
 الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْوَةٌ بِمَا لَمْ يُحْيِكْ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ
 لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُونَهَا فَبِئْسَ
 الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَجَنَّوْا
 بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَتَجَنَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى
 وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ
 لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
 وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ
 وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ
 وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْكُمْ
 صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطَهَّرٌ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧﴾
 - أَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا
 وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «المجادلة» المدنية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، إلى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

في مطلع هذا الربع، وهو فاتحة سورة «المجادلة»: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾، تناول كتاب الله بالتهذيب والتشذيب عادة من عادات «الجاهلية» التي كانت شائعة بين العرب، وكانوا يطلقون عليها اسم «الظَّهَار»، وهي من جملة العادات السيئة التي كان فيها عدوان على حقوق المرأة، فقد كان الرجل «الجاهلي» إذا غضب على امرأته اعتبرها مثل أمه، فحرم على نفسه مساسها كحرمته مساس أمه عليه سواء بسواء، وقال لها تعبيراً عن قصده: «أَنْتِ عَلِيٌّ كَظَهْرِ أُمِّي» وبذلك تصبح علاقته

الزوجية معها منقطعة حسب العرف «الجاهلي» لكنها بالرغم من تحريمها عليه تبقى «معلقة» دون طلاق، بحيث لا يمكن لها أن تتزوج من غيره، فلا هي حلُّ له في رأيه حتى تستمر علاقتها الزوجية معه قائمة، ولا هي مطلقة منه حتى تكون حرة في نفسها، وتبحث عن زوج آخر.

ولأول ما صدر هذا العمل من أحد الأزواج المسلمين رفعت زوجته المسلمة شكوى به إلى رسول الله ﷺ تستفتيه في أمرها، وتسأله الفصل في نزاعها مع زوجها، وبمناسبة وقوع هذه الحادثة التي هي الأولى من نوعها في المجتمع الإسلامي الناشئ نزل كتاب الله مبيِّناً حكم الله فيها خصوصاً، وفي شأن «الظهار» عموماً، وابتدأت الآيات الكريمة بالإشارة أولاً إلى الشكوى المرفوعة إلى رسول الله، وإلى الحوار الذي دار بينه وبين الزوجة المشتكية حول ظروف الحادثة وملابساتها، وما قد يترتب عليها من آثار، وقد حفظت دواوين السنة اسم الزوجة واسم زوجها، فهي خولة بنت ثعلبة، وهو أوس بن الصامت، وكان لهما صبية صغار، وكان قد تقدم به السن وساء خلقه في معاملة زوجته، فلما اشتد به الغضب قال لها: «أنتِ عليّ كظهر أمي»، فقالت له: «والله ما أراك إلا قد أثمت في شأني، لبست جدتي، وأفريت شبابي، وأكلت مالي، حتى إذا كبرت سنِّي، ورقت عظمي، واحتجبت إليك فارقتني»، ولما ذهب عنه الغضب قال لها: «ما أكرهني لذلك»، ثم أقبل عليها وحاول مساسها من جديد، فقالت له: «والذي نفس خويلة بيده - تشير إلى اسمها بصيغة التصغير والدلال - لا تخلص

إلي وقد قلتَ ما قلتَ، حتى يحكم الله ورسوله بيننا بحكمه»، فقال لها: «اذهبي إلى رسول الله ﷺ فانظري هل تجدين عنده شيئاً في ذلك». وهذه الواقعة هي التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، وفي هذه الآية دليل على مبلغ عناية الله بهداية خلقه وإرشادهم، وإصلاح ما فسد من أحوالهم، وعلى تمام رعايته للمظلومين، ونصرته لهم، برفع الظلم الواقع عليهم ولو من أقرب الأقربين.

وبين كتاب الله في الآيات التالية حكم الشريعة الإسلامية في «الظهار»، وخلاصة الحكم الشرعي فيه: أن «الظهار» يستلزم تحريم مساس المرأة على الزوج، وتحريم جميع أنواع الاستمتاع، إلا أن مجرد «الظهار» لا يُعتبر في الإسلام نوعاً من أنواع الطلاق ولا قائماً مقامه، نعم، إن رغبة الزوج في مساس زوجته والاستمتاع بها بعد ظهاره منها، وعودته إلى ما حرمه على نفسه بالظهار، لا بد أن تسبقه «كفارة» يكفر بها الزوج، عن الإثم الذي وقع فيه بالإقدام على إعلان الظهار.

وهذه الكفارة مُطالب فيها بالترتيب والتدرج، فتبدأ أولاً بتحرير رقبة من الرق، وذلك في حق الزوج القادر على العتق، بحيث لا يسمح الشرع له بمساس امرأته إلا بعد تحرير تلك الرقبة، فإن لم يكن بيده من المال ما يستطيع به إنقاذ رقبة من الرق وتحريرها، وجب عليه صيام شهرين على التتابع والتوالي، بحيث يلزمه أن يصوم ستين أو ٥٩ يوماً دون أي فصل بينهما ولا

انقطاع، وبعد انتهاء صومه طيلة شهرين كاملين يباح له الاتصال بزوجه التي كان قد ظاهر منها، فإن كان عاجزاً عن تحرير رقبة من الرق، وعاجزاً عن صيام شهرين متتابعين لعذر يقبله الشرع، لم يبق أمامه إلا مخرج واحد من الوُرطة التي تورط فيها، وهذا المخرج هو القيام بإطعام ستين مسكيناً مقابل ما عجز عنه من صيام ستين يوماً. قال الزمخشري: «فإن قلت: هل للمرأة أن تُرافع المظاهر إذا امتنع من الكفارة؟ قلت: لها ذلك - وعلى القاضي أن يجبره على أن يُكفّر وأن يحبسها، ولا شيء من الكفارات يُجبر عليه وَيُحْبَسُ إلا كفارة الظهر وحدها، لأنه يضر بالمرأة في ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع، فيلزم أيضاً حَقُّها».

وفي نفس الوقت الذي شرع فيه كتاب الله هذه الحدود والقيود للظهار، حتى لا يُقبَل عليه المسلمون كما كان الأمر في «الجاهلية»، نادى كتاب الله بتسفيه رأي أولئك الذين يعتقدون أنهم بمجرد ما يُشبهون زوجاتهم بوالداتهم تصبح زوجاتهم في حكم الأمهات فعلاً، مبيّناً أن أمهاتهم على الحقيقة وفي هذا المقام هنّ النساء اللاتي ولدنهن، لا غيرهن من النساء، أما في غير هذا المقام فإن «المرضعات» ملحقات بالأمهات، لأنهن لما أَرْضَعْنَ دخلن بالرضاع في حكم الأمهات، وكذلك أزواج رسول الله ﷺ «أمهات المومنين» لأن الله حرم نكاحهن على الأمة، فدخلن بذلك في حكم الأمهات، كما نادى كتاب الله باعتبار «صيغة الظهر» التي تعارفها العرب في الجاهلية صيغة

منكرة وزوراً من القول في نظر الإسلام، إذ أن أم الزوج هي التي ولدته، ولا يُعقل أن تُصبح الزوجة أمّاً للزوج بمجرد كلمة يفوه بها، تعسفاً واعتباطاً، وهي ليست أمّاً له في الحقيقة، ولا داخلة في حكم الأمهات، وهذه المعاني في جملتها هي التي تضمنتها الآيات الكريمة التالية حيث قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِيُتَمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وجاء في «موطأ» الإمام مالك رحمه الله ما نصه: «قال مالك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾، قال: سمعت أن تفسير ذلك أن يتظاهر الرجل من امرأته، ثم يُجمع على إمساكها وإصابتها، فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلقها ولم يُجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وأصابتها فلا كفارة عليه، قال مالك: فإن تزوجها بعد ذلك، أي بعد طلاقها لها دون كفارة، لم يمسها حتى يكفر كفارة المتظاهر».

وبعدما بينت الآيات الكريمة حدود الله في شأن «الظهار»، ووضعت بذلك حداً للهوى والتعسف واستبداد الأزواج بزواجهم، مما كان شائعاً في «الجاهلية» قبل الإسلام، عقب كتاب الله بما

يفيد أن الذين لا يَقْفُونَ عند الحدود التي حُدَّها لهم الشرع إنما يَجْنُونَ على أنفسهم جناية كبرى، فسيعاقبهم الحق سبحانه بالخزي والهوان، جزاء تمردهم على الشريعة واستنكافهم عن الانقياد لِنُظْمِها، وعدم اعترافهم بسلطتها. وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبُتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى مزيدٍ من الوصف لعلم الله الشامل الكامل، إذ لا يغيب عن علمه شيء، فهو يعلم السر والنجوى، «السر» المكتوم الذي يحتفظ به كل واحد منهم دون أن يُطْلِعَ عليه الغير و«النجوى» التي يكشف بعضهم خيالها عما في نفسه للبعض الآخر، لكن في تَسْتُرٍ وَحَدَرٍ، وإذا كان الناس يَسْتَوْنَ أعمالهم ولا يتذكرونها في أغلب الأحيان، فإن الله سبحانه يُحْصِي عليهم أنفاسهم، ويسجل لهم أعمالهم، وينبئهم بما عملوا متى حلَّ موعد الحساب والجزاء، وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصِيَهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا﴾، أي: وملائكتنا، ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٠).

وتحدث كتاب الله عن طائفة من المنافقين والكافرين يفضلون الاجتماع في غفلة عن الأنظار، بدلاً من أن يجتمعوا على مرأى ومسمع من الناس وذلك بُغية التآمر في اجتماعاتهم الخاصة، وأشار إلى النهي الذي وُجّه إليهم من قبل حتى لا يعقدوا مثل هذه الاجتماعات التي يبيتونها فيها الشر والأذى للإسلام والمسلمين، لكنهم بالرغم من النهي الذي وُجّه إليهم عادوا لما نُهوا عنه، من التناجي فيما بينهم بما فيه «ضرر خاص» وهو المعبر عنه هنا «بالإثم»، وبما فيه «ضرر عام» وهو المعبر عنه هنا (بالعدوان)، وأكبر عدوان هو ما يتآمرون عليه من معصية الرسول، وعدم التنفيذ لأوامره، والخروج على تعليماته، وهذا المعنى هو ما يشير إليه قوله تعالى في خطابه لنبيه عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾.

ووصف كتاب الله ما تنطوي عليه نفوس طائفة من المنافقين، وما يبرز على ألسنتهم من عبارات السخرية والتعريض، وعدم التوقير الواجب لمقام الرسالة، وما تحدّثهم به أنفسهم عند ذلك، من أنه لو كان الرسول رسولاً حقاً لعدّبوا في الحين، جزاء ما يقولونه في حقه من الأقوال الخارجة عن حدود الأدب ومقتضيات الإيمان، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾.

ووجه كتاب الله خطابه إلى المومنين، داعياً إياهم، عندما

يجتمعون للتناجي فيما بينهم في اجتماعات خاصة، إلى أن يتجنبوا في أحاديثهم كل ما فيه ضرر فردي أو جماعي، وأن يتناجوا فيما بينهم بالبر والتقوى دون الإثم والعدوان، وأن يستبعدوا من مذاكراتهم كل ما تُشَمُّ منه رائحة التمرد وعَدَم الامتثال، وكل ما يؤدي إلى معصية الرسول، فطاعة الله وطاعة رسوله دعامتان أساسيتان من دعائم العقيدة الإسلامية، وركنان من أركان الدولة الإسلامية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ونبه كتاب الله إلى أنه لا ينبغي للمومن أن يناجي آخر فيسر إليه بالحديث، ما دام حاضراً معهما مومن ثالث لا يعرف ما يدور بينهما، وقد يتأذى من حديثهما الذي يجهل فحواه، إذ تُوسوس إليه نفسه أن الحديث الذي هو نجوى بين الاثنين، ويتساران به فيما بينهما، يتضمن استهزاء به، أو تآمراً عليه، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وفي مثل هذا المعنى قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه». وهذا النص انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

وبدلاً من استعمال «الشعر» وسيلة لقضاء الحاجات، حسبما كان متعارفاً عند العرب، لأنه من أفضل ما عندهم، فكان الرجل يُقدِّمه أمام حاجته «يستمطر به الكريم، ويستنزله به اللئيم» على

حَدَّ قول عمر بن الخطاب، جاء كتابُ الله بنمطٍ جديد يتفق مع روح الإسلام وأهدافه الإنسانية السامية، فخطب المومنين الذين يرغبون في مُناجاة الرسول والتحدث إليه في شؤونهم الخاصة أن يتقربوا إلى الله قبل لقاء الرسول، بتقديم الصدقات إلى الفقراء المسلمين، ثم يأتوا إليه وقد ازدادوا طهراً وصفاءً، أما الذين لا يملكون ما يتصدقون به على الفقراء، لكونهم من نفس الفقراء، فلا حرج عليهم في لقائه ومناجاته دون تقديم أية صدقة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾، أي: أردتم ذلك، ﴿فَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَةً، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ثم وسَّع الله عليهم ولم يضيق، فقال تعالى: ﴿أَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذ لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ولعل من بين أسرار هذا التوجيه الإلهي الحكيم ما كان عليه المسلمون من التزاحم على لقاء رسول الله، ورغبة كل فرد في الاختلاء به والاستئثار بوقته واهتمامه، لقضاء الحاجات، وتلقي التوجيهات، الأمر الذي لو لم يوضع له حد لأصبح من الصَّعبِ عَلَيْهِ القيامُ بالمهامِّ الكبرى التي تستلزم تكريس وقته لأدائها أولاً بأول، وذلك لخير الجماعة الإسلامية جمعاء، فلما تلقى المسلمون هذا التوجيه الإلهي كان لهم بمنزلة «الفِطام». وكان فيه نوع من التخفيف على رسول الله، حتى يستطيع التفرغ للقيام بمهام الرسالة الجسام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

الْمَتَرِّ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا

قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ
عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ
سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ
اللَّهِ فَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ نُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ
يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
عَلَىٰ شَيْءٍ آلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ
فَأَنبَسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ
هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي
الْآذَانِ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾
لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ

كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَدَخَلَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ
الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ
مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴿٢﴾ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا
يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
الْجَلَائَةَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٤﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا
قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ وَمَا أَفَاءَ
اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ① مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْبَىٰ فَلَهُ وَلِلسُّوْلِ
 وَلِدَيْهِ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَمَا لَا يَكُونُ
 دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا
 نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ②
 لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَبْتَغُونَ
 فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ
 الصَّادِقُونَ ③ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ
 حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
 خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ④
 وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا
 الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيْمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ⑤

الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة «المجادلة» المدنية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه في سورة «الحشر» المدنية أيضاً: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾.

وكتاب الله في مطلع هذا الربع يحذّر الرسول عليه السلام من طائفة المنافقين، ويبين له ما هم منطوون عليه من موالاة اليهود الذين لا يضمرون أيّ خير للعرب، لا للعرب المسلمين، ولا حتى للعرب المنافقين الذين يمالئونهم في الباطن. ويهتك كتابُ الله الستر عن أسلوب التضليل والتدجيل الذي يستعمله «المنافقون» تقليداً لليهود لجلب المومنين الصادقين إلى صفهم والتأثير عليهم، ولا سيما ما يُقسّمون به من الأيمان المغلظة،

تأييداً لدعاويهم، وتدعيماً لأكاذيبهم، وبين كتاب الله أن الأيمان المغلظة التي يحلفونها إنما هي ستار كثيف يخفون به مقاصدهم، وسلاح خفيف يحمون به أنفسهم، حتى لا تفتضح نياتهم، ولا تنكشف عوراتهم، وحتى تستمر أحكام الإسلام الظاهرة جارية عليهم، باعتبار أنهم «مسلمون». وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

ثم يتحدث كتاب الله عن المصير السيء الذي ينتظر «المنافقين» يوم القيامة، وأن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم في الآخرة من الله شيئاً، إذ لا يستطيعون فدية رقابهم بالمال، ولا يستطيعون نصره أنفسهم بالرجال، وإلى ذلك يشير قوله تعالى:

﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

وحيث أن من عاش على شيء مات عليه، وحيث أن المنافقين قد تمكّن النفاق من قلوبهم، واعتادوا الحلف بالأيمان الكاذبة وهم على قيد الحياة في الدنيا، واتخذوا من أيمانهم الفاجرة وقاية يتقون بها سطوة الإسلام وسلطانه، فإنهم سيواصلون نفس الخطة وهم في الآخرة، وسيحلفون أمام الله على الكذب، كما كانوا يحلفون عليه أمام رسوله والمومنين، جهلاً منهم بأن الله يعلم السر والنجوى، وظناً منهم أن ذلك سينجيهم من عذاب الله،

مثل ما أنجاهم كذبهم في الدنيا من متابعة الناس، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

ونظراً لأن البشر على اختلاف أجناسهم إنما هم فريقان: فريق يدعو إلى «الحق» ويسعى في الصلاح، وفريق يدعو إلى «الباطل» ويسعى في الفساد، فقد اعتنت الآيات الكريمة هنا بتحديد الفروق الواضحة والسّمات المميّزة التي يتميز بها الفريق الأول وهو «حزب الله» عن الفريق الثاني وهو «حزب الشيطان»، وذلك ليُعرف المومنون عن بيّنة، في جهة من يجب أن يضعوا ثقتهم، وفي يد من يجب أن يضعوا أيديهم:

- فأما «حزب الشيطان» الذي يقود الشيطان خطواته، ويوحى إلى أهله زخرف القول غروراً، فهو الذي استحوذ عليه الشيطان استحواداً تاماً، بحيث أنساه ذكر الله بالمرة، فلا هو يومن بالرسول ورسالاتهم، ولا هو يومن بالكتب المنزلة وشرائعها، ولا هو يومن بالآخرة وعذابها، بل هو يتحدى أوامر الله ونواهيه تحدياً صارخاً، فينتهك الحرمات، ويتعدى الحدود، ويحاول أن يقف في وجه كل شيء له علاقة بتوجيه الله وهدايته، ويعمل كل ما في وسعه جاهداً لطمس معالم الوحي والدين، بين البشر أجمعين، وإلى هذا الحزب الضال المضل من البشر يشير قوله تعالى: ﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

- وأما «حزب الله» فهو الذي شرح الله صدره للإيمان، وحببه إليه، وأقره في قلبه، وأيده بروح منه، وثبته بالقول الثابت، في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وألقى في قلبه محبة المومنين بالله ورسوله ومودتهم، وعداوة غيرهم إلى الأبد، ولو كان هذا الغير من أقرب الأقربين. وإلى حزب الله من الهادين المهتدين، الذين هم النبراس المضيء في الدنيا والدين، يشير قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ومما يجب التنبيه إليه ما جاء في سياق التفرقة بين حزب الله وحزب الشيطان من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَى كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، فهذه الآية «تتوعد حزب الشيطان» بأن مصيره المحتوم هو الخزي والذل والهوان، مهما تطاول على الله وجاهره بالشئان والعدوان. كما أنها «تعد حزب الله» الذي يرهه الله، ويتصدّره «أولو العزم» من الرسل، بالغلبة على حزب الشيطان والنصر عليه، لا في الآخرة وحدها، ولكن حتى في الدنيا قبلها، طبقاً لصريح قوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ (غافر: ٥١)، وقد صدق الله وعده لحزبه فعلاً، فغلب الإيمان

على الكفر، وانتصر التوحيد على الشرك في رقعة واسعة من العالم، وأظهر الله دينه الحنيف على كثير من المعتقدات الزائفة، والتقاليد الباطلة، التي كانت قبل ظهوره سائدة في جميع أطراف الأرض، فآمنت بالله ورسوله، ودانت بدين الله، مات الملايين من البشر، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وها هو مد الإسلام، لا يزال في امتداد مستمر على الدوام، رغماً عما تعرّض له المسلمون عبر الأجيال والقرون من بطش وضغط، ومكر سيء، وكيد خفي، يلاحقهم به أعداء الإيمان، في كل مكان. أما موجات الكفر والإلحاد التي تتصاعد في بعض الفترات وفي بعض الأجيال، وفي بعض البقاع، فإن مآلها دائماً إلى تقهقر وتراجع، أمام تيار الإيمان الصاعد، الذي يمدّه كل يوم مدد جديد من العلم بأسرار الكون، والمعرفة بعجائبه، والاكتشافات الحديثة لإفاقه الواسعة، وبذلك كله تتحقق الغلبة لله ولرسله في الدنيا كما هي مُحَقَّقة في الآخرة.

وقوله تعالى في التعقيب على هذا المعنى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، إشارة إلى أن «قوة» الله التي لا تُعادلها قوة، وإلى أن «عزته» التي لا يلحقها ضيم، هما أكبر ضمان لحزب الله في صراعه مع حزب الشيطان، وما دام الأمر كذلك فمن تمسك بحبل الله، وانضم إلى حزب الله، كان أقوى من كل قوي، وأعز من كل عزيز، إذ أنه يَأوي إلى ركن ركين، ويعتمد على سند متين.

والآن فلننتقل إلى سورة «الحشر» المدنية أيضاً، وقد سميت «سورة الحشر» أخذاً من قوله تعالى في الآية الثانية منها: ﴿هُوَ

الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴿١٠﴾، وهذه السورة الكريمة تشير إلى يهود «بني النضير»، وجلائهم عن المنازل التي كانوا يسكنونها، والحصون التي كانوا يتحصنون بها خارج «المدينة» على أميال منها من الناحية الشرقية، وذلك بعدما حاصرهم رسول الله والمؤمنون ستَّ لَيَالٍ، على رأس ستة أشهر من «غزوة أُحُد» أوائل السنة الرابعة من الهجرة، فنزلوا واستسلموا، على أساس الكفِّ عن دمائهم، والجلاء عن منازلهم وحصونهم، وأنَّ لهم ما أَقْلَتْه إِبْلُهُمْ وحملته من الأموال والأمتعة، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، إلَّا «الحلقة» وهي السلاح الكثير، فلم يَسْمَحْ لهم بحمله معهم، واتجه فريق من بني النضير إلى «خيبر»، واتجه فريق آخر إلى «أذرعات» من أعالي الشام.

والسبب المباشر لحصار «بني النضير» ونزولهم على «الجلاء» فيما يذكره أصحاب المغازي والسِّيَر هو أنهم تواعدوا مع رسول الله على أن يخرج إليهم في طائفة من أصحابه، وأن يخرج إليه منهم طائفة من أحبارهم، حتى يلتقي الفريقان ويسمعوا منه، فيؤمنوا به إن صدَّقه أحبارهم، فلما حلَّ الموعد غدا عليهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «إنكم لا تؤمنون عندي إلَّا بعهد تُعاهدُونِي عليه»، فأبوا أن يعطوه عهداً، رغماً عن مُهادنته لهم منذ هجرته إلى المدينة، وما أعطوه له من العهد والذمة إذ ذاك، وبهذه المناسبة خلا بعضهم ببعض، فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، وكان رسول الله مستنداً إلى

جَنبِ جِدَارٍ مِنْ بَيْوتِهِمْ، فَهَلْ مِنْ رَجُلٍ يَعْلُو عَلَى هَذَا الْبَيْتِ فَيُلْقِي صَخْرَةً عَلَى مُحَمَّدٍ فَيُرِيحُنَا مِنْهُ؟» وَانْتَدَبُوا لِذَلِكَ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَصَعِدَ أَشْقَاهُمْ لِيُلْقِيَ الصَّخْرَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٌ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ مِنْ اغْتِيَالِهِ، وَقَفَلَ وَحَدَّهُ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ أَخْبَرَهُمْ بِخِيَانَةِ «بَنِي النَّضِيرِ» وَنَقْضِهِمْ لِلْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدُوا عَلَيْهِ الرَّسُولَ، وَمَحَاوَلَتِهِمْ لِلْغَدْرِ بِهِ وَهُوَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالتَّهَيُّؤِ لِحَرْبِهِمْ وَالْمَسِيرِ إِلَيْهِمْ، وَلَمَّا أَعْدَدُوا الْعُدَّةَ سَارَ إِلَيْهِمْ بِالْكَتَائِبِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ، فَتَحَصَّنُوا فِي الْحِصُونِ، وَبَعْدَ مُضِيِّ مَدَّةِ الْحِصَارِ الْإِسْلَامِيِّ الْمَضْرُوبِ عَلَى حِصُونِهِمْ طَلَبُوا الصَّلْحَ، وَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَحْقِنَ دِمَاءَهُمْ وَيُجْلِيَهُمْ عَنْ دِيَارِهِمْ، فَصَالَحَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَتَمَّ جَلَاءُ «بَنِي النَّضِيرِ» عَنْ مَنَازِلِهِمْ الَّتِي كَانُوا بِهَا خَارِجَ الْمَدِينَةِ، وَلَمْ يُسَلِّمْ مِنْهُمْ بِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ إِلَّا رَجُلَانِ أَسْلَمَا عَلَى أَمْوَالِهِمَا فَأَحْرَزَاهَا، وَهُمَا يَامِينُ بْنُ عَمْرٍو وَأَبُو سَعْدِ بْنِ وَهَبٍ. وَإِلَى هَذِهِ الْوَاقِعَةِ تُشِيرُ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ الْوَارِدَةُ فِي «سُورَةِ الْحَشْرِ»، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَطْلُقُ عَلَيْهَا أَيْضًا «سُورَةَ بَنِي النَّضِيرِ».

وقد ابتدأت هذه السورة بما يفيد خضوع جميع المخلوقات، في الأرض والسموات، لعزة الله وجلاله، وتنزيهها لخالقها عن كل نقص أو عجز، واعترافها بحكمته وكماله، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم شرعت الآيات الكريمة في وصف حصار «بني النضير» وجلائهم، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الوضع المادي الذي كان عليه «بنو النضير» من المال والسلاح والحصون كان يوحي إليهم بأنهم في عز ومنعة، بحيث لا يستطيع أن يطاولهم أحد، فضلاً عن أن ينتصر عليهم: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، كما كان هذا الوضع نفسه يوحي إلى الجماعة الإسلامية الناشئة بأن الاستيلاء على «بني النضير» يحتاج إلى تضحيات جلي، إن لم يكن في حكم المتعذر بالمرة، ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾، فلما فتحوا أبواب حصونهم وخرجوا منها مستسلمين، يعرضون بأنفسهم على رسول الله ﷺ أن يكف عن قتالهم، وأن يُجلبهم عن ديارهم، كان ذلك أمراً إلهياً خارقاً للعادة، ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، إذ لم يكن هذا المصير الذي انتهوا إليه بعد ست ليالٍ من حصارهم منتظراً، لا عند المسلمين، ولا عند «بني النضير» أنفسهم، وقد كان في الإمكان أن يطول الحصار أسابيع وشهوراً. وإذن «الرعب» الذي ألقاه الله في قلوبهم، والهزيمة التي استولت على نفوسهم، هما العاملان الأساسيان في خروج «بني النضير» من حصونهم، واستسلامهم للرسول والمومنين، ورضاهم بالجلاء عن «المدينة» عاصمة الإسلام الأولى، وفي هذا الإطار من الظروف والملابسات نستطيع أن نفهم المراد بقوله تعالى في هذا

السياق: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ﴾، في وصف «بني النضير» وهم يتأهبون للجلاء عن ديارهم، إشارة إلى ما قاموا بهدمه من مبانيهم، وما قاموا بنقضه من سقوفهم، وما قاموا بقلعه من أخشاب أبوابهم، وما قاموا بحمله من مختلف الأمتعة والرياش التي كانت بمنازلهم، وبذلك خربوا بيوتهم بأيديهم وتركوها خراباً يَبَاباً.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾، إشارة إلى ما قام به المسلمون أثناء حصارهم «لبنى النضير»، فقد كان المسلمون إذا ظهروا على دَرْبٍ أو دار هدموا حيطانها ليتسع المكان للقتال.

وقوله تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ تعقيب على ما في هذه الواقعة الفريدة من نوعها من مختلف العظات والعبر، فهي درس عملي أعطاه الإسلام للمشركين، وللمنافقين، وللكافرين من أهل الكتاب على السواء.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، إشارة إلى «الفيء» الذي آل إلى المسلمين من أموال «بني النضير»، وفي حكمه كل ما يؤول إلى المسلمين من هذا النوع، والمراد «بالفيء» كل مال أُخِذَ من الكفار أثناء الجهاد من غير إيجافٍ خيلٍ ولا رِكَابٍ، أي:

من غير مبارزة ولا مصاولة، ولا ركض بخيل أو جمال. والشأن في هذا النوع أن يُردَّ على المسلمين، ويُصرف في وجوه البرِّ والمصالح العامة.

ثم بين كتابُ الله «مصارفِ الفِء» الذي يؤول إلى المسلمين أثناء جهادهم في سبيل الله، والوجوه التي ينبغي أن يُصرف فيها فقال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾، معناه كما قال ابن كثير: «جعلنا هذه المصارف لِمالِ الفِء، كي لا يَبْقَى مأكلةٌ يتغلبُ عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون من الفِء شيئاً إلى الفقراء».

وللزيادة في بيان من يستحق الأخذ من مال «الفِء» ضرب كتابُ الله المثل «بفقراء المهاجرين» الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وبهذه المناسبة نوه «بالأنصار» الذين آوهم وآثروهم على أنفسهم، وذلك قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاًً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤِثِّرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، إلى آخر الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، إلى آخر الآية إشارة إلى قسم ثالث يستحق فقراؤهم أن يُصْرَفَ إليهم من «مال الفيء»، ما دام الجهاد قائماً في سبيل الله. فبالإضافة إلى فقراء المهاجرين وفقراء الأنصار هناك فقراء المومنين التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، على غرار قوله تعالى في سورة التوبة (١٠٠): ﴿وَالسَّبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، والمراد «التابعين لهم بإحسان»، كما قال ابن كثير: «المتبعون لأثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية»، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الربع الثالث من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
 نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ وَأَحَدًا أَبَدًا
 وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾
 لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ
 وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ
 أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
 لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ
 أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ
 شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرُوا فَكَفَرُوا

قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾
 فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا
 اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾
 لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ
 الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى
 جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ
 الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾
 هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُتَّوَكِّلُ الْعَزِيزُ
 الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾
 هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِكُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ
 لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِدُوَّكُمْ وَعَدُوَّكُمْ ءَأُولِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ
أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ءَإِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ
وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ① إِنْ يَشْفَقُواكُمْ يُكَفِّرُواكُمْ
أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ
تَكْفُرُونَ ② لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُفْضَلُ
بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ③ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ ءِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ءَإِنَّا بَرَاءٌ ءَأَمِينُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُمْ وَبَدَأ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ أَبَدًا
حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ءَإِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ
لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ءَرَبَّنَا عَلَيكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ④
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ءَوَاعِظْنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑤
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ ءِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ
فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⑥

الربع الثالث من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الحشر» المدنية: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة «المتحنة» المدنية أيضاً: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

في بداية هذا الربع تناول كتابُ الله وصف الدُّور السافل الذي قام به «المنافقون» في قصة «بني النضير»، حيث شجعوهم على نقض عهد رسول الله ومخالفته، والتآمر عليه وعلى المسلمين، ووعدوهم بالنجدة والنصرة إذا تعرّضوا لاصطدام مع القوة الإسلامية الفتية، فأطلع الله رسوله على هذه المؤامرة عن طريق الوحي المبين، وذلك قوله تعالى مخاطباً لنبيه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ

لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠﴾، وقد كان عبدُ الله بنُ أبي
ابنِ سُلُولٍ وعصابتُه من المنافقين بعثوا إلى يهود «بني النضير»: «ان
اثبتوا وتمنعوا، فأنا لن نُسلمكم، إن قُوتلتُم قاتلنا معكم، وإن
خرجتُم خرجنا معكم»، فتربَّص «بنو النضير» ذلك، وانتظروا نصر
المنافقين لهم أثناء فترة الحصار الإسلامي، لكنَّ الله قذف في
قلوب المنافقين الرُّعب فلم ينتصروا لليهود، وقذف في قلوب
«بني النضير» الرعب فاستسلموا للمسلمين، وذلك قوله تعالى:
﴿لَئِنْ أَخْرَجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ
نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ﴾، وبين كتاب الله السر في
فشل يهود «بني النضير» وحلفائهم وإخوانهم من المنافقين، وهو
أنهم يخافون الخلق أكثر مما يخافون الخالق فقال تعالى مخاطباً
رسوله والمومنين: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

ووصفت الآيات الكريمة ما عليه يهود «بني النضير» ومن
لفَّ لفهم من الجبن والهلع، فهم لا يقدرُونَ على مواجهة
«كتائب» الإسلام الفتية، ومبارزتها وجهاً لوجه في الفضاء الطلق،
وإنما يتسترون ويتترسون بالحصون والجُدُر، ليقاتلوا من ورائها،
وهم في مأمن من المفاجآت والمغامرات، وذلك قوله تعالى:
﴿لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾،
ثم يكشف كتاب الله عن سرِّ دفين يتبين من خلاله مقدار ما بين
المنافقين وكفار أهل الكتاب من التضامن والتعاون، وأن تحالف
الفريقين إنما هو تحالف مصالح وأغراض إن اتفقت حيناً اختلفت

أحياناً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وأعاد كتابُ الله إلى أذهان المومنين ما أصاب كفار قريش «يوم بدر»، مشيراً إلى أن العاقبة كانت عليهم أيضاً لا لهم، فما أصاب «بني النضير» إنما هو تمة لما أصاب كفار قريش من قبل، وذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وشبهَ كتابُ الله موقفَ «المنافقين» الذين شجعوا يهود «بني النضير» على نقض العهد، والتآمر على حياة الرسول عليه السلام، والذين وعدوهم بالنصرة والتأييد، ثم أخلفوا وعدهم وأسلموهم لسوء العاقبة، بموقف الشيطان من الإنسان، عندما يغريه بالكفر فيغترّ به، ويكفر تحت تأثير إغرائه، حتى إذا كان يوم القيامة تبرأ الشيطان منه براءة تامة، وتَنَصَّلَ من تَبَعَةٍ عمله كل التنصل، وذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

واتجه الخطاب الإلهي إلى المومنين يُناديهم بأحب الصفات إليهم، داعياً إياهم إلى تقوى الله، مكرراً أمره بالتقوى في هذا السياق مرتين على التوالي، و«تقوى الله» تقتضي أن يقي المومن نفسه من عذاب الله وسخطه، وذلك بالتزام الصلاح والاستقامة،

وسلوك الطريق السوي، وامثال الأوامر واجتناب النواهي، «فَالْعَدُّ» الذي هو عبارة عن الحياة القادمة والدائمة مهما كان بعيداً فهو قريب، والتزود له أمر تقضي به الحكمة والرشد، ويستلزمه حسن التدبير، وسلامة التفكير، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِنَنْظُرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفٰئِزُونَ﴾.

وتحدث كتابُ الله من جديد عن روحانية القرآن الكريم، وكونه «روحاً من أمر الله» يُشعُّ من خلال كلماته كلُّ ما لله من صفات الكمال، ومظاهر القدرة والحكمة والجلال، وذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وختِمت سورة «الحشر» بعقد نفيس من أسماء الله الحسنى يُذكر المومنين بجملة من مظاهر ربوبيته، وآثار ألوهيته، في الأفاق وفي أنفسهم: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، ثم يكون «مسك الختام» تسبيحاً لله وتنزيهاً، على لسان جميع المخلوقات في الأرض وفي السماوات، وكما ابتدأت سورة «الحشر» هكذا: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾، تنتهي بنفس المعنى هكذا:
﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾،
وبذلك انسجمت البداية مع النهاية.

ولنتقل الآن إلى سورة «المتحنة» المدنية، مستعينين بالله
معتمدين عليه، وأطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى في
الآية العاشرة منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ﴾، وأول ما يستقبلنا من هذه السورة الكريمة
نداء من الله إلى فريق خاص من المومنين، يُحذِّرهم فيه من أن
يتخذوا أعداءه أولياء، أو يلقوا بالمودة إلى من كفروا بالحق،
وَأَلْجَأُوا الرِّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ «مَنْزِلِ الْوَحْيِ الْأَوَّلِ»
مُيَبِّناً لَهُمْ أَنَّ «رَابِطَةَ الْعَقِيدَةِ» هي الرابطة التي يجب أن يرعوها
حق رعايتها، وما عداها من الأواصر والروابط العائلية أو المالية
يجب إخضاعه لهذا الاعتبار قبل أي اعتبار آخر، وذلك ما يشير
إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ
أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ
يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ
جَهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ
بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ثم بين كتابُ الله لهذا الفريق من المومنين الذين كانوا لا
يزالون على شيء من السَّدَاجَةِ وَالْبَسَاطَةِ أَنَّهُمْ لَوْ سَقَطُوا فِي أَيْدِي
مَشْرِكِي قَرِيشٍ لَنَكَّلُوا بِهِمْ شَرَّ تَنْكِيلٍ، وَلَفَعَلُوا بِهِمْ أَقْبَحَ الْأَفَاعِيلِ،
وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً

وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿١١٤﴾ .

وكشفَ كتابُ الله السرَّ في تحذيره لهذا الفريق من المومنين، فقد كانوا لا يزالون متأثرين بروابط القرابة والرحم التي تربطهم بأقربائهم من مشركي مكة، وكانوا يحنون إليهم ما بين الحين والحين، فقال تعالى مخاطباً لهم: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

وضربَ كتابُ الله المثلَ لهذا الفريق من المومنين ببراءة إبراهيم الخليل من قومه هو ومن آمن معه ورميه برابطة القرابة معهم عرض الحائط، عندما أصبح الأمر يتعلق بعقيدة التوحيد والإيمان بالله فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، وكان استغفار إبراهيم لأبيه قبل أن يستيقن إصرار أبيه على الشرك، مصداقاً لقوله تعالى في سورة التوبة (١١٤): ﴿وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ .

وختم هذا الرُّبُوع بما يؤكد نفس الغرض ونفس التوجيه، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين
في المصحف الكريم

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ
مَنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ
لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا
إِلَيْهِمْ وَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا
جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ
عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ
يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ
أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ

اَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ مِبَايَعْنِكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ
 بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
 بِمِهْتَنِ يَفْتَرِيْنَهُ وَبَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي
 مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 قَدْ يَسُوْا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكٰفِرَاتُ مِنَ اصْحٰبِ الْقُبُوْرِ ﴿١٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ
 أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي
 سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنِيْنَ مَرصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
 لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَني وَقَدْ تَعٰمَنُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
 زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِينَ ﴿٥﴾
 وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرٰءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا
 بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اِسْمُهُ اْوْحَمْدُ فَلَمَّا

جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
 الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ
 لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾
 هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
 وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ
 مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرُ
 لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلِكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً
 فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ
 وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا
 لِلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
 الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ
 طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة «المتحنة» المدنية: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه في سورة «الصف» المدنية أيضاً: ﴿فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

في بداية هذا الربع عاد كتاب الله إلى فتح باب الأمل والرجاء في وجه فريق من «المهاجرين» كانوا يُعانون بعض القلق النفسي من مقاطعة أهلهم وعشيرتهم الذين لا زالوا على شركهم بمكة، فبعدهما أمرهم الله تعالى بعداوة المشركين والبراءة منهم ولو كانوا من ذوي الأرحام ومن أقرب الأقربين إسوةً بإبراهيم الخليل عليه السلام الذي تبرأ من أبيه نفسه، أشارت الآية الكريمة إلى أن الأمل في إنقاذهم لم ينقطع، وإلى أن الرجاء لا يزال معقوداً على هداية الله لهم إلى الحق، فهو سبحانه قادر على أن يشرح صدورهم للإيمان، فيدخلوا تحت طاعة الإسلام، ويعملوا تحت

لوائه، وإذ ذاك يجمعُ الله شمل الجميع في ظل الإسلام الحنيف، ولا يبقى أيُّ مبررٍ لعداوتهم، ولا للبراءة منهم، بل تصبح مودتهم واجبة، بمقتضى رابطة العقيدة الإسلامية المشتركة، التي هي أقوى رابطة بين المسلمين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في مطلع هذا الربع: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وانتقل كتاب الله إلى تقعيد قاعدة أساسية في معاملة المسلمين لغيرهم من أهل الملل الأخرى، ألا وهي معاداة من اعتدى على المسلمين أو تضامن مع المعتدي عليهم، ومسالمة من لم يعتد على المسلمين ولم يتضامن مع المعتدي عليهم. ويُعتبر «معتدياً على المسلمين» كل من قام باعتداء على ديارهم، بعد ما سالمهم، أو خانَ عهدهم بعد ما عاهدهم، أو حال بينهم وبين أن ينشروا عقيدتهم، أو منعهم من أن يطبقوا شريعتهم، ويمارسوا شعائرهم، وإلى هذه القاعدة الأساسية في الإسلام يشير قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَتَقْسُطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

والآن فلنتحدث عن «آية الامتحان» التي بها سميت هذه السورة المدنية الكريمة سورة «المتكئة».

لقد تضمن «صلح الحُدَيْبِيَّةِ الذي انعقد بين المسلمين وكفار

قريش قبل فتح مكة بستتين فقرةً فيها شيء من الغموض، يقول نصها ما يأتي: «على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رَدَدْتُهُ إِلَيْنَا»، وبينما رسول الله ﷺ لا يزال بأسفل الحُدَيْبِيَّةِ عَقِبَ عقد الصلح بينه وبين قريش أقبل عليه نساءٌ مسلمات، مَمَّنَ كُنَّ مقيمات بمكة يرغبن في مفارقة أزواجهن المشركين، ويطلبن الهجرة إلى المدينة مع إخوانهن المسلمين، فأنزل الله على نبيه «آية الامتحان» تَسْتَبِيحِي النِّسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ مِنْ تِلْكَ الْفُقَرَةِ الْغَامِضَةِ الَّتِي تَضْمَنُهَا «صَلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ» حَتَّى لَا يَقَعَ رَدُّهُنَّ إِلَى أَيْدِي الْمَشْرِكِينَ، نَظراً لِحُرْمَةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يَتَمَتَّعْنَ بِهَا مِنْ جِهَةٍ، وَرَقَّتَهُنَّ وَضَعْفَهُنَّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ «شَرَطَ الرَّدِّ إِنَّمَا كَانَ فِي الرِّجَالِ لَا فِي النِّسَاءِ» وَأَنَّ الشَّيْءَ الْوَحِيدَ الَّذِي يُرَدُّ إِلَى الْأَزْوَاجِ الْمَشْرِكِينَ إِنَّمَا هُوَ صِدَاقُ زَوْجَاتِهِنَّ الْمُسْلِمَاتِ اللَّائِي فَارَقْنَهُمْ وَأَرَدْنَ الْهَجْرَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى «الْمَدِينَةِ» وَذَلِكَ حَتَّى لَا يَقَعَ عَلَيْهِمْ خَسْرَانٌ مَزْدُوجٌ: خَسْرَانُ الزَّوْجَةِ وَخَسْرَانُ الْمَالِ، كَمَا طَالِبُ كِتَابِ اللَّهِ الْمَشْرِكِينَ بِنَفْسِ الشَّيْءِ إِذَا جَاءَتْهُمْ امْرَأَةٌ مِنْ طَرَفِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُرَدُّوا صِدَاقَهَا إِلَى زَوْجِهَا الْمُسْلِمِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، أَي: أَنَّ الْمُسْلِمَاتِ مِنَ الْآنَ فَصَاعِداً أَصْبَحْنَ حَرَاماً عَلَى الْمَشْرِكِينَ، كَمَا أَنَّ الْمَشْرِكِينَ أَصْبَحُوا حَرَاماً عَلَى الْمُسْلِمَاتِ: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِمَّا أَنْفَقُوا﴾، أَي: ادْفَعُوا إِلَى الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا أَزْوَاجاً لِلْمُسْلِمَاتِ الْمُهَاجِرَاتِ مَا أَنْفَقُوا عَلَيْهِنَّ مِنَ الْأَصْدِيقَةِ، وَبُنْفَذْ لَهُمْ

ذلك من «بيت المال»، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾، أي: لا حرج عليكم في الزواج بأولئك المسلمات المهاجرات، المفارقات لأزواجهن المشركين إذا دفعتم لهنّ صداقاً من عندكم وانقضت عدتهن: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾، أي: حرامٌ عليكم أيّها المسلمون أن تتزوجوا بالمشركات من الآن فصاعداً، كما أن استمرار زواجكم بالمشركات اللاتي سبق تزوجكم بهن أصبح حراماً، وهذه دعوة صريحة إلى فراقهن: ﴿وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا﴾، أي: طالبوا المشركين بما أنفقتم من صداق على زوجاتكم إن ارتدت إحداهن وذهبت إليهم بمحض اختيارها، كما أن للمشركين أن يُطالبوكم بما أنفقوا من صداق على زوجاتهم المسلمات اللاتي هاجرن مع المسلمين وهذه المطالبة تقوم على أساس المعاملة بالمثل: ﴿ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، أي: هو حكم الله يحكم به في «صلح الحديبية» فلا ردّ للمسلمات بعد الآن إلى أزواجهن المشركين، طبقاً لحكم القرآن، قال ابن كثير: «فعلى هذه الرواية تكون الآية مخصّصةً للسنة، وهذا من أحسن الأمثلة لذلك».

ونبه القاضي أبو بكر (ابن العربي) المعافري إلى أن الوضع الخاص الذي عالجه «صلح الحديبية» للتبادل بين المشركين والمسلمين على الأساس الذي قرّره هذه الآية، إنما كان «مخصوصاً بذلك الزمان، وفي تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة» (والله عليم حكيم).

أما الطريقة التي كان يتم بها امتحان المومنات المهاجرات اللاتي يفارقن أزواجهن من المشركين، رغبةً في الهجرة مع المسلمين، فهي فيما وصفه قتادة: «أَنْ يُسْتَحْلَفْنَ بِاللَّهِ مَا أَخْرَجَكُنَّ النِّسْوَةَ، وَمَا أَخْرَجَكُنَّ إِلَّا حُبُّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَحِرْصٌ عَلَيْهِ»، فإذا قلن ذلك قبل منهن، وفيما وصفه عكرمة يُقال لها: «مَا جَاءَ بِكَ إِلَّا حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَا جَاءَ بِكَ عَشْقُ رَجُلٍ مِنَّا، وَلَا فِرَارٌ مِنْ زَوْجِكَ»، فإذا قالت ذلك قبل منها. وفيما وصفه مجاهد: «أَنْ يُسَأَلْنَ عَمَّا جَاءَ بِهِنَّ، فَإِنْ كَانَ بِهِنَّ غَضَبٌ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، أَوْ سَخَطَةٌ، أَوْ غَيْرَةٌ، وَلَمْ يُؤْمَنَّ أَرْجِعْنَ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ».

وتحدث كتاب الله عن حالة ما إذا لم يكن بين المسلمين والمشركين أيُّ عهد خاص، وذهبت امرأة من طرف المسلمين إلى المشركين، ورفض المشرك الذي تزوجها أن يردَّ إلى زوجها المسلم السابق ما كان قد دفعه زوجها المسلم من صداق، فهنا يقوم المسلمون أنفسهم بتعويض أخيهم المسلم عن المهر الذي كان قد دفعه لها، وذلك إما من الفيء، أو من الغنيمة، أو مما فضل بأيدي المسلمين من مهور أزواج المشركين، وإلى الحكم بتعويض المسلمين لأخيهم المسلم عن مهر زوجته التي ذهبت إلى الكفار يشير قوله تعالى مخاطباً للمؤمنين: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾، أي: من المؤمنين، ﴿مَثَلُ مَا أَنْفَقُوا﴾، أي: مثل ما انفقوه على أزواجهم من قبل، قال الزُّهري في بيان سبب نزول هذه الآية: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَقْرَبُوا بِحُكْمِ اللَّهِ، فَأَدَّوْا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ

نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، لكنَّ المشركين أبوا أن يُقرُّوا بحكم الله فيما فرَضَ عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله تعالى للمؤمنين به: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ﴾ الآية، وعقَّبَ كتاب الله على هذه الأحكام بما يفيد وجوب تطبيقها والعمل بها في الظروف الخاصة التي شرعت فيها، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قال ابن عطية: «هذه الآية كلها قد ارتفع حكمها»، وكلمة «فعاقتهم» في هذه الآية هي من قولهم: «عاقب الرجل صاحبه في كذا» أي: جاء فعل كل واحد منهما يعقَّب فعل الآخر.

وبمناسبة الحديث عن حرص المسلمات على مفارقة دار الشرك والالتحاق برسول الله ﷺ في «دار الهجرة» وما نصَّ عليه كتاب الله من امتحانهن لمعرفة الأسباب الحقيقية التي دفعتهن إلى القيام بالهجرة جاء كتابُ الله بآية «المبايعة» التي تُحدِّد شروطها، فكان رسول الله ﷺ يمتحِنُ بهذه الآية مَنْ هاجر إليه من المومنات، قالت عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري: «فَمَنْ أقرَّ بهذا الشرط من المومنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك كلاماً، ولا والله ما مسَّتْ يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يُبايعهن إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك»، وهذا لفظ البخاري في الصحيح. وإلى هذه المبايعة وشروطها يشير قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ

لَهُنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ .

فقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُنَكَ﴾ ، يعني من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها على أن لا يُشركن بالله شيئاً الآية .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْرِقَنَّ﴾ ، أي: لا يسرقن أموال الغير، وللزوجة إذا كان زوجها مُقَصِّراً في نفقتها أن تأكل من ماله بالمعروف، في حدود ما جرت به العادة بالنسبة لأمثالها، وإن كان ذلك من غير علمه، عملاً بقوله ﷺ لهند بنت عُتْبَةَ التي اشتكت إليه شُحَّ زوجها وتقصيره في نفقتها: «خُذِي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك»، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ ، أي: لا يقتلن الأولاد بعد ولادتهم كما كان يفعل بعض أهل «الجاهلية» وكذلك الأمر بالنسبة للجنين، فلا يسوغ لهن التسبب في قتله بالإجهاض ونحوه .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهْتِنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ ، أي: لا يُلْحِقْنَ بأزواجهن، ولا ينسبن إليهم أولاداً غير أولادهم . روى أبو داود في سننه عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِّنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ احْتَجَبَ اللَّهُ مِنْهُ، وَفَضَحَهُ عَلَى رِءُوسِ الْأُولِينَ وَالْآخِرِينَ» .

وقوله تعالى في ختام شروط البيعة: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، أي: لا يعصينك فيما أمرتَهن به من معروف ونهيتَهن عنه من منكر. قال ميمون بن مهران: «لم يجعل الله طاعته لنيه إلا في المعروف، والمعروف طاعة».

ومن المناسب أن نقف وقفة خاصة عند هذا الشرط الذي يعتبر أحد قواعد الدستور الإسلامي الخالد، فهو يستلزم بالأصالة طاعة الرعية لإمامها، ويستلزم بالتبعية استجابة الإمام لرغبة رعيته فيما يَأْتِمِرَان به معاً، من معروف يتفق مع أحكام الشريعة وأصول الملة وشعائر الدين، فالإمام المسلم والأمة الإسلامية إنما يُنظَّمَان علاقتهما بمقتضى شريعة الله، إذ لا حكم عليهما لسواه، ومصدر السلطات بالنسبة للمسلمين هو شرع الله الذي جاء به الرسول، وإمام المسلمين نائبٌ عنهم في حراسته والحفاظ عليه، فإذا عَرَضَ لهم أمر لا نصَّ عليه فيما جاء به الرسول استنبطوا له حكماً شرعياً يوافق ما جاء به.

وفي مثل هذا السياق يستدل كثير من الناس بقوله تعالى في سورة «الحشر» من الربع الثاني في هذا الحزب^(٧): ﴿وَمَا آتَيْكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، فيحملون هذه الآية على معنى أنه مهما أمركم الرسول بأمر فافعلوه، ومهما نهاكم عن أمر فاجتنبوه، كما فسرهما ابن كثير، اعتماداً على تأويل عبد الله بن مسعود، بينما هذه الآية وردت بالأصالة في موضوع توزيع «الفيء» الذي أفاءه الله على المسلمين بعد جلاء بني النضير، وما حصل من التأثير عند بعض الأنصار، بعدما وزَّع

رسول الله ﷺ الفَيءِ على فقراء المهاجرين، فعاتبَ اللهَ مَنْ تَأَثَّرَ منهم من ذلك التوزيع، وأمرهم بقبول أي نصيب يُعطيه لهم الرسول من الفَيءِ إن أعطاهم، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾، أي: خذوا ما أعطاكم، كما أمرهم بعدم مطالبته بالفَيءِ إن لم يُعْطِهم شيئاً، وهذا هو معنى: ﴿ وَمَا نَهَيْكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾، إذ «الإمام» مفوض في توزيع الفَيءِ تمام التفويض، وذلك قطعاً لكل نزاع في هذا الشأن، وإلى مثل هذا المعنى ومثل هذا الموقف أشار قوله تعالى في سورة (التوبة): (٥٨): ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ .

ومن هنا نتقل إلى سورة «الصف» المدنية، وإنما أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾، وهذه السورة تبتدىء بتسبيح الله وتنزيهه، على لسان العالم العلوي والعالم السفلي: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾، ثم يتجه الخطاب فيها إلى فريق من المومنين يعدون ولا يقون بوعدهم، ويقولون ولا يلتزمون بقولهم، فينكر عليهم كتاب الله هذا الموقف المتناقض: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . وبينت الآيات الكريمة، للذين كانوا يتمنون الجهاد في سبيل الله قبل أن

يفرض عليهم، أن الوقت قد حان لتحقيق أمنيّتهم، فما عليهم إلا أن يبادروا للتضحية والفداء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ﴾.

وأشار كتابُ الله إلى موسى وعيسى عليهما السلام، ووقوف قومهما منهما موقف الزئغ والعناد: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وسجل كتاب الله بشارة عيسى لبني إسرائيل برسول يأتي من بعده، ويكون هذا الرسول سيحمل اسم «أحمد» وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، كما تحدثت الآيات الكريمة عن الهدى ودين الحق المرسل بهما إلى العالمين.

ووجه كتابُ الله الدعوة إلى المؤمنين ليكونوا أنصاراً لله كما كان الحواريون أنصاراً لله، وأمرهم بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ووعدهم على ذلك بالفوز العظيم، وبنصر من الله وفتح قريب: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وختِم هذا الربع بوعدٍ من الله لا يتخلف، عما سيؤول إليه أمر الإسلام والمسلمين من ظهور وانتشار، في مختلف القارات والأقطار، ﴿فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

الربع الأول من الحزب السادس والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ② وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمَلُوا بِهَا كَمَثَلِ الْجَارِ يَجْمَلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑤ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْتُمْ وَاَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑥ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ⑦ قُلْ إِنْ أَلْمُوتَ الَّذِي تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ وَمُلَقِيكُمْ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى

عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ
وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ
الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ
كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ طُغْيًا أَوْ طُغْيًا أَوْ طُغْيًا
قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ مِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا
أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُحِبُّكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا
تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَانَتْهُمْ قَشْبٌ مُسْنَدَةٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ
عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ الْبَنِي يُوفُكُونَ ﴿٤﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُوا
رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ وَأَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ
تَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾
هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ
حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۗ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ
لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۗ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ وَلِرَسُولِهِ
وَاللُّومِينَ ۗ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

الربع الأول من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في فاتحة سورة «الجمعة» المدنية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، إلى قوله جلّ علاه في سورة «المنافقين» المدنية أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفاتحة هذا الربع التي هي بداية «سورة الجمعة» تنطق بحقيقة كونية رائعة، ألا وهي اعتراف جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، علوّيها وسفليها، بالوهية الحق سبحانه وتعالى وربوبيته، وعبوديتها له، وافتقارها إليه، إذ هو سبحانه «مالك» أمرها، والمتصرف فيها على الحقيقة في كل حين، وهو سبحانه المتصف بجميع صفات الكمال، «والمقدس» عن النقائص والمنزه عنها على اختلاف أنواعها، وهو سبحانه «العزیز» الذي يخضع له، ويضطر إلى طرُق بابيه، والتمرغ على أعتابه، أشد الخلق

سطوة، وأكثرهم قوة، فضلاً عن الضعفاء والمستضعفين، وهو سبحانه «الحكيم» في جميع تصرفاته الكونية، وكافة أحكامه الشرعية، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

ثم تحدث كتابُ الله ممتناً على المسلمين الأولين، الذين اختارهم الله لتلقي رسالة الإسلام ونقلها إلى العالمين، فبعد ما كانوا محرومين من نور الله، يعيشون في صحرائهم منعزلين على هامش الحياة، وبعدها ظلوا فترة طويلة «أميين» محرومين من الوحي والرسالة، أكرمهم الله برسالة سيدنا محمد عليه السلام، وأنزل الله عليه «الذكر الحكيم» ليكون دستور الإنسانية وقانونها العام، وبيّن الحق سبحانه أن كتاب الله إنما أنزله ليؤدي مهمتين اثنتين في وقت واحد، فهو من جهة: كتابٌ يُعلّمُ الإنسانية ما لم تكن تعلم، إذ ينقذها من الجهل والضلال، وهو من جهة أخرى: يُزكّي الإنسانية، إذ يهذب أخلاقها ويطهرها من تقاليد الجهالة والفساد، وبذلك كانت مهمة القرآن الكريم مهمة مزدوجة: مهمة تعليمية تثقيفية، ومهمة أخلاقية تربوية، وبفضله تكونت المدرسة الإسلامية المثالية، الجامعة بين تثقيف الفكر وتهذيب النفس، على أساس من التناسق والتكامل والانسجام، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ولا بد من لفت النظر إلى حكمة يتضمنها قوله تعالى هنا:

﴿وَيَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، فقد جاء اللفظ الدال على التزكية «ويزكيهم» مقدماً، بينما اللفظ الدال على التعليم «ويعلمهم» جاء مؤخراً، والسرف في ذلك - والله أعلم - أن الإسلام يهتم بتربية النفس وتهذيب الأخلاق في الدرجة الأولى، ويهتم بثقيف العقل وتوسيع معلوماته في الدرجة الثانية، بحيث إذا خيّر الإنسان بين علمٍ واسعٍ مع خلُقٍ فاسدٍ، وعلمٍ محدودٍ مع خلُقٍ فاضلٍ، كانت الأولوية لمكارم الأخلاق ولو مع قليل من العلم، لا لكثرة العلم مع فساد الأخلاق، إذ فساد الأخلاق يُضيّع ثمرة العلم، ويجعل صاحبه أخطر من الجاهل بالمرة.

وقوله تعالى هنا: ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، إشارةً إلى ما أكرم الله به هذه الأمة، فقد آتاها (الكتاب)، وبالكتاب أخرجها من «الأمية»، كما آتاها (الحكمة)، وبالحكمة أخرجها من «الجاهلية».

وقوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، امتنانٌ خاص على العرب، فبفضل رسول الله وخاتم رسله أصبحت الأمة العربية ذات مكانة خاصة بين الأمم، وبفضل الإسلام الذي كان العرب أول من حمل لواءه قام العرب بدور بارز في تاريخ الإنسانية يَغِطُّهم عليه أكثرُ الأمم، وبفضل القرآن الكريم الذي نزل «بلسانٍ عربي مبين» أصبحت اللغة العربية لغة الدين والعلم والحضارة في دنيا الإسلام الواسعة.

ثم أشار كتاب الله إلى الأجيال الإسلامية القادمة بعد الجيل الإسلامي الأول من عرب وعجم، ومن كافة الأمم، وهي

الأجيال التي ستتلقى شُعلة الإسلام من أيدي العرب، لتُنير بها أرجاء العالم عبر القرون، فقال تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾. قال مجاهد: «هم الأعاجم وكلُّ من صدَّق النبي ﷺ من غير العرب». وأشار ابن كثير إلى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي في شأن نزول سورة «الجمعة» على رسول الله، وفيها هذه الآية، ثم قال: «ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، ودليل على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلى أتباع ما جاء به».

وعقَّبَ كتابُ الله على هذا الموضوع كله بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، فهو سبحانه ذو «العزة» التي لا تضام، و«الحكمة» التي لا ترام، وهو المتفضل على خلقه، يمنح فضله لمن يشاء، فنبوة سيدنا محمد ﷺ، من فضل الله عليه، واختيارُ المسلمين الأولين لحمل الرسالة وتبليغها إلى غيرهم من الأمم، من فضل الله عليهم، وتقديرُ الله في أزله هدايةَ الأجيال القادمة من مختلف الشعوب، ودخولها في الدين الحنيف، من فضل الله عليها، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وضرَبَ كتابُ الله المَثَل للمسلمين بما وقع لبني إسرائيل، حيث أنزل الله التوراة على نبيهم موسى عليه السلام، وبدلاً من أن يحافظوا عليها، ويعملوا بمقتضاها، ويتفادوا تحريفها، ضيَّعوا

أمانتها، ولم يحملوها على الوجه المطلوب، بل حرفوها وألوهها طبقاً للهوى المتبع والرأي المرغوب، وكتاب الله بذكره للتوراة وما أصابها من الإهمال، وإشارته إلى العوامل التي قضت على كثير من أحكامها بالإبطال، يريد أن يحذّر المسلمين من الوقوع في نفس الغلط وارتكاب نفس الهفوة، بالنسبة للقرآن الكريم، ويريد أن يحضهم على التمسك بكتاب الله وشريعته قولاً وفعلاً، وعلى حمل أمانته باستمرار، وحفظه والمحافظة عليه جيلاً بعد جيل، وذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ومن هنا أتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، يُلقنه ما ينبغي أن يرُدَّ به على بعض دعاوى اليهود، فقد كانوا يفخرون على غيرهم بأن الله يخصهم بالحب والموالاة دون بقية الناس، وهذه الدعوى تقتضي أن يحرصوا على مفارقة الحياة الدنيا بسرعة، وأن يحبوا الموت العاجل، رغبةً في لقاء الله، حتى يتمتعوا في الآخرة برضوان الله، لكنهم على العكس من ذلك يفرّون من الموت، ويكرهون لقاءها والتعرض لها، بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وهم «أحرص الناس على حياة»، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ .

وانتقل كتابُ الله إلى تععيد قاعدة أساسية من قواعد الإسلام، وتأسيس أصل عظيم من أصول الدين، ذلك أن الدين الإسلامي دين توازن وتوسط واعتدال، لا يُرَجِّح جانبَ الروح على حساب المادة، ولا جانبَ المادة على حساب الروح، بل يُعْطِي لكلا الجانبين حَقَّهُما المشروع، وَيَحُضُّ المومن على أن يعمل لينال في الدنيا حسنة، ويعمل لينال في الآخرة حسنة. وهذا المعنى واضح كل الوضوح فيما دعا إليه كتاب الله من إيقاف البيع عند النداء لصلاة الجمعة، والسعي إلى ذكر الله مع جمهرة المومنين المصلين، ثم ما دعا إليه من الانتشار في الأرض، وابتغاء فضل الله عند الانتهاء من صلاة الجمعة، وبذلك جمع كتابُ الله بين مصلحة المومن المادية وحاجته الروحية، دون إجحاف بأيٍّ واحد منهما، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾، ولذكر «الجمعة» وصلاتها في هذه الآية سميت السورة «سورة الجمعة»، والمراد بقوله تعالى هنا: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾: أي تَأَهَّبُوا لصلاة الجمعة واهتموا بالسير إلى حيث تقام، قال ابن كثير: «وليس المراد بالسعي هنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (الإسراء: ١٦)، فأما المشي السريع إلى

الصلاة فقد نُهي عنه، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَاْمْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَاتِمُوا».

وبهذه المناسبة عاتب الله فريقاً من المومنين كانت لهم علاقات تجارية مع قافلة لدحية بن خليفة وصلت المدينة، والرسول ﷺ يخطب على المنبر، واستعملت الطبول لإعلام زبائها، فتركوا رسول الله قائماً يخطب على المنبر، وذهبوا لقضاء مصالحهم خشية الفتور، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا اِنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا﴾، أي: تركوك قائماً تخطب الناس، ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجْرَةِ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

والآن وقد ختمنا بفضل الله سورة «الجمعة» المدنية نتقل لتفسير سورة «المنافقين» المدنية أيضاً، مستعينين بالله، وإنما أطلق عليها هذا الاسم، أخذاً من آيتها الأولى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنِفِقُونَ﴾. ففي مطلع هذه السورة يتحدث كتاب الله عن تصريحات المنافقين وأقوالهم المعسولة: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُؤْمِنِفِقِينَ لَكَذِبُونَ﴾، كما يتحدث عن الأيمان المغلظة والفاجرة التي يكثرون منها، تدعيماً لأحاديثهم، وتأييداً لدعاويهم، وتغطيةً لمواقفهم، وعصمةً لدمائهم وأموالهم، إذ أنهم يُحسِنون من أعماق قلوبهم شكَّ الناس فيهم وفي دعاويهم، فقد «كاد المُريب

أن يقول خذوني» كما يقول المثل العربي .

ووصف كتابُ الله ما يكون عليه المنافقون عادةً من حسن الهدام وذلاقة اللسان، وما يكونون عليه أيضاً من جبن وهلع، وخوف وفزع، إذ أنهم يخشون الفضيحة ويتوقعونها دائماً: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾، ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾، ثم عقب كتاب الله على ذلك بتحذير رسول الله والمومنين من طائفة «المنافقين» التي هي أخطر من الكفار والمشركين، فقال تعالى ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُوفَكُونَ ﴾ .

وبين كتابُ الله ما عليه «المنافقون» من صلف وكبر، وما يقومون به من تشييط العزائم، وبث روح الهزيمة في نفوس المومنين، حتى لا يبرأوا بإخوانهم الفقراء الملتفين من حول الرسول عليه السلام، وحتى يكفوا عن بذل أموالهم في سبيل الله، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَأَ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ . لكن الحق سبحانه وتعالى ردَّ على المنافقين وسقَّ رأيتهم، وعطلَّ تدبيرهم، وأكد أن الوقع الذي يتوقعونه من دعاياتهم ودسائسهم لن يكون له أيُّ تأثير، بالنسبة إلى خزائن الله الواسعة، التي لا هيمنة عليها، لا لهم ولا لغيرهم من الناس، وما دامت رسالة الإسلام ودعوته مؤيدةً من عند الله، فاللهُ تعالى قد تكفل بإمدادها على الدوام، وذلك قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ . كما تكفل الحق سبحانه
بإعزازها وإذلال خصومها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين
في المصحف الكريم

يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَأْمَوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۖ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٠﴾
وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ
الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ
فَأَصَدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥١﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ
نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ
الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ
كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ۗ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٥٥﴾
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۗ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا
 مِنْ قَبْلُ فذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ
 بِأَنَّهُ وَكَانَتْ تَأْيِيهِمْ رُسُلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرٌ يهْدُونَنَا
 فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
 لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَأَمِنُوا
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾
 يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا
 يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
 فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ
 مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى
 رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فليتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ
 عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
 وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ
 وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ
 يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ
 قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ
 حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة «المنافقين» المدنية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ونهايته قوله تعالى في ختام سورة «التغابن» المدنية أيضاً: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

في بداية هذا الربع تواجهنا آية كريمة تلفت نظر المومنين إلى أن خطة الاعتدال والتوسط هي أرشد خطة يسلكها المومنون، بالنسبة لأداء الحقوق والواجبات، بحيث يؤدّون حقوق الله كما يؤدّون حقوق أنفسهم وحقوق أهلهم وحقوق عامة الناس دون إفراط ولا تفريط، وبناءً على هذا الأساس لا ينبغي للمومنين أن تلهيهم أموالهم، أو يلهيهم أولادهم عن حقوق الله، فيهملوها ويضيعوها، بدعوى أن مشاغلهم المالية أو العائلية لا تترك لهم وقتاً للتفكير في أداء هذه الحقوق، وإذا كان الإسلام يعتبر للإنسان على نفسه حقاً، ولأهله وأولاده عليه حقاً، ويشجّعه على الوفاء بهذه

الحقوق، بل يطالبه بها إن قصر فيها أو أهملها بالمرة، فإنه لا يسمح للمسلم أن يسلك مسلك «الإفراط» في العناية بحقوقه الشخصية والعائلية، ويسلك مسلك «التفريط» فيما لله عليه من حقوق، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، فمصَّبُ النهي في هذه الآية وما شابهها ليس هو مجرد العناية بالأموال والأولاد، وإنما مصَّبُ النهي بنص الآية هو الانهماك في الاشتغال بشؤون الأموال والأولاد، إلى حد أن ينسى معه المسلم القيام بواجباته نحو الله، بحيث يستغرق استغراقاً تاماً في حظوظ نفسه وحظوظ عائلته، وفي ترضية شهواته المختلفة دون انقطاع، ويلهيه ماله وولده عن الله.

وانتقل كتاب الله إلى حصص المسلمين مرة أخرى على إيفاق أموالهم في سبيل الله، فقد كانت فريضة الجهاد التي فرضها الله عليهم - وهم بالمدينة - دفاعاً عن حوزة الإسلام ودولته الأولى، فريضة كبرى تحتاج إلى مدد لا ينقطع، وتضحية مستمرة بالأموال والأنفس.

وبيّن كتاب الله أن «خير البر عاجله» وأن الصدقة قبل «حلول الأجل» أضمن منها عند حلوله وأكثر ثواباً، إذ عند «حلول الأجل» لا يبقى أي مجال للانتظار ولا لتدارك ما فات، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ

وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ .

والآن فلنتقل إلى «سورة التغابن» المدنية أيضاً، وقد سميت بهذا الاسم أخذاً من قوله تعالى فيها: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾، وهي آخر السور المبدوءة بتسبيح الله، المعروفة «بالمسبحات» من بين سور القرآن الكريم.

وبعد ما سجلت فاتحة هذه السورة توجّه جميع المخلوقات إلى ربها بالتنزيه والحمد: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، إن لم يكن منها كلها بلسان المقال، فبلسان الحال في كل الأحوال، انتقلت الآيات الكريمة إلى التعبير عن حقيقة طبيعية ونفسية ميّز الله بها الإنسان من بين جميع المخلوقات، ألا وهي تزويده بالاستعداد التام، للاتّجاه نحو الخير إن أَرَادَهُ، والاتّجاه نحو الشر إن رغب فيه، وجعله حراً في اختيار ما يشاء من الهدى أو الضلال، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾، أي أنّ من اختار الكفر منكم كفر، ومن اختار الإيمان منكم آمن، ومن حرية الاختيار التي زوّد الله بها الإنسان نشأت مسؤوليته عن عمله، وجزاؤه خيراً إن عمل خيراً، وشرّاً إن عمل شرّاً. أما من ناحية الخلق والتكوين فقد خلق الله الإنسان متساوياً مزوّداً بنفس الملكات اللازمة، ونفس الأجهزة الضرورية، وله بعد ذلك أن يختار، وعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره في الدنيا وفي الآخرة، وقد جاء التعقيب المناسب على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾،

أي: أنه سبحانه يُحصي أعمالكم، ويراقب اختياراتكم، ثم يجازيكم عليها بما أنتم أهل له.

وعاد كتاب الله إلى التذكير بقدرة الله، والتنويه بحكمته، المتجلية في خلق السماوات والأرض، وفي تصوير الإنسان على أحسن صورة، وفي ذلك تنبيه للإنسان - ولا سيما إذا كان منحرفاً عن الحق - إلى أن يعود إلى الله، ودعوة له إلى أن يتدبر آياته في الآفاق والأنفس، إذ لا فضل عليه لأحد سواه، فهو الذي خلقه أحسن خلق، وصوره أحسن صورة، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وهو الذي يستحق أن يُحمد ويُشكر ويُعبد ولا يُكفر، لا سيما وأن منه كان البدأ، وإليه ستكون العودة، وذلك قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾، يشير بالأصالة إلى تكوين الخليفة الإنسانية وصنعها في حد ذاتها، وإلى هندستها الفريدة بين المخلوقات، وإلى ما ميزها الله به من أجهزة ووظائف وخصائص جعلت الإنسان عموماً «سيد الأحياء» المتفوق عليها جميعاً، ولو كان شكل بعض أفراده دميماً وغير جميل، فجمال الخليفة الإنسانية، وكمال التركيب الإنساني لا يختلِفان، بالنسبة لغيره من الحيوانات غير الناطقة، وإن كانت أشخاص الإنسان تتفاوت بعضها عن بعض في نسبة الجمال والتناسب.

ثم وضَّح كتابُ الله أنَّ علم الخالق سبحانه محيط بجميع

خَلَقَهُ، بحيث لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه مطلع على ظواهر الناس وبواطنهم دون أي فرق ولا استثناء، وبذلك لا يستطيع الإنسان - وإن أسرَّ ما في نفسه، وأخفى ما في صدره - أن يتملَّص من رِقابة الله، أو أن يتخلص من عين الله التي تراه «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فما على المومن إلا أن يحسب الحساب لِرِقابة الله عند كل خطوة يخطوها نحو الخير أو الشر، وأن يُقدِّر نتائج عمله وعواقبه كل التقدير، وإلى هذا المعنى يُنبِّه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وذكرَ كتابُ الله مشركي قريش ومن لَفَّ لَفَّهُم بمصرع الأمم الغابرة التي تمردت على طاعة الله، وتنكرت لأنبيائه ورسله، واستكثرت على أفراد من البشر يعيشون بين ظهرانيتها أن يختارهم الله لرسالته، بدلاً من إرسال ملائكته، فأُنْفَت من طاعتهم، واستكبرت عن اتِّباعهم، فعاقبها الله بالخبال والوبال، وقضى عليها بالخراب والدمار، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ بَأنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرُ يَهُدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أي: استغني عنهم، ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

وكتابُ الله عندما يُدَكِّر مشركي قريش بهذه الحقائق والوقائع يريد أن يُبطل اعتراضهم على رسالة سيدنا محمد ﷺ، فاعتراضهم هو من جنس اعتراض الأمم الغابرة التي أصبحت في خبر كان، ولو حققوا في الأمر لأدركوا أن الرسالة المحمدية

ومسبقها من الرسائل إنما هي كرامة من الله للجنس البشري الذي استخلفه في الأرض، وحمله أمانة «التكليف»، وإذا كان الحق سبحانه قد أوجد الإنسان من العدم، ونفخ فيه روح الحياة الناطقة، التي ميزه بها على بقية الأحياء، فما المانع أن يختار من بين خلقه من يؤهلهم لاستقبال رسالته، وتلقيها من الملائكة الأعلى، ثم حملها وتبليغها إلى كافة الناس: ﴿إِلَهُهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

وأثار كتاب الله من جديد قضية «البعث والنشأة الآخرة» ورداً على مزاعم المشركين والكافرين، المنكرين لهذه الحقيقة الثابتة، مبيناً أن «النشأة الآخرة» في منطق العقلاء هي أيسر وأقرب من «النشأة الأولى» لو كانوا يعقلون.

قال ابن كثير: «أمر الله رسوله أن يُقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده في ثلاث آيات من كتاب الله:

- الآية الأولى في سورة (يونس: ٥٣): ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

- والآية الثانية في سورة (سبأ: ٣): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

- والآية الثالثة هنا في سورة التغابن: ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وبعد قسم الرسول ﷺ بربه على تأكيد أمر البعث ثلاث

مرات في ثلاث سور لا يبقى محل لأي تأكيد آخر.

ووجه كتاب الله خطابه إلى المومنين ليزدادوا إيماناً بالله ورسوله، وليستضيئوا بالنور الذي نزل معه، وهو «نور القرآن»، فهو في حقيقته نور منبثق من نور الله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥)، وهو في آثاره الظاهرة والباطنة نور لا يعادله أي نور، فيه تُشرق القلوب، وتنشرح الصدور، وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، ويتصل بهذا المعنى قوله تعالى في هذا الربع وفي هذه السورة أيضاً: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وانتقلت الآيات الكريمة للحديث عن يوم القيامة، وما يناله فيه المومنون «المصدّقون»، والكافرون «المُكذّبون» وبين كتاب الله أن «يوم الجَمع» هو «يوم التغابن» وسُمي يوم القيامة «يوم الجَمع» لأنه سيُجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، من جميع الأجيال ومن جميع الخلائق. بما فيهم ملائكة الرحمان، وسُمي يوم القيامة أيضاً «يوم التغابن» نظراً لأنه يفوز فيه فريق بدخول دار النعيم، ويخسر فيه فريق بدخول دار الجحيم، فالخاسر «مغبون» بالنسبة للفائز، ولا أمل له في الرجوع «بالغبين» أبداً. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾.

وكما ابتدأت الآيات في هذا الربع بحض المومنين على

عدم الاستغراق في الشؤون الشخصية والعائلية، إلى حدّ أن تَضِيعَ معه حقوق الله، التي لا يسوغ التفريط فيها، إذ قال تعالى فيما سبق: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، عادت الآيات الكريمة إلى الحديث في آخر هذا الربع عن نفس الموضوع، فبيّنت أن تكاليف الزوجات والأولاد، ورغباتهم وشهواتهم، قد تُعَرِّضُ الزوج والوالد إلى التفريط في حقوق الله، أو تدفعه إلى الاعتداء على حقوق الناس، وذلك حرصاً منه على تلبية رغبات عائلته وخدمة مصالحها، وبذلك تنقلب الزوجة «عدوّاً» لزوجها، وينقلب الأولاد «أعداء» لوالدهم، إذ يُورِطونه فيما لا تُحمد عقباه، مع الناس ومع الله، ويوقعونه في مآزق لا مخرجَ له منها إن لم يصحبه لطف الله، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وهذا تنبيه من الله للزوجات والأولاد، حتى لا يُكثِرُوا من الضَّغْطِ على الأزواج والوالدين، إذ ربّما دفعهم ذلك الضغط إلى ارتكاب ما لا يرضى عنه الخلق والدين، ﴿وَالْعُقُوبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ
إِلَّا أَنْ يَتَّيَّنَ بَفِحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ
اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَذَرِهِ لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ
أَمْرًا ① فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ
ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ
اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرُهُ وَقَدْ جَعَلَ
اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ③ وَاللَّيْلُ يَبْسُتُ مِنَ الْمَيْضِ مِنْ فِسَائِكُمْ وَ
إِنْ إِرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّيْلُ لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ

أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ⑤
 ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ وَإِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ
 لَهُ وَاجْرًا ⑥ اسْكُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا نضَارُوهُنَّ
 لِنَضِيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنْ أُولَتْ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ
 حَمَلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَاتَمِّرُوا رَبَنَّهُمْ بِمَعْرُوفٍ ⑦
 وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَزْضِعْ لَهُ وَآخِرَى ⑧ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ
 وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْفِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً
 آبِئْهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ⑨ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا
 وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بَنَاهَا عَذَابًا نَكِرًا ⑩ فَذَاقَتْ
 وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا ⑪ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
 فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ⑫
 رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُدْخِلْهُ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ وَرِزْقًا ⑬ إِنَّ اللَّهَ
 الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ⑭

الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، وهذا الربع يستغرق بتمامه سورة «الطلاق» المدنية من بدايتها، وهي قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، إلى نهايتها، وهي قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

أكثر ما يدور عليه الحديث في هذا الربع من كتاب الله المحتوي على سورة «الطلاق» المدنية هو بيان أحكام الله في الطلاق وتوابعه، اهتماماً بشؤون الأسرة الإسلامية، وحرصاً على ضمان حقوق أعضائها في مختلف الظروف، وقد وُجّه الخطاب في أول هذه السورة إلى النبي ﷺ بصفته المسلم الأول والرئيس الأعلى للأمة الإسلامية جمعاء، فقال تعالى في بداية الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ثم وُجّه الخطاب بعده مباشرة إلى أمته: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ الآية، والشأن في خطاب الله

الموجّه إلى رسوله أن يكون شاملاً له ولأمته، كما يكون خطابُ الله الموجّه إلى الأمة شاملاً لها وللرسول، إلا فيما اختصّ به الرسول عليه السلام من «الخصائص».

وقوله تعالى هنا: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾، أمرٌ من الله للزوج المسلم إذا اضطر إلى طلاق زوجته بأن لا يُطلقها وهي حائض، وإنما يُطلقها بعد أن تطهر من الحيض، وتكون في طهر لم يباشرها فيه بالمرّة.

رَوِي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾، أنه قال: «لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، لكن يتركها، حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطلقاً»، أي: واحدة، وقال عكرمة: «لا يطلقها وقد طاف عليها، ولا يدري حُبلى هي أم لا».

قال ابن كثير: «ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق «سنة» وطلاق «بدعة». «فطلاق السنة» أن يطلقها طاهرة من غير جماع، أو يطلقها حاملاً قد استبان حملها، و«البدعي» هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا. وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة، والأيسة، وغير المدخول بها».

وقوله تعالى: ﴿ وَأَحْضُوا الْعِدَّةَ ﴾، أمر بإحصاء أيام «العدّة» لمعرفة بدايتها ونهايتها، حتى لا يقع الغلط بالزيادة، فتطول مدتها على المرأة، ويتأخر زواجها من الغير، أو بالنقص، فتقصر مدة

العِدَّة، وتزوّج المرأة قبل انتهاء أمد العِدَّة المحدود. وتوكيداً لِمِثَالِ هَذَا الْأَمْرِ وَالتَّدْقِيقِ فِي تَنْفِيزِهِ عَقَّبَ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، أَي: التَّزَمُوا تَقْوَى اللَّهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ، وَلَا تُعَرِّضُوا أَمْرَهُ لِلْإِهْمَالِ أَوْ لِلْإِبْطَالِ.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾، يَقْتَضِي أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ فَلَيْسَ لَهُ الْحَقُّ فِي أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ بَيْتِهِ مَا دَامَتْ فِي عِدَّتِهَا، إِذْ هِيَ «مَعْتَدَةٌ» مِنْهُ بِالْخُصُوصِ، وَبِذَلِكَ كَانَ لَهَا عَلَى الزَّوْجِ الْمَطْلُوقِ حَقُّ السَّكْنَى، وَاخْتِيَارُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِاسْتِعْمَالِ لَفْظِ «بُيُوتِهِنَّ»، بَدَلًا مِنْ اسْتِعْمَالِ لَفْظِ «بُيُوتِكُمْ» تَأْكِيدًا لِلنَّهْيِ عَنِ إِخْرَاجِهِنَّ، وَإِشَارَةً إِلَى أَنَّ حَقَّ الزَّوْجَةِ فِي السَّكْنَى لَا يَزَالُ قَائِمًا بِحُكْمِ «الِاسْتِصْحَابِ» وَمَا دَامَتْ الْمَرْأَةُ مَعْتَدَةً فَإِنَّهَا تَعْتَبَرُ كَأَنَّهَا فِي بَيْتِهَا، وَكَمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلزَّوْجِ إِخْرَاجُهَا مِنَ الْبَيْتِ، فَإِنَّهَا لَا يَجُوزُ لَهَا أَيْضًا الْخُرُوجُ مِنْهُ، صِيَانَةٌ لِحَقِّ الزَّوْجِ أَيْضًا، رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا السَّكْنَى وَالنَّفَقَةُ لِلْمَرْأَةِ إِذَا كَانَ لَزُوجِهَا عَلَيْهَا رَجْعَةٌ» الْحَدِيثُ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾، يَقْتَضِي أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تُخْرَجُ مِنْ بَيْتِهَا إِلَّا إِذَا ارْتَكَبَتْ فَاحِشَةً مُبَيَّنَةً، وَ«الْفَاحِشَةُ الْمُبَيَّنَةُ» تَشْمَلُ الزَّانَا كَمَا قَالَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَمِنْ وَافِقَهُمَا، وَتَشْمَلُ مَا إِذَا نَشَزَتِ الْمَرْأَةُ، أَوْ بَدَّتْ عَلَى أَهْلِ الرَّجُلِ وَأَدَّتْهُمْ فِي الْكَلَامِ وَالْفِعَالِ، كَمَا قَالَهُ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَعِكْرَمَةُ، وَمَنْ وَافِقَهُمَا، وَحَمَلَهَا ابْنُ عَمْرِو عَلَى «خُرُوجِ الْمَرْأَةِ مِنَ الْبَيْتِ بِغَيْرِ حَقِّ».

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، يقتضي وجوب احترام المسلمين لشرائع الله كما شرعها، وعدم انتهاككم لحُرُماته كما يقتضي تحذيرهم من الخروج عنها، وترك الإثمَار بها، لأنَّ في الخروج عنها وعدم احترامها إضراراً من الإنسان بنفسه قبل غيره، فمن أهمل جزءاً من الشرائع ولو قلَّ، احتاج إليه ولم يجده، وصدق عليه المثلُ العربي: «على نفسها جنت براقش».

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أُمراً﴾، إشارة إلى الحكمة التي توخاها الشارع في إبقاء المرأة المطلقة خلال مدة العِدَّة ساكنة في منزل الزوجية، وحيث «أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق» كما قال ﷺ فقد شرع الله العِدَّة عقب وقوع الطلاق، وألزم الزوج بإبقاء زوجته المطلقة في بيتها خلال مدة العِدَّة، عسى أن يندم الزوج على طلاق زوجته، ويُلقِي الله في رُوعه الرغبة في ارتجاعها، فيكون أمر ارتجاعها أيسر وأسهل، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿أُمراً﴾ في الآية، وهو دليل واضح على كراهة الإسلام للطلاق وعدم تشجيعه عليه، وتهيئته الجوّ الصالح للندم، والعودة إلى الحياة الزوجية العادية، روي عن فاطمة بنت قيس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أُمراً﴾، قالت: «هي الرجعة»، وكذا قال قتادة وعطاء والثوري والشعبي ومن وافقهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، يقتضي أنه إذا «قَارَبَت» المرأة المطلقة وقت

انقضاء عِدَّتِهَا، وعَزَمَ الزوجُ على ارتجاعها وإعادتها إلى عصمته،
 فله الحق في إمساكها بالرجعة، والاستمرارِ بها على ما كانت عليه
 عنده، لكن مع الإحسان إليها في عِشْرَتِهَا وَصُحْبَتِهَا بالمعروف،
 كما أنه إذا أَصْرَ على مفارقتها، ولم يلحقه أَيُّ نَدَمٍ ولا تراجع
 خلال فترة العِدَّةِ فله ذلك، لكن يجب عليه أن يفارقها بالمعروف
 وعلى وجه جميل، دون مُقَابَحة ولا مُشَاتَمة ولا تَعْنِيف ولا ضِرَار.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾، أمر من الله
 بالإشهاد على الرجعة إذا عزم الزوج على ارتجاع زوجته المطلقة،
 وكان عطاء يقول: «لا يجوزُ في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلاَّ
 شاهداً عدل كما قال الله عزَّ وجلَّ، إلاَّ أن يكون من عُذْر» وسئل
 عِمْرَانُ بن حُصَيْنٍ عن الرجل يُطَلِّق المرأة ثم يقع بها، ولا يُشْهِدُ
 على طلاقها ولا على رَجْعَتِهَا فقال للسائل ولعله هو نفس الرجل:
 «طَلَّقْتَ لغير سنَّة، وَرَاجَعْتَ لغير سنَّة، أَشْهِدُ على طلاقها وعلى
 رَجْعَتِهَا، ولا تُعَدُّ».

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَم يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 الْآخِرِ﴾، حضُّ للمؤمنين على احترام ما أَمَرَ اللهُ به من الإمساك
 بالمعروف، والفراق بالمعروف، والإشهاد على الرجعة بعد
 الطلاق، مثل الإشهاد على النكاح حين العقد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ
 حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، حملة عكرمة على أن المراد به «مَنْ طَلَّقَ
 كما أمره الله»، أي: التزم في فراقه لزوجته عند اضطراره لفراقها

مقتضيات الإحسان والمروءة والمعروف، «يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مَخْرَجًا»، وبهذا التفسير جعل عكرمة هذه الآية مرتبطة بنفس الموضوع. ونفسُ هذا الرأي رُوي عن ابن عباس والضحاك. وقال السُّدي: «معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، أي: من يُطَلِّقُ لِلسَّنَةِ، وَيُرَاجِعُ لِلسَّنَةِ، يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مَخْرَجًا» يريد بذلك مَنْ اتَّبَعَ السَّنَةَ فِي طَلَاقِهِ وَفِي رَجْعَتِهِ، وَلَمْ يَحْدُ عَنْهَا مَطْلَقًا. وحمل ابن مسعود هذه الآية على معنى أوسع وأعم فقال: «أن أكبر آية في القرآن فرجاً، هي: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾.»

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَتَّبِعُ السَّنَةَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّذِي لَمْ يَحِضْ﴾، يقتضي أن المرأة إذا يئست من الحيض لكبرها وانقطاع الحيض عنها فإن عدتها إذا طلقها زوجها تنحصر في ثلاثة أشهر، وذلك بدلاً من «الثلاثة قُرُوء» المقررة في حق المرأة التي تحيض، حسبما سبق في سورة البقرة (٢٢٨)، كما أن المرأة الصغيرة التي لم تبلغ سنَّ الحيض إذا كانت متزوجة وفارقها زوجها فإن عدتها تنحصر في ثلاثة أشهر أيضاً مثل عدة الكبيرة الأيسة سواء بسواء.

وقوله تعالى هنا: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾، معناه إن ارتبتم في حكم عِدَّتِهِنَّ ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر، وهذا التفسير مروى عن سعيد بن جبير. قال ابن كثير: «وهو اختيار ابن جرير الطبري، وهو أظهر في المعنى.»

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ

حَمَلَهُنَّ ﴿١﴾، يقتضي أن المرأة المطلقة إذا كانت حاملاً فعِدَّتُهَا تنتهي بمجرد وضع حملها، فالعبرة بوضع الحمل لا غير. قال ابن كثير: «وهذا هو قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نصُّ هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية».

وقوله تعالى: ﴿٢﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ ﴿٣﴾، هذا أمرٌ من الله للأزواج بإسكان الزوجة المطلقة إلى أن تَقْضِيَ عِدَّتُهَا، ومعنى ﴿٢﴾ مِنْ وَجْدِكُمْ ﴿٣﴾، أي: من سَعَتِكُمْ. قال قتادة: «إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه».

وقوله تعالى: ﴿٤﴾ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴿٥﴾، يقتضي منع الرجل من الضغط على المرأة، بُغْيَةً أَنْ تَفْتَدِيَ مِنْهُ بِمَالِهَا، أَوْ بُغْيَةً أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ مَسْكِنِهَا.

وقوله تعالى: ﴿٦﴾ وَإِنْ كُنَّ أُولِي حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ ﴿٧﴾، حمَلُه البعض على المطلقة «طلاقاً بائناً» إذا كانت حاملاً، فَإِنَّ الرَّجُلَ يُطَالِبُ بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهَا حَتَّىٰ تَضَعَ حَمَلَهَا، وإلى هذا التفسير ذهب ابن عباس وطائفة من السلف والخلف. وحملة البعض على المطلقة «طلاقاً رجعيّاً» باعتبار أن السياق كله في الرجعيات.

وقوله تعالى: ﴿٨﴾ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَوَسِّئْنَ لَهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴿٩﴾، يقتضي أنه إذا وَضَعَتِ الْمَرْأَةُ الْمَطْلُوقَةَ حَمَلَهَا فَقَدْ بَانَتْ بِانْقِضَاءِ عِدَّتِهَا، وَلَهَا حِينَئِذٍ أَنْ تُرْضِعَ الْوَلَدَ، وَلَهَا أَنْ تَمْتَنِعَ عَنْ رِضَاعِهِ، لَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُغْذِيَهُ «بِبَاكُورَةِ اللَّبَنِ» الَّذِي لَا قِوَامَ لِلْمَوْلُودِ غَالِباً إِلَّا

به، فإن عاقدت أباه أو وليه كان لها من الأجرة على رضاعه ما اتفقا عليه، وإن لم تعاقداً على ذلك استحققت أجرةً مثلها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى﴾، يقتضي أنه إذا اختلف الرجل والمرأة في أجرة الرضاع فله أن يسترضع لولده غير أمه، لكن إذا رضيت الأم بما يستأجر به غيرها كانت أحق بولدها.

وقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾، أي: ليُنْفِقْ والدُ المولود أو وليه على الولد، بحسب استطاعته وقدرته.

وختمت سورة «الطلاق» بالإشارة إلى عاقبة المكذابين، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسِلَ إِلَيْهَا فَهَاسِبْنَهَا حَسَاباً شَدِيداً وَعَدَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، وبدعوة المومنين إلى تقوى الله والعمل الصالح، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وبوصف ما ينتظر الفريق الأول من العقاب، ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾، وما ينتظر الفريق الثاني من الثواب، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾، وبتذكير المومنين بقدرة الله الواسعة وعلمه المحيط بكل شيء، ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ
وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاجِهِ
حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ
عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا
عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ
بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ وَأَرْوَاجًا
خَيْرًا مِمَّنْ مَسَّامَتِ مُؤْمِنَاتٍ قَتَلْتِ قَتَلْتِ تَبَيَّتِ عِبْدَتِ سَمَّحَتِ
تَبَيَّتِ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ

شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ
 أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِيهِ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَنُورُهُ
 يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ
 لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ
 وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾
 ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا
 تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا
 عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾
 وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ
 رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ
 وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي
 أَحْصَتِ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ
 بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكَتَبْنَا فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾

الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «التحریم» المدنية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، إلى قوله تعالى في ختام نفس السورة: ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكَتَبَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْفَقْتَيْنِ﴾.

وأول ما يلفتُ النظر في هذا الربع أن الآية الأولى منه لها علاقة وثيقة بقوله تعالى في سورة المائدة (٨٧): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾، غير أن الصيغة التي وردت بها في هذا المقام، والسؤال الذي جاء في سياقها، وتوجيه الخطاب بالخصوص فيها إلى الرسول عليه السلام دون غيره، جعلها تكتسي صبغة خاصة، وتتضمن معنى جديداً زائداً على ما في آية «المائدة». وهذا المعنى لا يخرج عن كونه عتاباً رقيقاً من الحق سبحانه وتعالى لنبيه عليه السلام في بعض شؤونه العائلية، وتنبهها خفيفاً إلى الحَلِّ الأمثل في أمره، فقد كان

الوحيُّ الإلهيُّ يتبع خطوات الرسول بالتوجيه والرعاية باستمرار لا فرق في ذلك بين حياته العامة، وحياته الخاصة، وصدق رسول الله عندما قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي».

وكما أدب رسول الله ﷺ زوجاته على ما فاه به بعضهن من الهفوات في حقه أوفى حق شريكاتهن، فاعتزلهن «من شدة موجدته عليهن» ها هو كتابُ الله يدعوه إلى وضع حد لذلك الحادث الطارئ، واستيناف حياته العائلية في وئام وانسجام، بينه وبين زوجاته، وبين زوجاته بعضهن مع بعض، طبقاً لما هو معهود في بيته الشريف.

وليس غريباً من أمر الرسول عليه السلام أن يتأثر شعوره الرقيق من هفوات بعض الزوجات، لما تثيره بينهن من الحساسيات، ما دام عليه السلام هو في وقت واحد «بشراً رسولاً»، وإن كان عند ربه وعند الناس بشراً لا كالبشر، وخاتم الأنبياء والمرسلين، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤). كما أنه ليس غريباً أن يقف كتابُ الله إلى جانب رسوله في هذه الحادثة بالتوجيه والتسديد، ثم بالتأييد المطلق والتعضيد.

وإلى الموقف الذي اتخذته الرسول عليه السلام من الإمتناع عن معايشرة زوجاته، واعتزالهن فترةً من الزمن في مشربة خاصة، يشير قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وإلى السبب المباشر الذي حدا بالرسول إلى اتخاذه هذا الموقف يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَ

النَّبِيِّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٠﴾، ولا يبعد أن يكون لذلك الموقف أسبابٌ أخرى كانت قد أدت من قبل إلى شيء من التوتر بين زوجات الرسول بعضهن مع بعض، فلما طرأ هذا الحادث الأخير رأى رسول الله من الحكمة والحزم أن يقف منه موقفاً حاسماً، ويضع له حداً فاصلاً، حتى لا يتكرر مثله مرة أخرى، وحتى لا يشغله شيء من هذا النوع عن مهام الرسالة العظمى، التي وكلها الله إليه.

أما تأييدُ الله لرسوله ووقوفه إلى جانبه موقف التعضيد، هو وجنوده التي لا يُحصيها إلا هو، فقد فصل كتاب الله القول فيه تفصيلاً، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلْحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾، وفي هذه الآية الكريمة إنذارٌ صريحٌ بعاقبة التجني على رسوله الأمين، واشتباك في الحرب مع الله والملائكة والمؤمنين، ثم قال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنِيَتٍ تَتَّبِعُنَّ عِبَادَاتٍ سَنَحْتِ ثِيَابٍ وَأَبْكَارًا﴾، ففي هذه الآيات الكريمة أيضاً تحذيرٌ صريحٌ، لأمهات المؤمنين، من مضايقة الرسول عليه السلام، وشغله بأمر جانبية يتعذر معها الوثأم والإنسجام، وفيها توجيهٌ خاصٌ لأمهات المؤمنين «الثيبات» منهن والأبكار»، إلى المزيد من التحلي بجميع الصفات الفاضلة التي تتناسب مع مقام زوجات الرسول، من «إسلام» يُهيمن على

الجوارح ، و«إيمانٍ» يعمر القلوب ويشرح الصدور، و«قنوتٍ» يتجلى أثره في الطاعة والخشوع، و«توبةٍ» تدفع إلى تدارك ما فات، والحذر مما هو آت، و«عبادةٍ» تصل المخلوق بالخالق، و«سياحةٍ» بالصوم أحياناً، والتأمل بالفكر والروح في ملكوت الله الواسع، وملكه الشاسع، أحياناً أخرى.

وفي خلال هذه الآيات البيّنات وجّه كتابُ الله الخطاب مباشرةً إلى الزوجتين اللتين كان لهما أثر في إثارة هذا الحادث، يدعوها من الآن فصاعداً إلى تجنّب فلتات اللسان، والتحفّظ في كل ما ينبغي فيه التحفظ والكتمان، حفظاً لذات البيّن بين جميع أمهات المومنين، عليهن الرحمة والرضوان، فقال تعالى مُشِعِراً لهما بوجوب المُبادرة إلى التوبة مما فرط منهما في حق الرسول عليه السلام، وداعياً لهما إلى الاعتصام بحسن الظن وصفاء السريرة على الدوام: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ .

وبعد أن ألقينا بعض الأضواء على الحادث الطارئ الذي أزعج هُنا البيت النبوي الشريف، وجمعنا في نسق واحد الآيات التي أَلَمَّت بجميع أطرافه، وما تضمّنته من توجيهات إلهية خاصة بالرسول الكريم وأزواجه الطاهرات، ننتقل إلى الآيات الكريمة الأخرى، التي لها طابع توجيهي عام لجميع المومنين والمومنات، وذلك قوله تعالى في الآية الثانية من هذه السورة: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، وقوله تعالى في الآية السادسة منها: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، إلى آخر الآية.

ففيما يخص الطريقة المثلى للتحلل من اليمين إذا ظهر عند التدبّر في عواقبه أنّ غيره خيرٌ منه شرعاً وطبعاً ينبغي للمومن أن لا يتأخّر عن فعل ما هو خير، بدلاً مما حلف عليه، وفي نفس الوقت يكفّر عن يمينه، طبقاً لما شرّعه الله في «كفارة اليمين»، تعظيماً لاسم الله الأقدس، الذي وقع الحلفُ به، وعملاً بمقتضى الرعاية الإلهية، والحكمة الربانية، والعلم المحيط بخَلجات النفوس، ﴿ وَاللَّهُ مَوْلِيكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ . وهذه الكفارة هي التي سبق بيانها بالتفصيل في الآية الواحدة والتسعين من سورة «المائدة» حيث قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرْتُهُ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَصِيماً ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وفيما يخصّ المثل الأعلى لتربية النفس والأهل والأولاد دعا كتاب الله الجميع إلى أن يجعلوا بينهم وبين ما يُوجب عقاب الله وعذابه في الدنيا والآخرة وقايةً فعالة وحجاباً منيعاً: ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ ، والأهل يشمل الزوجة والأولاد وما أُحق بهم، والوقاية السابقة خيرٌ من العلاج اللاحق، ووقاية النفس تكون بالسلوك الحسن الذي يقيها من الزلات والعثرات، ووقاية الأهل تكون بحسن توجيههم وتقويم اعوجاجهم، ووقاية الأولاد تكون بحسن تربيتهم، والعمل المتواصل على إعدادهم للحياة الصالحة ديناً ودنيا منذ الطفولة الأولى. قال أبو بكر (ابن العربي)

المعافري: «فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعي للرعية، وكما يؤدّب ولده في مصلحتهم يؤدّب أهله فيما يصلحه ويصلحهم أدباً خفيفاً». وقال أبو بكر الرازي الجصاص: «وهذا يدل على أن علينا تعليم أولادنا وأهلينا الذين والخير، وما لا يُستغنى عنه من الآداب، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٢)، ونحو قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، ويدل على أن للأقرب فالأقرب منا مزية، في لزومنا تعليمهم، وأمرهم بطاعة الله تعالى، ويشهد له قول النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، ومعلوم أن الراعي كما عليه حفظ من استرعى وحمايته والتماس مصلحه فكذلك عليه تأديبه وتعليمه). وبذلك يكون الأزواج والآباء «قوامين» بالمسؤولية الدينية والاجتماعية الملقاة علي عواتقهم خير قيام، وتكون حياتهم الشخصية والعائلية في مأمن من الهزات والأزمات، وإلا حقت عليهم وعلى من يقع تحت ولايتهم كلمة العذاب، في الدنيا قبل الآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤). وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما نحل والدٌ ولداً خيراً من أدب حسن».

ووصف كتاب الله «وقود النار» التي تهدد النفس والأهل والولد بكونه من الناس أولاً، ومن الحجارة ثانياً، كما وصف المكلفين بإيقادها من الملائكة بكونهم «غلاظاً شداداً» على من استحقوا عذاب الله، جزاء تفريطهم في حقوق العباد وحقوق الله،

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

ثم دعا كتابُ الله جميعَ المومنين إلى التوبة مما اقترفوه من الذُّنوب «توبةً نصوحاً»، مُبَيِّنًا لَهُمْ أَنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ فِي وَجُوهِهِمْ دُونَ وَاسِطَةِ أَيِّ مَخْلُوقٍ، فَمَا عَلَيْهِمْ إِذَا أَغْرَاهُمُ الشَّيْطَانُ وَانْخَدَعَتْ لَهُ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ إِلَّا أَنْ يُبَادِرُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَاسْتِحْضَارِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ وَاسْتِغْفَارِهِ، لِيَسْتَأْنِفُوا حَيَاتِهِمْ الْأُولَى، حَيَاةَ الطَّاعَةِ وَالتَّقْوَى وَالتَّخْشُوعِ وَالْإِنَابَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ .

و«التوبة النصوح» فيما قاله العلماء: هي أن يُقْلَعَ المومن عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سَلَفَ مِنْهُ فِي الْمَاضِي، وَيَعَزِمَ عَلَى أَنْ لَا يَفْعَلَ الذَّنْبَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: «التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أَنْ تُبْغِضَ الذَّنْبَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ، وَتَسْتَغْفِرَ مِنْهُ إِذَا ذَكَرْتَهُ». قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «فَأَمَّا إِذَا جَزَمَ بِالتَّوْبَةِ وَصَمَّمَ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا مِنَ الْخَطِيئَاتِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا».

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، هَذَا وَعْدٌ صَادِقٌ مِنَ اللَّهِ

لنبيه وللمومنين، وامتنان عليهم بالنور الإلهي الذي سُبِّحَ عليهم،
فَيُعرفون به من بين الأمم، ويهتدون به وسط الزحام الرهيب يوم
الحشر إلى مَقَرِّهم في جنة الخلد، مُتميِّزين بذلك عن بقية
الخلائق والأمم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيِّ جَهْدِ الْكُفَّارِ وَالْمُنْفِقِينَ وَأَغْلَظْ
عَلَيْهِمْ وَمَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ وَبَيْسَ الْمَصِيرُ﴾، هذا تجديد من الله
لأوامره الصارمة، بمكافحة الكفر والنفاق، ومواجهة الكفار
والمنافقين، بمنتهى الحزم والصرامة، حتى تُقَلَّمْ أظفارهم، ولا
يستطيعوا إلحاق أيٍّ أذىً بالإسلام والمسلمين.

ثم ضربت الآيات الكريمة المثل بنساء كافرات كنَّ في
بيوت الأنبياء، ومع ذلك لم تنفعهن معايشة الأنبياء ولا معاشرتهن
لهم في الخلاص من عذاب الله، لأنهنَّ لم يكنَّ مومناتٍ بالدين
الذي جاء به أولئك الأنبياء، ومثال ذلك امرأة نوح عليه السلام،
وامرأة لوط عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ
كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا
صَالِحَيْنِ فَخَانَتَهُمَا﴾، أي: كانتا على غير دينهما، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا
عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

وضربت الآيات الكريمة المثل بنساء مومنات كنَّ يعشن في
بيوت الكفار، فعاملهنَّ الله بالحسنى، وأكرمهن بالرحمة والغفران،
والجنة والرضوان، دون أن تُؤثِّر في مصيرهنَّ مخالطتهنَّ للكفار،
ولا معاشرتهنَّ لهم، إذ كنَّ مومناتٍ بدين الحق، ولا يشاركن

أولئك الكفارَ في عقيدتهم الباطلة، فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكَتَبْنَا فِيهَا مِنْ الْقِتَابِ ۝ ﴾

ولعلَّ في هذه الأمثال التي ضربها كتابُ الله بالنوع الأول والنوع الثاني من النساء بالخصوص في هذه السورة بالذات، تنبيهاً لأمهات المؤمنين، فضلاً عن غيرهنَّ، إلى ما يجب عليهن من مزيد التَّفاني في طاعة الله ورسوله، وما يلزمهنَّ من البُعد كل البعد عن كل ما يُنغصُّ عليه العيش، أو يجلب له الأذى، حيث أن مجرد القرب من الأنبياء لا يُغني عن القيام بالواجب نحوهم، ولا يشفعُ في إهمال أيِّ حق من حقوقهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الربع الأول من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ فِي أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي
خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ
الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ
الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ
وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⑥ إِذَا الْقُوَافِلُ سَمِعُوا هَاهُنَا
شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ⑦ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ
سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⑧ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا
مَا نَزَلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ⑨ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ
مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑩ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑪

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾
 وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ وَعَلَيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا
 يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
 ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾
 ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ
 مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٧﴾
 وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى
 الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتْ أَيْدِيَهَا وَيَقْبِضْنَ مَا يَمْسُكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ
 شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمْنَ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ
 إِنَّ الْكٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمْنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ
 رِزْقَهُ ۗ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَمْنَ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ
 أَهْدَىٰ أَمْنَ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ
 الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفِيدَةَ ۗ قَلِيلًا
 مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
 صٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي
 كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ وَإِنْ أَهْلَكَنِ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ
 أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يَجْبِرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ الْيَمِّ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ
 الْعَمَّتِيُّ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ وَإِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ
 لَأَجْرًا غَيْرَ مُمْنُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ
 وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَبْيَعِ الْمَفْتُونِ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
 سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِبِينَ ﴿٨﴾ وَدُوا لَوْ
 تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلْفٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ
 بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ
 ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذْ اتَّبَعْتَنِي عَلَيْهِ أَيْتُنَا قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾
 سَنَسِيحُهُ وَعَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا
 لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَشْنُونَ ﴿١٨﴾

الربع الأول من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم هو تفسير الربع الأول من الحزب السابع والخمسين من المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في فاتحة سورة «المُلْك» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه في سورة «القلم» المكية أيضاً: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، وفي هذا الربع سنتناول بحول الله وقوته تفسير سورة «المُلْك» المكية بأكملها، وتفسير جزء من سورة «القلم» المكية أيضاً.

وسورة «المُلْك» تدعو إلى التأمل في الحياة والموت وما وراءهما، وتبعث على التفكير في العالم العلوي، والتأملي من مظاهر الإبداع الإلهي، الماثورة في آفاقه الواسعة، وتحدو أسراء الحسّ إلى استيطان دخائل نفوسهم، والاهتمام بمراقبة ضمائرهم، علاوة على ضبط حواسهم، وتحض على التفكير في مصدر الرزق، وما يتعرض له من سعة وضيق، وإمساك وإطلاق، وهي إلى جانب هذا كله تصفّ حال المومنين وحال الكافرين، ومصير المهتدين ومصير الضالين.

وقد تفرّعت آيات هذه السورة كلها عن فاتحتها المتضمنة لحقيقة «المُلْك» وحقيقة «القُدرة»، إذ قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبْرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فمن «المُلْك» ومن «القُدرة» كان خَلْقُ الموت والحياة، وكان الإبتلاءُ بهما، وكان خَلْقُ السماوات وتزيينها بالمصابيح، وكان العِلْمُ بالسُّرِّ والجَهْرِ، وكان الرزقُ كما يشاء الله، ومَتَى شاء، وكان عذابُ الكافرين، وكان نعيمُ المومنين.

فقوله تعالى: ﴿تَبْرَكَ﴾، إشارةٌ إلى زيادة بركة الله ومضاعفة نعمته، وشمول رحمته، وذلك نوع من تمجيد الله، والتسبيح باسمه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، تذكيرٌ لكافة الخلائق، ولا سيما الإنسان، بأن الله تعالى هو وحده الذي يَمْلِكُ - على وجه التحقيق - التصرفَ الكاملَ الشامل، في جميع أجزاء الكون، بكل ما فيه، من رِقَابٍ ومنافع، وناطقٍ وأعجم، وحيٍّ وجامد، وشاهدٍ وغائب، وهو الذي له المُلْكُ الحَقِيقِي في الدنيا، والمنفردُ بالمُلْكِ في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، تذكيرٌ لكافة الخلائق، ولا سيما الإنسان، بأن الله تعالى هو وحده الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه سبحانه قادر على أن يرفع الإنسان إلى «أعلى عِلِّيِّين» إذا ائتمر بأمره وانتهى بنهيه،

وقادرٌ على أن يردّه «أسفلَ سافلين» إذا خالف عن أمره وأعرض عن وحيه .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ ﴾ ، تأكيدٌ لما له سبحانه من سلطان شامل كامل على خلقه، وتصرفٍ حرٍّ مطلق فيهم من البداية إلى النهاية، فهو سبحانه وحده الذي يُنشئهم من العدم، وينفخ فيهم روح الحياة متى شاء، وهو سبحانه وحده الذي يُوقف فيهم تيار الحياة ويطفىء مصابيحها في اللحظة التي يريد، ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ ﴾ (الطلاق: ٣)، ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون: ١١). وما دام الإنسان غير قادر على أن يُقدِّم موعدَ قدومه إلى عالم الأحياء، وغير قادر على أن يُؤخر موعدَ سفره من هذا العالم إلى الوقت الذي يشاء، فهو عاجزٌ كلَّ العجز، ومقهور كامل القهر، وإن ادَّعى من القدرة والسُّطوة لنفسه أكبر نصيب .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، بيانٌ لحكمة الله في خلق الإنسان، وفي تزويده بملكة العقل والتمييز والاختيار. ذلك أن الله تعالى يريد أن يُبرز لكل إنسان ما في نفسه من طاقاتٍ كامنة، ومن استعداداتٍ للخير والشر، ومن قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال، والإنسان لا يكتشف نفسه على حقيقتها إلا عندما تكون وسائل العمل حاضرة بين يديه، وأجهزة التنفيذ متوافرة لديه، وإذ ذاك يتضح اختياره، وتكشف أسراره، ويتحمل مسؤولية عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالله تعالى لم يخلق الإنسان عبثاً، ولم يتركه سُدى، وإنما خلقه ليقوم بدور

مرسوم له في هذه الأرض، وهذا الدور هو الخلافة عن الله في عمارتها وصلاحتها، وإقامة شريعة العدل والحق بين أهلها، ومجال السباق فيها مفتوح على مصراعيه أمام المتسابقين «والعاقبة للمتقين».

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾، إشارة إلى أن الحق سبحانه وإن كان «عزيزاً غالباً»، منيع الجناب، فإنه سبحانه يصفح عن الذنوب ويغفر الخطايا لمن تاب إليه وأتاب.

وانتقل كتابُ الله إلى التحدث عن آثار قدرته، ومظاهر حكمته، فأشار إلى ما خلقه الله من السبع الطباق، وما تميزت به من الضبط الذي لا خلل معه، والنظام الذي لا فوضى بعده، ووجه كتاب الله الدعوة مكررة إلى الإنسان، ليتذكر «صنع الله» في السماوات، ويرى هل يكتشف في صنعه بعض النقائص والآفات، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾، أي: طبقات على أبعاد متفاوتة، ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴾، أي: لا عيب فيه ولا خلل ولا تنافر، ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ ﴾، أي: هل ترى من شقوق وخروق، ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾، أي: مرتين، مرة بعد أخرى، ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾، أي: كليل من الإعياء بعد تكرار النظر، دون اكتشاف أي نقص، ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾، أي: زينا السماء القريبة إلى الأرض، بالكواكب والنجوم الظاهرة للعين، ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ ﴾، أي: جعلنا جنس المصابيح رجوماً للشياطين، وذلك في صورة «شهب»

كما جاء في سورة (الصفات: ٦، ١٠): ﴿إِنَّا زَيْنًا أَلْسَمَاءَ أَلدُّنْيَا
بزِينَةِ الْكُوكَبِ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ
الْأَعْلَى، وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا
مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، ثم قال تعالى:
﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾، أي: علاوة على الشُّهْبِ التي
يَرْجُمُ اللهُ بها الشياطينَ في الدنيا أعدَّ اللهُ لهم في الآخرة عذابَ
جهنم. وتحذيراً من استعمال «علم الفلك والتنجيم» استعمالاً سيئاً
قال قتادة: «إِنَّمَا خُلِقَتْ هَذِهِ النُّجُومُ لثَلَاثِ خِصَالٍ، خَلَقَهَا اللهُ
زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ
فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ بِرَأْيِهِ، وَأَخْطَأَ حِطَّهُ، وَأَضَاعَ نَصِييَهُ، وَتَكَلَّفَ
مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ» وهذه الخصال الثلاث التي ذكرها قتادة لا تمنع
وجود خصال أخرى وأسرار كبرى يكشفُ اللهُ عنها لمن يشاء، في
الوقت الذي يشاء.

وانتقل كتابُ اللهُ، من الإشارةِ إلى رَجْمِ الشياطينِ بالشُّهْبِ
في الدنيا وعقابهم بعذاب جهنم في الآخرة، إلى الحديث عن
«أولياء الشياطين» من الكفار، وما ينتظرهم من العقاب الشديد
والعذاب الأليم، واصفاً شهيقَ جهنم وغيظها من كفرهم وعنادهم،
واستقبالَ خزنتها لهم أسوأ استقبال، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا
بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا
شَهيقاً﴾، أي: صياحاً، ﴿وَهِيَ تَقُورُ﴾، أي: تغلى بهم،
﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾، أي: تكاد تتمزق من شدة حنقها
عليهم، ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾،

وذلك لإقامة الحجة عليهم، ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: أنهم عادوا على أنفسهم باللوم، وندموا حيث لا ينفعهم الندم.

ثم تحدث كتابُ الله عن مُراقبة الله في «الغيب»، تلك المراقبة الدقيقة التي لا يتم الإيمان بالغيب دونها، وهي أن ينكفَّ المومن عن معصية الله وإن كان لا يراه أحد، وأن يقوم بطاعة الله وإن كان لا يشاهده أحد، «كمن دَعَتُهُ امرأة ذاتُ مَنْصِبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله، وكمن تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمَالُهُ ما تُنفق يمينه» فاستحقَّ أن يكونا من «السبعة الذين يظلمهم الله في ظلِّ عرشه يوم لا ظل إلا ظله»، كما ثبت عن رسول الله ﷺ في الصحيحين. وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ إِجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وامتنَّ كتابُ الله على عباده بالأرض التي سخرها لهم، وأعدّها لانتفاعهم، إذ بارك فيها وقَدَّر فيها أوقاتِها، ودعاهم إلى التمتع بما آتاهم من رزقه، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

ثمَّ أعاد كتابُ الله الكرَّةَ مرةً أخرى ليلفِتَ نظرَ الإنسانِ إلى

أَنْ جَمِيعَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ النِّعَمِ مُعْرِضٌ لِلزَّوَالِ وَالسَّلْبِ، إِنْ لَمْ يِقَابِلْهُ بِالشُّكْرِ وَالإِمْتِنَانِ، وَالطَّاعَةِ وَالإِذْعَانَ:

- فهذه الأرض الذَّلُولُ المستقرة من الممكن أن يحل بها الخسف والاضطراب، ﴿ءَأَمِنتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾.

- وهذه السماء التي ترسل «الغيث» من الممكن أن ترسل «ريحاً حاصباً» تأتي على الأخضر واليابس، ﴿أَمْ أَمِنتُمْ مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾.

- وهذا الرزق الذي لا يعيش بدونه الإنسان، من الممكن أن يُمسكه الله عنه، فيُعْرِضُهُ للجوع والحرمان، ﴿أَمْ نَ هذا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾.

- وهذا الماء الذي يشرب منه الناس ويسقون به الزروع والدواب من الممكن أن «يغور»، ولا يجدوا منه قطرة واحدة ولو في أعماق الأرض، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «القلم» المكية أيضاً، وفي مطلعها قَسَمَ مِنَ اللَّهِ عَظِيمٍ «بالقلم والكتابة»، تنويهاً بهما، وتبييناً لعظم منفعتهما، في حفظ العلم والدين، ونقل ثمرات الحضارة والتمدين: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

- ثم تحدث كتابُ الله عما أكرم به خاتم الأنبياء والمرسلين

من الخُلُق العظيم وإنه لتنويه فوق كل تنويه، بمقام الرسول الكريم، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، واتَّجَهَ الخطابُ الإلهي إلى نبيه، مُنبِّهاً إياه إلى رفض كل مساومة من طرف المشركين: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُوا لَوْ تَدَّهَنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

وسجلَ كتابُ الله وصفاً دقيقاً لبعض أقطاب الشرك وزعماء الوثنية، وبذلك عرَضَ على المسلمين نموذجاً حياً من نماذج الخَبَال والضلال التي يصادفونها في حياتهم، والتي يجب أن يتجنبوها كل التجنب، ويمقتها كل المقت، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ مَّنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

- فهو «حَلَّافٌ»، أي: كثير الحلف، ولا يُكثر الحلف إلا الكاذب.

- وهو «مَّهِينٌ»، أي: لا يحترم نفسه ولا يحترمه الناس.

- وهو «هَمَّازٌ»، أي: يهمز الناس ويعيبهم في حضورهم وغيبتهم.

- وهو «مَّشَاءٌ بِنَمِيمٍ»، أي: يمشي بين الناس بما يُفسد قلوبهم، ويقطع أرحامهم.

- وهو «مَّنَاعٌ لِلْخَيْرِ»، أي: يمنع الخير عن نفسه وعن الناس.

- وهو «مُعْتَدٍ» ، أي : متجاوزٌ للعدل وللحق باستمرار .
- وهو «أَثِيمٌ» ، أي : يرتكب المعاصي ويمارس الأثام على الدوام .
- وهو «عُتْلٌ» ، أي : غليظٌ جافي الطبع ، لئيم النفس ، سيء المعاملة .
- وهو «زَنِيمٌ» ، أي : مشهورٌ بالخبث والشر إن لم يكن «ظَنِيناً» في النسب .
- وعقاباً لهذا الصنف من المشركين وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُمْ فِي سَائِرِ العصور والأجيال ، عَقَبَ كَتَابُ اللَّهِ قَائِلًا : ﴿ سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ ، و«الْخُرْطُومُ» طرف الأنف من الخنزير الوحشي ، وذلك تلويح إلى ما هو أهل له من التحقير والتأنيب ، والإهانة والتعذيب . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت : ٤٦) .

الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين
في المصحف الكريم

فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَآئِفٌ مِّنْ

رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتِ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ

اعْدُوا عَلَيَّ حَرْزَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا

يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوُا عَلَىٰ حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا

قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا

تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ

بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يَبَدِّلَنَا

خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ

أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْجَاهِلِيِّينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ

فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا

بَلِغَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلَهُمْ وَآيَهُمْ بِذَٰلِكَ

زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ وَإِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٧﴾
خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ
سَآمُونَ ﴿١٨﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٢٠﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا
فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُتَنَقِلُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٢٢﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَجِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٢٣﴾ لَوْلَا أَنْ تَدْرَكَهُ
نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٢٤﴾ فَاجْتَبِهْ رَبُّهُ، فَجَعَلَهُ وَمِنْ
الصَّالِحِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَزْلِقُونَكَ يَا بَصِيرَهُمْ لَمَّا سَمِعُوا
الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ
بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ
صَرْصَرٍ عَالِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ
فِيهَا صَرَغِي كَانَهُمْ وَأَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَبْرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾
وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصُوا رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَاخَذَهُمْ وَ أَخَذَهُ رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي

الْجَارِيَةِ ⑪ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَهَا أُذُنٌ وَعَيْةٌ ⑫ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ
 نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ⑬ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ⑭ فَيَوْمَئِذٍ
 وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ⑮ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ⑯
 وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ⑰
 يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ⑱

الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «القلم» المكية: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾، إلى قوله جلَّ جلاله في سورة «الحاقة» المكية أيضاً: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾.

في آخر الربع الماضي فسرنا الآيات الكريمة التي تناولت بالوصف والتحليل، ما كان عليه بعض أقطاب الشرك والتدجيل من عقلية جامدة، وأخلاق فاسدة، وقد وصفها الحق سبحانه لعباده المومنين، حتى يتجنبوها ويقاطعوا كلَّ من اتصف بها من الفاسدين المفسدين، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾، إلى قوله تعالى في نفس الآية: ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾. وبذلك أشار كتاب الله إلى أن هذا النموذج المنحرف من نماذج الضلال والخبال كان يستعلي على الرسول والمومنين، وكان يتكاثر بما

عنده من مال وبنين، ناسياً أن الله له بالمرصاد، وأنه إنما يُملي له ويستدرجه من حيث لا يعلم.

وبمناسبة ما أشار إليه كتابُ الله في هذا الموضوع من استكبار هذا النموذج المتكبر، وبطّره بنعمة الله، انتقلت الآيات الكريمة مباشرةً من الحديث عنه إلى الحديث عن قصة قديمة لها علاقة وثيقة بهذا الصنف من الناس، الذين يقابلون نعمة الله بالكفر لا بالشكر، فيتنزَعُها الله منهم، ويعاقبُهم بالسُّلب والحرمان، والحديثُ عن هذه القصة العجيبة هو الذي يستغرق الآيات الأولى من الربع الذي نفسره اليوم.

وخلاصةُ هذه القصة فيما تنقله الروايات أن جماعة من أهل اليمن كانت لهم قُرْبُ صَنْعَاءِ ضَيْعَةٍ مزدهرة تحتوي على أنواع الثمار والفواكه، وهي في غاية النضارة والإزدهار، فلما حلَّ أوانُ قَطْفِ ثمارها أخذوا يتذاكرون فيما بينهم، هل عندما يَقِطِفُونَ ثمارها يُعْطُونَ من مَحْصُولِهَا جزءاً للمساكين صدقةً عليهم، وشكراً لله على فضله، أم أنهم يستأثرون لأنفسهم بكل شيء، ولا يعطون للمساكين شيئاً، وكان من بينهم وَاحِدٌ يُحِبُّ الخير والإحسان، فأشار عليهم بأن لا يهملوا حق المساكين من ثمرات تلك الضيعة، غير أن الأغلبية منهم رفضت قبول نصيحته، رغبةً في الاستئثار بمجموع المحاصيل، والانفراد باستغلالها والانتفاع بها المائة في المائة، واتفقت تلك الأغلبية على قَطْفِ ما في الضيعة دون التصديق منه بقليل ولا كثير، وتواعد أفراد الجماعة فيما بينهم على موعد القطف، وتسترُّوا ما أمكنهم التستر، حتى لا

يبلغ الخبر إلى المساكين، فيضايقونهم بطلب الصدقة منهم حين قطف الثمار، لكنَّ الله الذي يعلم السر وأخفى اطلع على ما بيّته من سوء، فلما حان موعد القطف ووصلوا إلى الضيعة فوجئوا أقبح مفاجأة، إذ وجدوا كل ما فيها أصبح هشياً أسود كالحا، كأنه أصابه الحريق، فقد علم الله ما بيّتوا وعاملهم بنقيض قصدهم، وسلط على ضيعتهم آفة سماوية أهلك الضيعة بكل ما فيها. ولشدة هول المفاجأة التي واجهتهم أخذوا يتساءلون فيما بينهم أهذه هي ضيعتنا أم هي ضيعة أخرى؟ إذ كانت بالأمس ثمرة في غاية النضارة، واليوم أصبحت قاتمة محترقة في غاية الذبول، وبُدلت الأرض غير الأرض. وعندما تأكّدوا أن الضيعة هي نفس ضيعتهم شرعوا يتلاومون فيما بينهم، ويعترفون بسوء نيتهم، وبسوء تصرفهم، وأدركوا أن الله المطلع على الغيب قد عاقبهم على كفرهم بنعمته، فحرمهم منها بالمرة حرماناً تاماً، وبذلك خسروا رأس مالهم، وخسروا الربح الذي ينتظرونه من رأس المال، جزاء ما بيّته من هضم حقوق المساكين، والإمتناع من الصدقة على المحرومين، التي هي من أعظم حقوق الله وحقوق العباد.

وإلى هذه القصة المليئة بالعبر، لمن تقدم أو تأخر، يُشير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ ﴾، أي: اختبرناهم، ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾، أي: أصحاب الضيعة، ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتُنُونَ ﴾، أي: حلفوا أن يقطعوا ثمارها صبيحة الغد، ويستأثروا بها وحدهم، دون أن يقولوا: «إن شاء الله»،

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ ، أي : أصابتها آفة سماوية بأمر الله في الوقت الذي كانوا يَغْطُونَ في نومهم ، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ ، أي : أصبحت كأنها مقطوعة الثمار ، لأن الآفة السماوية قضت على ثمارها ، ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، أي : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً أن يذهبوا إلى قطف الثمار ، ﴿ فَانظَلُّوْا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ وَعَدَّوْا عَلَيَّ حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴾ ، أي : ذهبوا وهم يتكلمون بصوت منخفض ، يحذر بعضهم بعضاً من أن يدخل عليهم المساكين وهم يَقْطِفُونَ الثمار ، لأنهم لا يعترفون للمساكين بأي حق فيما آتاهم الله من فضله ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ ، أي : لما رأوا مزرعتهم على حالة يُرْتَى لها ظنوا أنهم دخلوا إلى مزرعة أخرى غير مزرعتهم ، وذلك من هَوْل المفاجأة ، ولما تأكّدوا أنها هي بنفسها لا غيرها ، قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ، أي : أدركوا أن الله عاقبهم وعاملهم بالحِرمَان ، جزاء كفرهم بنعمته وعدم شكره عليها ، ولَمَّا تيقنوا من عقاب الله ، ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ، أي : ذكّرهم أرجحهم عقلاً وأفضلهم سلوكاً ، بما كان قد نصّحهم به من قبل ، من إعطاء المساكين حقّهم في ثمرات تلك المزرعة ، شكراً لله على ما آتاهم ، ولَمَّا عرفوا أنه كان مُحِقّاً فيما نصّحهم به ، ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَيَّ بَعْضٌ يَتَلَوَّمُونَ ﴾ ، أي : أخذ بعضهم يلوم البعض الآخر ، واعترفوا بذنبهم جميعاً ، ﴿ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، أي : كنا على غير حق فيما بَيَّنَّاه من هضم حقوق

المساكين وحرمانهم، وها نحن قد أصابنا ما أصابنا جزاء أنانيتنا وطغياننا. ثم التجأوا إلى الله مضطرين، ولم يذكروه إلا في ذلك الحين، طالبين مغفرته وإحسانه قائلين: ﴿عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُدَلِّنَاخَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾، لكن كتاب الله أكد أنهم، علاوة على العذاب الذي نالهم في الدنيا، سينالهم في الآخرة عذاب أكبر وأشد، ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

وكتاب الله عندما سجل هذه القصة بين دفتي المصحف الكريم إنما يريد ضرب المثل لكافة المومنين، حتى يؤديوا للمساكين والمحرومين ما لهم من حقوق معلومة في أموالهم وثمراتهم، فبدأء تلك الحقوق تزكو أموالهم، وتنمو ثرواتهم، وإلا ضاع عليهم رأس المال والربح، جزاء ما ضيعوه من الصدقة والزكاة، وخسروا خسراناً مبيئاً.

وتساءل كتاب الله هل يُعقل أن يكون الذين آمنوا واتَّقوا، - عند ربهم - في درجة الذين كفروا وأُجرموا، وإنه لسؤال لا يصعب الجواب عنه جواباً منطقياً: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ، كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

ثم وجه كتاب الله إلى المشركين عدة أسئلة «استنكارية» تُعجزهم وتُفحِّمهم، إذ لا يستطيعون الجواب عنها بأي جواب مقنع:

- هل عندكم أيها المشركون «كتابٌ مُنزلٌ» تدارسونه فيما

بينكم، تستمدون منه هذه الأحكام السخيفة التي تحكمون بها لأنفسكم، وتحكمون بها على غيركم، طبقاً لشهواتكم وأهوائكم: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾.

- هل عندكم أيها المشركون عهود ومواثيق من الله أعطاهما لكم، وعاهدكم عليها، ووأثقتكم بمقتضاها، حتى تفعلوا ما تشتهون، وتحكموا بما تشاءون، ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾.

ثم أمر الحق سبحانه نبيه عليه السلام أن يسأل المشركين: مَنْ مِنْهُمْ تَكْفَلُ لَهُمْ بِتِلْكَ الْعُهُودِ، وَضَمِنَ لَهُمْ تِلْكَ الْمَوَاطِيقَ: ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾، ودعا كتاب الله المشركين أن يحضروا معهم شركاءهم من الأصنام والأوثان، إن كان شركاؤهم صادقين في بذل العون لهم عند الحاجة، وإغاثتهم وقت الضيق: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾، وبين كتاب الله أن أولئك الشركاء لن يُعينوا المشركين الذين أشركوهم بالله في قليل ولا كثير، بل سيُسَلِّمُونَهُمْ إِلَى مَصِيرِهِمُ الْمَفْجَعِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَشِعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾. ثم اتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول عليه السلام طالباً منه أن يكل عاقبة أمر المشركين إلى سطة الله وقدرته القاهرة، ليفعل بهم ما يشاء، ويقضي فيهم بما يريد، مُبَيِّنًا له أن الله تعالى إنما يعطيهم ليسلبهم، وإنما يُمِدُّهُمْ لِيَحْرِمَهُمْ، وإنما يُمَهِّلُهُمْ وَلَنْ يُهْمِلَهُمْ: ﴿فَدَرَنْيَ وَمَنْ يُكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلَىٰ لَهُمْ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٨٧﴾ .
وعَقَّبَ كِتَابُ اللَّهِ عَلَىٰ ذَلِكَ كُلَّهُ بِدَعْوَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى تَحْمُلِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ،
وَالْمَزِيدِ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى الْقِيَامِ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ الَّتِي لَا يُثْقَلُ الْكَاهِلُ
مِثْلَهَا شَيْءٌ، لِأَفْتَانِ نَظَرِهِ إِلَى أَنْ لَا يَسْلُكَ مَسْلَكَ أَخِيهِ نَبِيِّ اللَّهِ «يُونُسَ»
عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِي تَخَلَّى عَنْ حَمْلِ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ عِنْدَمَا ضَاقَ
صَدْرُهُ وَذَهَبَ مُغَاضِبًا لِقَوْمِهِ، سَائِحًا فِي أَرْضِ اللَّهِ، حَتَّى وَجَدَ قَوْمًا
يُرْكَبُونَ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ، فَرَكَبَهَا مَعَهُمْ، وَانْتَهَى الْأَمْرُ بِهِ إِلَى أَنْ
يَلْتَقِمَهُ الْحَوْتُ، وَيَحْفَظُهُ فِي بَطْنِهِ إِلَى حِينٍ، فَنَادَى رَبَّهُ وَهُوَ فِي
بَطْنِ الْحَوْتِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾
(الأنبياء: ٨٧). فَتَدَارَكَهُ لُطْفُ اللَّهِ، وَأَلْقَاهُ الْحَوْتُ فِي أَرْضِ
عَرَاءٍ، وَأَنْبَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ شَجْرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، لِيَأْكَلَ مِنْ ثَمَرِهَا،
وَيَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَإِذْ ذَاكَ فَهِمَ عَنِ اللَّهِ، وَعَادَ إِلَى قَوْمِهِ وَكَانَ
سُرُورُهُ بِالْغَا عِنْدَمَا وَجَدَهُمْ قَدْ اهْتَدَوْا بِدَعْوَتِهِ، وَأَمَنُوا بِرِسَالَتِهِ،
وَذَلِكَ مَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ
كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ
لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾،
فَالْمُرَادُ بِصَاحِبِ الْحَوْتِ هُنَا هُوَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا سَبَقَ فِي
سُورَةِ «الصَّافَاتِ».

وتحذيراً من أن يفهم بعض المومنين من هذه الآيات
الكريمة تنقيصاً من قدر يونس عليه السلام نبه رسول الله ﷺ أمته
إلى احترام مقامه وتوقيره، وعدم المفاضلة بينه وبين يونس،

فقال ﷺ كما رُوي في الصحيحين: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن مَتَّى».

وأشار كتابُ الله إلى ما كان للمشركين من حَنَقٍ على رسول الله ﷺ، وبُغْضٍ له ولدينه، من شِدَّةِ وَقَعِ الإسلامِ عليهم، وتسفيهه لمعتقداتهم، وبين أنه لولا حِفْظُ الله لنبيه، وعصمته له من الناس، لأذاهُ المشركون بأعينهم الشريفة إِذْأَيَّةً بالغة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. وعلَّق ابن كثير على هذه الآية قائلاً: «إن فيها دليلاً على إصابة العين، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة».

وهنا تنتهي سورة «القلم» المكية، وتبتدىء سورة «الحاقة» المكية أيضاً، والحديث في مطلعها يتعلق بيوم القيامة، فمن أسماء هذا اليوم اسم «الحاقة»، لأن فيه يتحقق الوعد والوعيد اللذان نزلت بهما الكتب الإلهية، وجاء بهما الأنبياء والرسول.

وذكر كتابُ الله بأنواع العذاب التي أصابت في الدنيا طائفة من الأمم الخالية، جزاءً كُفْرَها وعنادها، فبادت واندثرت ولم يبق لها أي أثر: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾.

ووصف كتابُ الله أهوال الساعة، وما يصيب الأرض والسماء عند حلولها من ظواهر كونية خارقة للعادة، تُؤدِّي إلى

انقلاب في العالم عُلُوِّهِ وَسُفْلِيِّهِ، ولا يبقى على ما هو عليه إلا
عرشُ الله ووجهه الكريم، ﴿ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً
وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ
وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ يَوْمَئِذٍ
تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾، فما على عقلاء المومنين إلا أن
يحسبوا لهذا اليوم ألف حساب، وأن يتفانوا في العمل الصالح
ويقدموا بين أيديهم ما يستحقون به عند الله الأجر والثواب.

الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

فَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابُهُ
بِمِثْلِهِ ۖ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنَبِيَّةٌ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ
حِسَابِيَّةٌ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا
دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾
وَأَمَّا مَنْ أَوْتِي كِتَابَهُ وَبِشِمَالِهِ ۖ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةً ﴿٢٥﴾
وَلَمْ آدُرْ مَا حِسَابِيَّةٌ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي
مَالِيهِ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴿٢٩﴾ خذوه فَعَلُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْحَجِيمَ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾
إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿٣٤﴾
فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ
إِلَّا الْخَطِيطُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ
لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ
كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكَرُونَ ﴿٤٢﴾ نَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١٤﴾ لِأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ
 الْوَتِينَ ﴿١٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّهُ وَلِتَذْكُرَ
 لِلتَّقِيْنَ ﴿١٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّهُ وَلِحَسْرَةٍ عَلَى
 الْكٰفِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّهُ وَلِحُكْمِ الْيَقِيْنَ ﴿٢١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيْمِ ﴿٢٢﴾
 بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

سَالَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعَ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ وَدَاعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي
 الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ
 أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾
 يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾
 يُبْصِرُونَ نَهُمٌ يُوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾
 وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصَّلَتْهُ أَلْتِ تَنْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوْبَى ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ
 وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ
 جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
 صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ
 وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنَ

عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُنِّبُوا ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ
هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ وَأَوْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ ابْتِغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ
قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ
فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾
عَنِ الْبَيْمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ وَ
أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في سورة «الحاقّة» المكية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أقرءوا كِتَابِيَةَ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه في سورة «المعارج» المكية أيضاً: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةً نَّعِيمٍ كَلَّا، إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

في بداية هذا الربع يواصل كتاب الله وصفه لمشاهد القيامة، وما يكون عليه أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ويشير إلى أن من أوتي كتابه بيمينه يدرك لأول وهلة أنه ممن كتبت لهم السعادة، فيتناول كتابه هاشأً باشأً، ولا يخجل من أن يعرضه على إخوانه السعداء من أهل الجنة المُكْرَمين، مؤكداً أنه كان على يقين بحساب الله وجزائه، ولم يكن يُدْخِلُهُ أدنى شك في عقيدة البعث والحياة الآخرة، ولذلك يُكْرِمُهُ الله تعالى بالعيش الطيب في الجنة، ويُنعم عليه بكل ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعين، جزاءً وفاقاً لما أسلفه من العمل الصالح في حياته، وما كان عليه من

طاعة الله والسعي في مرضاته، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا أَدْرَأْتُ لِي لَنْ أُكْفِرَ﴾، أي: كنت موقناً بأن هذا اليوم قادم لا محالة، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، أي: عيشة مرضية، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، أي: ثمارها سهلة للقطف. وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾، حكاية لخطاب التكريم والامتنان، الذي يوجهه إليهم ملائكة الرحمان من خزنة الجنان، بينما أصحاب الشمال بمجرد ما يؤتون كتابهم بشمالهم، يدركون أنهم من الأشقياء المعدبين عند الله، وفي الحين تنطق ألسنتهم بما يعبر عن دخائل نفوسهم، إذ يتمنون، وما تنفعهم الأماني، لو أنهم لم يؤتوا أي كتاب، ويتمنون لو أنهم لم يعرفوا أي حساب، ويتمنون لو أنهم ماتوا مائة واحدة لا حياة بعدها ولا عقاب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِي وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾.

ويفاجأ أصحاب الشمال بالحقيقة المؤلمة التي لم يكونوا ينتظرونها ولا يحسبون لها أي حساب، وهي أن «مالهم» الذي كانوا يتبححون به على الفقراء، «وسلطانهم» الذي كانوا يستعجلون به على الضعفاء، لا يُغنيان عنهما من الله شيئاً، فالآخرة إنما هي «دار الجزاء» على العمل: الجزاء بالثواب على العمل الصالح، والجزاء بالعقاب على العمل الفاسد، ولا عبرة فيها بما تواطأ عليه الناس من الإعتبارات السطحية، والقيم الوهمية، وذلك ما ينطق

به لسان الشقي من أصحاب الشمال إذ يقول: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾.

ثم يصف كتاب الله ما يصدر إلى خزنة جهنم من الأوامر الإلهية الرهيبة، بشأن كل واحد من أصحاب الشمال الضالين المضلين، إذ يقال لهم: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾، أي: ضعوا في عنقه الأغلال، ﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾، أي: اغمروه في جهنم من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾، أي: أدخلوه.

ووضَّح كتاب الله أن عقاب الله لأصحاب الشمال إنما هو عقاب عادل، لا غبار عليه، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩)، فقد كانوا فرادى وجماعات ينكرون حقيقة الحقائق، وهي الإيمان بالله، وكانوا يُنكرون كل ما لله من صفات العظمة والكمال، ومظاهر الجلال والجمال، وكانوا حَجَرَ عَثْرَةَ في طريق انتشار دعوته، وتبليغ رسالته، وحرباً على كُتبه المنزلة وشريعته، وكانوا عنصرَ فساد وتخريب في الأرض، لا يؤدون لعيال الله وعبيده أي حق، ولا يُقدِّمون إليهم أي عون مما آتاهم من الرزق، وإلى «حيثيات هذا الحكم الإلهي العادل»، الذي صدر بعقاب أصحاب الشمال يُشير قوله تعالى هنا: ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾، أي: أنه كان لا يؤدي حقوق الله ولا حقوق الناس، ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾، أي: ليس له من صديق حميم يستطيع أن يُخلِّصه ويُنقذه من عذاب الله، أو يتطوع بالنيابة عنه في تحمل العقاب

المحكوم به عليه، ﴿وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾، و«الغسلين» شرُّ طعام أهل النار كما فسره قتادة.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى دعوة الناس أجمعين للإيمان بكتاب الله المنزل من عنده، والاهتداء بهديه، مؤكدة أن ما احتوى عليه كتاب الله من عقائد وآداب، وشرائع وشعائر، وحقائق كونية ونفسية، هو حقُّ اليقين، ولُبُّ الحكمة، وأصدق العلم. وأبطلت الآيات الكريمة ما يُلقِّفه المشركون ومن لفَّ لفهم من اتهام الرسول بالشعر والكهانة والافتراء على الله، وأكد كتاب الله أنه لو تجرأ أيُّ رسول على الله وتقول عليه لعاقبه الله عقاباً شديداً لا يعاقب به غيره من العالمين، وللتدليل على صدق هذه الحقائق بأقوى الدلائل أقسم الحقُّ سبحانه وتعالى بكل ما خلقه في كونه، من محسوس وغير محسوس، من منظور وغير منظور، في عالم الغيب وعالم الشهادة، فقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: أنه قولٌ صادر من الله يقوم بتبليغه إليكم رسولٌ كريم، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، أي: لا يقدر أحدٌ منكم أن يحول بينه وبين عقاب الله، لو تقول على الله. ﴿وَإِنَّهُ﴾، أي: كتاب الله، ﴿لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾، أي: أن كتاب الله يثير في نفوس الكافرين، وهم في الدنيا، مشاعر الأسى والحسرة على ما

هم غارقون فيه من الأحوال، كما يكون عليهم حسرة في الآخرة، بما ينالهم من عذاب الله، طبقاً لما هو مسجل في كتاب الله: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾، أي: أنه هو الخبر الصادق، والشرع العادل، والعقيدة الصحيحة.

وختمت سورة «الحاقة» المكية بالأمر بتسييح الله، وتنزيه اسمه وصفاته عن كل نقص أو عيب، فقال تعالى مخاطباً لنبيه وللمؤمنين عن طريقه: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

ومن هنا تنتقل إلى سورة «المعارج» المكية أيضاً، وتبتدىء هذه السورة الكريمة بالحديث عن البعث والنشور والحساب والعقاب، وأطلق عليها اسم سورة «المعارج» لورود كلمة «المعارج» في الآية الثالثة منها: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾، أي: تساءل سائل عن العذاب المنتظر، يستعجل به لماذا لم ينزل عليه في الحين، على حد ما ورد في قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (الحج: ٤٧)، وما ورد في قوله تعالى في آية ثالثة: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ابْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢).

وقوله تعالى: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾، أي: معارج السماء، كما قال مجاهد، أو المراقى في السماء كما قال الحسن.

وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، الضمير هنا

يعود على الله، والمراد عرشه، أي تصعد الملائكة إلى العرش، كما تصعد أرواح بني آدم إليه عند قبضها حين الموت.

وقوله تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾، إما أن يكون إشارةً إلى يوم القيامة، وما فيه من طول الموقف والشدائد والأهوال، وإمّا أن يكون إشارةً إلى مُدَّةِ اليوم الذي يَعْرُجُ فيه المَلَكُ، وأن مقدار مسافته لو عَرَّجَهُ آدَمِيُّ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، من أيام البشر، ونسبَ أبو حيان هذا القول إلى «ابن عباس وابن إسحاق وجماعة من الحذاق منهم القاضي منذر بن سعيد». وسبق في سورة «الحج» ذكرُ اليوم الذي يعدل بألف سنة، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (الحج: ٤٧)، وبهذا يكون كلاً اليومين من الأيام التي لا تندرج في عداد «أيام البشر»، إذ حساب أيام البشر تابع للزمان المعتاد بينهم، والمعهود عندهم، وهذه أيام أخرى ليست من جنس أيامهم، والله في خلقه شؤون.

ودعا كتابُ الله الرسولَ عليه السلام إلى المزيد من الصبر، ومن «الصبر الجميل» الذي لا شكوى معه ولا يأس ولا قنوط، فقال تعالى مخاطباً لنيبه: ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾.

ثم عادت الآياتُ الكريمة إلى وصف يوم القيامة وأهواله، وما يقع فيه للمخلوقات من اضطراب وتناكر، وحرص كلِّ فردٍ على النجاة بنفسه إن استطاع النجاة والخلاص، ناسياً كلَّ الروابط التي كانت تربطه بغيره، ومتجاهلاً كل العلاقات التي كانت تجمع

بينه وبين أقربائه وأصدقائه، فالكل يقول: «نفسى نفسى»، ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبْصِرُونَهُمْ﴾، أي: لا يسأل صديق عن صديق، ولا قريب عن قريب، وإن كان يراه في أسوأ الأحوال، إذ هو مشغول بنفسه قبل كل شيء، ومعنى «المُهْل» ما أذيب من المعادن، مثل مذاب الذهب، أو مذاب الفضة، أو مذاب النحاس والرصاص والحديد، وسبق في سورة (الدخان: ٤٣، ٤٦)، قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ طَعَامٌ لِلْأَيْمِ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾، ومعنى: «العِهْن» الصوف المصبوغ الذي تطيره الريح إذا كان «منفوشاً»، وسيأتي في سورة (القارعة: ٥)، قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾، ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَحْبِهِ وَأَخِيهِ وَفَضِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَى نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَى تَدْعُوا مَنْ آدَبَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾، أي: أن النار تدعو إليها الكافرين والمجرمين، الذين يُحاولون الفرار منها، كما تدعو الأغنياء والمترفين الذين كانوا يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، ويمنعون الفقراء من حق الله.

ثم تحدث كتابُ الله عن بعض الصفات اللاصقة بالإنسان إذا كان فارغ من الإيمان، ذلك أنه يكون «هَلُوعاً جَزُوعاً» إذا مسه الشر، و«بخيلاً مَنْوعاً» إذا ناله الخير، بخلاف المومن الذي هو على صلة دائمة بالله، عن طريق الذكر والصلاة، فإنه يكون محافظاً على حقوق إخوانه المومنين يؤديها لهم، كما يؤدي ما

عليه من حقوق الله سواء بسواء، وبهذه المناسبة تناولت الآيات الكريمة بالشرح والتحليل تعداد صفات المومنين، وما يميزهم عن غيرهم من الكفار والمنافقين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيْنَ الَّذِينَ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّةٍ مُّكْرَمُونَ ﴿١٠٠﴾

وتساءل كتاب الله مرة أخرى، منكرًا على الكفار والمشركين ما هم عليه من عناد ونفور، واستكبار وغرور، رغمًا عما يقرع أسماعهم، ويزعزع كيانهم، من آيات الله البينات، وما يشاهدونه كل يوم على يد رسوله من المعجزات، ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ﴾، أي: ما لهؤلاء الكافرين نافرين، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عَازِبِينَ﴾، أي: متفرقين يمينًا وشمالًا، معرضين مستهزئين، ﴿أَيُّطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾، أي: أيطمع كل واحد من هؤلاء الفارين المستهزئين المغرورين أن يدخل الجنة وهو على ما هو عليه، عنادًا للحق، وإصرارًا على الكفر، ثم يجيب كتاب الله ردًا على ما يتمنونه من الأمانى الفارغة: ﴿كَلَّا﴾، أي: لا سبيل لهم إلى دخول الجنة أبدًا،

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي: أنهم يعرفون من أي شيء خلقناهم، فلا مفرّ لهم من الاعتراف بالخالق الذي خلقهم، والمُبدع الذي أنشأهم، ولا سبيل لهم إلى الجنة إلاّ سلوك الطريق الوحيدة المؤدية إليها، ألاّ وهي طريق الإيمان بالله وبكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا سيما الإيمان بالذكر الحكيم، والتصديق برسالة خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. وقوله تعالى هنا: ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ ، يُشبه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ (المدثر: ٤٩).

الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿٤٤﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ
وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤٥﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿٤٦﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٧﴾
خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ ذُلُّكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٨﴾
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾
قَالَ يَتْلُونَ فِيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ
لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾
فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُنْتُ مَدْعُوهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ
جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِيءَ أَذَانِهِمْ وَاسْتَخْشَوْا شِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا
وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ

وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾
 يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ
 جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ
 خَلَقَكُمْ وَأَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾
 وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ
 الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ
 لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِيَتَسَلَّكُوا مِنْهَا سُبُلًا فَجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ
 رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
 وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَنْدَرْنَآ إِلَهَتِكُمْ وَلَا تَذَرْنَ وُدَّآ
 وَلَا سُوعَاآ وَلَا يَعُوْثَ وَيَعُوْقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوْا كَثِيْرًا
 وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِيْنَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ وَأَغْرَقُوْا
 فَآذُوْا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوْا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾
 وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾
 إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِرًا
 كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِيْ وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيْ مُؤْمِنًا
 وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِيْنَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «المعارج» المكية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «نوح» المكية أيضاً: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

في بداية هذا الربع يؤكد كتابُ الله أن للقدرة الإلهية من إمكانات الخلق والإبداع على غير مثال سابق، ما يشمل الكون كله من أدناه إلى أقصاه، إذ الحقُّ سبحانه وتعالى هو ربُّ المشارق وهو ربُّ المغارب على تعددها، والكل منه وإليه، ولن يُعجزه ما قدره من المعاد والبعث والنشور، كما يزعم المشركون، الذين سيطر عليهم الجهل والغرور، بل إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يعيدهم بنفس الأجساد التي كانوا عليها في الدنيا، وقادرٌ على أن يُبدّلهم من أجسادهم في الدنيا أشكالاً أخرى خيراً منها في

الآخرة، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان على غير مثال سابق، وهو سبحانه غير مسبوق بغيره في خلق الإنسان وإبداعه، فأمر إعادة الإنسان بعد موته شيء يسير وهين بالنسبة لقدرته وحكمته، ولا حاجة إلى القسم عليه، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ، وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦١).

وهناك تفسير آخر لقوله تعالى: ﴿أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، بمعنى أن نخلق بدلهم أمة أخرى تطيع الله ولا تعصيه، وتصدق بيوم الدين ولا تشك فيه، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (محمد: ٣٨)، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (إبراهيم: ١٩). وهذا التفسير الأخير، هو الذي اختاره ابن جرير.

وأتجه الخطابُ الإلهي إلى الرسول عليه السلام، أمراً له بالإعراض عن المشركين والكافرين، بعد أن بلغ الرسالة إليهم، وأقام الحجة عليهم، مُبيناً أنَّ من اختار منهم الضلال على الهدى والكفر على الإيمان، سيلقى جزاءه مقروناً بالذلة والهوان، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَانَهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ يُوفَضُونَ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي

كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١﴾، ومعنى «يُوفِضُونَ» يُسْرِعُونَ، و«النَّصِبُ» ما نُصِبَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ بِنَاءٍ أَوْ صَنْمٍ، فَهُوَ يَقْصِدُهُ مُسْرِعاً إِلَيْهِ.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «نوح» المكية أيضاً، وفي بدايتها يتحدث كتابُ الله عن الرسالة الأولى التي كَلَّفَ اللهُ بها رسوله نوحاً عليه السلام، وما دعاهم إليه من عبادة الله وتقواه، وما حَضَّهَمَ عليه من طاعة الله ورسوله لنيل غفرانه ورضاه، وما حَذَّرَهُمْ منه من حلول الأجل وهم غافلون، وحلول النِّقْمَةِ وهم مستكبرون، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَنْقُومِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْصِيَاءَهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنذِرِينَ وَإِنِّي لَأَنْذِرُكُمْ لِيَوْمٍ أَنْذَرْتُكُمْ فِيهِ لَأَسْتَفِيزَنَّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعْلَمُونَ﴾، ففي هذه الآية يؤكد كتابُ الله لرسوله والمؤمنين والناس أجمعين، أنَّ مَصْدَرَ الرسالة، وَمَنْبَعَهَا الْأَوَّلُ وَالْأَخِيرَ، كَانَ وَلَا يَزَالُ فِي جَمِيعِ الْعُهُودِ، وَبِالنِّسْبَةِ لِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، مِنْ عَهْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ عَهْدِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، هُوَ اللَّهُ تَعَالَى خَالِقُ الْخَلْقِ وَمَصْدَرُ الْوُجُودِ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، لِهَدَايَتِهِمْ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَهُوَ الَّذِي كَلَّفَ رُسُلَهُ جَمِيعاً بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهِ، وَإِلَى طَاعَةِ رُسُلِهِ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُ عَنِ اللَّهِ: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْصِيَاءَهُ﴾، لَكِنَّ قَوْمَ نُوحٍ لَمْ تَزِدْهُمْ دَعْوَةَ رَسُولِهِمْ إِلَّا عِنَاداً وَاسْتِكْبَاراً، وَلَمْ يَزِدْهُمْ إِلَّا حَاحَهُ عَلَىٰ هَدَايَتِهِمْ، وَحِرْصَهُ عَلَىٰ إِنْقَاذِهِمْ، إِلَّا نَفَوراً مِنْهُ وَفِرَاراً، وَأَصْرَراً

على كفرهم إصراراً، رغباً عن كل ما بذله نوح عليه السلام من محاولات طويلة ومُضنية لإصلاح حالهم، وما عَرَضَ عليهم من وعد الله حيناً ووعيده حيناً، ورغباً عما لَفَتْ أنظارهم إليه من دلائل القدرة الإلهية، وآثار الحكمة الربانية، في آفاق الكون الظاهرة، وآفاق النفس الباطنة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى حكايةً على لسان نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْتَبَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ .

ومما يجبُ التنبيهُ إليه في هذا المقام أنَّ «أسلوب الدعوة» الذي حكاه كتابُ الله عن نوح عليه السلام لا يختلف في شيء عن أسلوب الدعوة الذي استعمله خاتمُ النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما أن الحُجج والبراهين الكونية والنفسية التي كان نوح يُقَارِعُ بها قومه هي نفس الحُجج والبراهين التي واجهَ بها رسولُ الله مُشركي قريش ومن لَفَّ لَفَّهُمْ،

وسلك طريقهم، مما يوضح لكل ذي عينين أنَّ طبيعة الرسالة الإلهية واحدة، وأنَّ مصدر الوحي الإلهي واحد، وأنَّ الشبه التي تعرض لِقِصَارِ النظر، والضلالات التي يقعون فيها، على تَبَاعُدِ ما بين العصور والأجيال، هي شُبُه وضلالات متقاربة، إن لم تكن متماثلةً في أغلب الأحيان، وكما أنَّ الداء البشري واحد، فالدواء الإلهي واحد.

وبعد ما قام نوح عليه السلام بتبليغ الرسالة عن ربه، واستعمل مع قومه جميع وسائل الترغيب والترهيب، وقضى أكبر قسم من حياته الطويلة في أداء الواجب دون الوصول معهم إلى جَدْوَى أخذ يستعيدُ بالله من كفرهم وعصيانهم، ووبراً إليه من مكرهم وعدوانهم، وذلك ما يحكيه عنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴾، أي: مكرًا كبيراً وعظيماً.

ووصف كتابُ الله الدعوة الضالة المضلة التي كان يقوم بها قوم نوح لإفساد الناس، وتحريضهم على الاستمساك بالشرك والوثنية، والتزام عبادة الأصنام، كما وصف كتابُ الله أثر دعوتهم الضالة في النفوس، واستيلاءها على الأفكار، فقال تعالى حكايةً عنهم: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتِكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾.

وهذه الأصنام وغيرها قد استمرت تقاليدُ عبادتها إلى حين ظهور الإسلام، إذ انتقلت عَدَوَاهَا من قوم نوح إلى العرب، فكان لقبيلة كلب صنمٌ يُدعى «وُدًّا»، وكان لقبيلة هذيل صنم يدعى

باسم «سُوع»، وكان لقبيلة مراد ثم لبني غطيف صنم يُدعى باسم «يَعُوق»، وكان «نسر» صنماً لقبيلة حَمِير.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾، إشارة إلى هذا المعنى، إذ أن السابقة الخبيثة والسنة السيئة التي سنّها قوم نوح قد انتقلت عدواها منهم إلى غيرهم من البشر، ولا تزال عبادة الأصنام قائمة إلى اليوم في عدة شعوب أضلّها سادتها وكبرآؤها، ولولا أن من الله على البشرية بالإسلام لكان كثير من أبنائها حتى اليوم غارقاً في عبادة الأصنام، وإلى تقرير هذه الحقيقة نفسها يشير دعاء إبراهيم الخليل بعد نوح عليهما السلام، فقد حكى الله تعالى عن إبراهيم قوله في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ (إبراهيم: ٣٥، ٣٦).

ثم أخذت الآيات الكريمة تُسجّل أدعية نوح على الضالين المضلين من قومه، بعد أن استفرغ جهده في هدايتهم، واستنفذ طاقته في دعوتهم، ولم يصل معهم إلى أية نتيجة مرضية، وذلك قوله تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾، وقوله تعالى حكايةً عنه أيضاً: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، أي: لا تبق منهم أحداً على وجه الأرض.

وبينت الآيات الكريمة أن الله قد استجاب دعاء نوح عليه

السلام، فأهلك جميع من كان على وجه الأرض من الكافرين وأغرقهم، ولم يستثن منهم أحداً حتى ولد نوح من صلبه، الذي كان اعتزل عن أبيه، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَتَأْوِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، فردّ عليه أبوه نوح قائلاً: ﴿لَا عَصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، ولم يجد ولد نوح وسيلة للخلاص من العذاب، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾، وإنما نجى الله سفينة نوح وحدها بمن فيها من أصحابه المؤمنين، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودَىٰ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وإلى إغراق قوم نوح في الدنيا وعذابهم في الآخرة يشير قوله تعالى هنا: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾.

على أن الدافع الذي دفع نوحاً عليه السلام إلى الدعاء على قومه بالإبادة والهلاك لم يكن مجرد الرغبة في الانتقام منهم، على عدم استجابتهم إلى دعوته، وعدم إيمانهم برسالته، وإنما كان دعاؤه عليهم اقتناعاً منه بأنهم قد بلغوا في الانحراف والفساد والضلال، إلى حد أنه لم يبق أي أمل في هدايتهم، ولا أدنى رجاء في إصلاحهم، فقد أصبح مرضهم مُزِماً وداؤهم عُضالاً، والعضو المتآكل لا ينفع فيه إلا البتر، «وَأَخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيْ» وإلى هذا المعنى المُبرّر لدعاء نوح عليه السلام على قومه، يشير قوله تعالى حكايةً عنه وهو يخاطب ربه قائلاً: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّارًا﴾.

وبعدما عرض كتابُ الله دعاءَ نوح على الكافرين، نقلَ إلينا صورةً حيَّةً من دعائه للمومنين إلى يوم الدين، وفي نقل القرآن لهذه الصورة من الدعاء الصالح توجيهٌ وإرشادٌ إلى كيفية الدعاء، وإلى صيغته وآدابه، وإلى من يستحق الدعاء له بالخير ومن لا يستحقه، وذلك قوله تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾، أي: لا تزد الظالمين إلا هلاكاً وخساراً.

الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ آتِيهِ أَتَىٰ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ①
 يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② وَإِنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ
 رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صِغْبَةً وَلَا وِلْدًا ③ وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ
 شَطَطًا ④ وَإِنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ⑤
 وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥
 وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ⑦ وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ
 فَوَجَدْنَهَا مِْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ⑧ وَإِنَّا لَكَا نَقَعُدُ مِنْهَا
 مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ⑨ وَإِنَّا
 لَأَنْدَرِيءَ أَشْرُ ارِيدِ بِنِ فِي الْأَرْضِ أَمْ آرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ⑩
 وَإِنَّا لَمِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَادُونَ ذَٰلِكَ كَمَا طَرِيقَ قَدَدًا ⑪ وَإِنَّا ظَنَنَّا
 أَنْ لَّنْ نَعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْجِزَهُ وَهَرَبًا ⑫ وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا

الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ۖ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا ۝^{١٣}
 وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَدَّوْا
 رَشَدًا ۝^{١٤} وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝^{١٥} وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَمُوا
 عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۝^{١٦} لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۖ وَمَنْ
 يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ نَسَلْكَهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝^{١٧} وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ
 فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝^{١٨} وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا
 يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝^{١٩} قَالَ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝^{٢٠}
 قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝^{٢١} قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ
 اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝^{٢٢} إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۖ
 وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا
 أَبَدًا ۝^{٢٣} حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفُ
 نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا ۝^{٢٤} قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مِمَّا تُوعَدُونَ
 أَمْ يُجْعَلُ لَهُ وَرَبِّي أَمَدًا ۝^{٢٥} عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ
 أَحَدًا ۝^{٢٦} إِلَّا مَنْ إِرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ وَسَلُّكَ مِنْ بَيْنِ
 يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ ۖ رَصَدًا ۝^{٢٧} لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ
 رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝^{٢٨}

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَأْتِيهَا الْمُرْتَمِلُ ① قُمْ إِلَيْهِ إِلَّا قَلِيلًا ② نِصْفَهُ وَأَوَّاقُصٌ مِنْهُ قَلِيلًا ③
أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤
إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑥ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا
طَوِيلًا ⑦ وَاذْكُرْ إِسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑧ رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑨ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ
هَجْرًا جَمِيلًا ⑩ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ⑪
إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ⑫ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑬ يَوْمَ
نَرْجُفُ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ⑭ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ
رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ⑮ فَغَصَبَ فِرْعَوْنُ
الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ⑯ فَكَيْفَ نُنَقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا
يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ⑰ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ⑱ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ⑲
إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ⑳

الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، وبدأيته قوله تعالى في فاتحة سورة «الجن» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، ونهايته قوله جلَّ علاه في سورة «المزمل» المكية أيضاً: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

تستغرق سورة «الجن» المكية أكبر جزء من هذا الربع، وإنما سميت باسم سورة «الجن» لِمَا ورد فيها من الإخبار باستماع نفر من الجن إلى كتاب الله، وما كان له من وَقَعٍ عظيم في نفوسهم، وتأثير قويٍّ على مشاعرهم.

وهذه السورة الكريمة توضحُ عدة حقائق كانت قبل نزول القرآن مجهولة عند العرب وغيرهم من الأمم.

- الحقيقة الأولى: أَنَّ عَالَمَ الْجِنِّ يُشَابِهُ عَالَمَ الْإِنْسِ فِي الْإِسْتِعْدَادِ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَأَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَخْتَارَ الْهَدَىٰ فَيَكُونُ مِنَ

المهتدين، وأن يختار الضلال فيكون من الضالين، اللهم إلا إبليس اللعين الذي طرده الله من رحمته، فأقسم على أن يُغوي الناس أجمعين، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾، ﴿وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾.

- الحقيقة الثانية: أن عالم الجن لا سلطة له على عالم الإنس، وأن مخاوف الناس من الجن ترجع إلى أسباب وهمية أكثر مما ترجع إلى حقيقة واقعية، وهذا ردُّ على مشركي قريش ومن لفَّ لفهم من العرب وغير العرب، الذين كانوا يعتقدون أن للجن سلطاناً على الأرض، وأنَّ لهم قدرة على النفع والضرر، حتى كان الواحد منهم إذا نزل بوادٍ أو قفر استعاذ «بِعَظِيمِ الْجَنِّ» الذي يَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَاكِمٌ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ قَائِلاً: «أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سَفَهَاءِ قَوْمِهِ»، بينما الجن لا ينفعون الإنس حين يلودون بهم، بل يزيدون في إرهابهم ما داموا يعوذون بهم ولا يستعيذون بالله، وإلى هذه الحقيقة يُشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُهُمْ رَهَقًا﴾.

- الحقيقة الثالثة: أنَّ عالم الجن لا يعرف من «علم الغيب» شيئاً، وأن علم الغيب مقصورٌ على الله تعالى وحده، وهذا إبطالٌ لِمَا كَانَ شَائِعاً فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ولا يزال شائعاً حتى اليوم في أوساط الجهال، من أنَّ الجن تَطَّلِعُ عَلَى الْغَيْبِ وتُخْبِرُ بِهِ الْكُهَّانَ وَالْعَرَّافِينَ، فذلك إنما هو محض ادِّعاء وافتراء على الله، ولا سيما

بعد نزول كتاب الله، حيث لم يعد «استراق السمع» ممكناً، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى هنا في سورة «الجن»: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ حَرِاسٍ شَدِيداً وَشُهْباً، وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدِ اللَّسْمَعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً وَإِنَّا لَا نَذَرِي أَشْرًا ارِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾، وبذلك أبطل كتاب الله الكهانة والعرافة من الأساس، وأعلن تحرير العقل البشري من هذا الوسواس.

- الحقيقة الرابعة: أَنَّ عَالَمَ الْجِنِّ الَّذِي وُجِدَ بَيْنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَوُجِدَ بَيْنَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مَنْ يَنْسِبُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ اتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَفْرَادِهِ زَوْجَةً هِيَ الَّتِي تَلِدُ لَهُ الْمَلَائِكَةَ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عَلَواً كَبِيراً، هُوَ نَفْسُهُ يُكذِّبُ هَذَا الْإِدْعَاءَ، وَيُسَفِّهُ هَذَا الْإِعْتِقَادَ، مُنْكَراً عَلَى مَنْ يَعْبُدُونَ الْجِنِّ عِبَادَتَهُمْ، وَمُنْكَراً عَلَى مَنْ يَنْسِبُونَ الزَّوْجَةَ وَالْوَلَدَ إِلَى اللَّهِ نِسْبَتَهُمْ، وَإِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يَشِيرُ قَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا فِي سُورَةِ «الْجِنِّ»: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً وَإِنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً﴾.

- الحقيقة الخامسة: أَنَّ عَالَمَ الْجِنِّ يَعْتَرِفُ بِعَجْزِهِ وَقُصُورِهِ وَضَعْفِ حِيلَتِهِ أَمَامَ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَبِذَلِكَ يُبَيِّنُ لِمَنْ يَسْتَعِينُ بِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ، وَلِمَنْ يَجْعَلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ نَسَباً مِثْلَ مُشْرِكِي قَرِيشٍ، أَنَّ الْقُوَّةَ الْوَحِيدَةَ وَالْغَالِبَةَ وَالْمُتَصَرِّفَةَ فِي الْكُونِ هِيَ قُوَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ، بِاعْتِرَافِ الْجِنِّ أَنْفُسِهِمْ، فَالْكَلِّ مَقْهُورٌ لِقُدْرَتِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفِرَارَ مِنْ قَبْضَتِهِ، وَإِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ يَشِيرُ قَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا فِي

سورة «الجن»: ﴿وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْآرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾.

وبعدما بيَّنا الحقائق التي تحتوي عليها سورة «الجن» المكية فَلتتناول الآيات الكريمة الواردة في هذا السياق على التتابع.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾، إشارة إلى إخبار الله لرسوله بأن طائفة من الجن - والطائفة ما بين الثلاثة والتسعة - وهذا هو «النفر» - قد استمعت إليه وهو يُرْتَلُّ كتاب الله أثناء صلواته بالمسلمين. وقد أكد ابن عباس أن النبي ﷺ ما قرأ على الجن ولا رآهم بنفسه أبداً، وإنما أخبره الله باستماعهم إلى تلاوته لا غير، قال شيخ الإسلام المصلح الكبير المرحوم السيد محمد الخضر حسين في تعليقه على «موافقات الشاطبي»: «مضى صدر الإسلام، وليس من مدَّع رؤية الجن، أو التلقي عنهم، أو التزوج بهم، أو استحقاقهم لأن يُتَقَرَّبَ إليهم بالذبائح والأطعمة، حتى قام من يزعم ذلك كله، واتَّسع خرق هذه الضلالة، فكانت إحدى العلل التي فتكت بعقول كثيرة، وألقت بها في تخيلات سخيصة، ومزاعم يتبرأ منها الشرع الحكيم، قبل أن يتهمك بها النظر الصحيح».

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾، حكاية لوقع القرآن الكريم في نفوس هذا النفر من الجن، وأنهم وجدوه «عجَبًا»، أي: على غير المألوف والمعهود في كلام الخلق، لأنه تحيطه هالة من الهيبة والجلال، وتنبعث منه

أشعة نورانية تخترق جميع الحُجُب، بوصفه «كلام الله»، وأنهم وجدوه «يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ»، أي: يفتح الأبصار، ويُبِير البصائر، ويُوَجِّه نحو الطريق السويِّ في السلوك والمعاملة والتصرف، وأنهم بعدما تأثروا بأسلوبه وروحه ومُحتواه لم يَسْعَهُمْ إِلَّا الإيمان به دون تردد: ﴿فَتَأْمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

وقوله جلّ علاه: ﴿وَإِنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، تنزيه لله تعالى واعتراف بعظمته، وتقديرٌ له حقّ قدره، «فالجُدُّ» هنا بمعنى القَدْر والمَقَام، وهذه الآية تكذيب من مومني الجن لمشركي قريش فيما كانوا يعتقدونه من تناسل الملائكة عن الجن، ونسبة الصاحبة والولد، إلى الواحد الأحد، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾، استنكارٌ من مومني الجن لما يقوله سفهاء الجن وكفارهم من الافتراء على الله، نظير ما يقوله سفهاء الإنس وكفارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ تُقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: ما حَسِبْنَا أَنْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ يَتِمَالُؤُونَ عَلَى الْكُذْبِ وَالْبَهْتَانِ، فَيَنْسُبُونَ لِلَّهِ مَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ مِنَ الزُّوْجَاتِ وَالْوُلْدَانِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي: إن الجن لما رأت أن الإنس يعوذون بهم لخوف الإنس منهم زادوهم تخويفاً وإرهاباً، وازدادت

الجنُّ بذلك جُرأةً على الإنس.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، أي: إن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن ظنوا كما يظن كفار الجن أن الله لن يبعث رسولاً عقب «الفترة» التي مرت منذ بعثة عيسى عليه السلام، لكن ها هو الرسول قد بعثه الله، وها هو الكتاب قد أنزله الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مُلْتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾. يفيد أن الجن كانوا خلال «عهد الفترة» بين رسالة عيسى عليه السلام ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين يحاولون الإتصال بالملأ الأعلى لإستراق السمع، لكن هذه المحاولة لم يبق لها مكان ولا إمكان، منذ بعث الله رسوله محمداً عليه السلام، وأنزل عليه القرآن، فالطريق إلى الملأ الأعلى محروس بحرس شديد من عند الله، ويحيط به خطٌّ من الشُّهب الموجهة للحيلولة دون التناول على أسرار علم الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَا نَعْرِى أَسْرًا رِيدَ بَمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا﴾، اعتراف من مومنى الجن بأنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم تبعاً لذلك لا يعرفون حكمة الله فيما أحاط به مكنون السماء، من الحرس الشديد، والشُّهب الثاقبة.

ومن اللطائف هنا ما في التعبير المحكى عنهم من الأدب مع الله، فقد أسندوا «الشُّرَّ» إلى المجهول، ولم يُبينوا فاعله:

﴿ لَا نَذْرِي أَشْرٌ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾، بينما أسندوا «الخير» مباشرة إلى الله تعالى: ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴾، تقرير لأن عالم الجن يُشبه عالم الإنس، بما فيه من الاستعداد للالتحاق بركب الصالحين أو بغير الصالحين، فهم أيضاً مختلفون في الاتجاه والعمل، منهم الكافر ومنهم المومن.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا ظَنَّنَا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾، إشارة إلى إيمانهم بأن قدرة الله حاكمة عليهم، وأنهم حتى لو حاولوا الهروب منها لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَأَمْنَا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾، إعراب عن إيمانهم بكتاب الله بعد سماعه. وعن اهتدائهم بهديه، وعن ثقتهم بوعد الله الذي لا يظلم أحداً من عباده مثقال ذرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾، تأكيد لأنه يوجد بين الجن مومنون وكافرون. ومن اللطائف هنا التعبير عن «الكافر» بلفظ «قاسط» أي: ظالم، لأن الكفر يُجامع الظلم ويُماشيه، بينما وقع التعبير عما يقابل «القاسط» أي الظالم بكلمة «مسلم»، كأن لفظ «مسلم» مرادف للفظ «عادل»، وذلك إشارة إلى أن المسلم متى كان مسلماً حقاً لا يكون إلا ملتزماً للعدل مطبوعاً على الإحسان، عدواً للظلم والظالمين.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى الحديث عن الاستقامة وما يترتب عليها من الآثار الطيبة في الدنيا والآخرة: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾، وإلى الحديث عن حرمة المساجد وقداستها ورسالتها في الإسلام: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، وإلى الحديث عما يتحمّله رسول الله ﷺ من أذى المشركين وتكثّلهم ضد الدين الحنيف: ﴿وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

واتجه الخطاب الإلهي إلى خاتم النبيين والمرسلين، مُلقنًا إياه ما يردُّ به هجمات المشركين، وما يبطل ادّعاءاتهم، ويوقف اعتداءاتهم، مشيراً إلى ما يحرس به رسوله من الحفظ الكرام، حتى يُبلِّغ رسالة ربه في حفظ الله ورعايته: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «المزمل» المكية، وفي مطلعها أمر من الله لرسوله عليه السلام بالقيام والخروج من دَفء البيت إلى أكبر مُعترك في الحياة، ألا وهو أداء الرسالة، التي أعدته لها الأقدار الإلهية، إلى الناس كافة، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ قُمْ إِلَيْكَ قَلِيلًا نَصَفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

ومندُ صَدَرَ هذا الأمر الإلهي لخاتم الأنبياء والمرسلين وهو قائم على قَدَم وساق يُبَلِّغ الرسالة، ويُوَدِّي الأمانة، حوَالِي ثلاث وعشرين سنة، دون ملل ولا فتور، مُمْتَثِلًا أَمْرَ رَبِهِ بالصبر على أذى المكذِّبين، مُحَذِّرًا إِيَّاهُمْ من عذاب يوم الدين: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾، ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مَنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾.

وختِم هذا الربع بالإشارة إلى أن هذه السورة، بما فيها من آيات بينات، إنما هي موعظة لمن أراد أن يتعظ، وتذكرة لمن أراد أن يتذكر، والسعيد كلُّ السعيد من اتَّعَظَ وتذكر، وفكَّر في عاقبة أمره وتدبر، ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْبَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفِهِ، وَثُلُثِيهِ، وَطَائِفَةٌ
مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نُحْصِيَهُ فَثَابَ عَلَيْكَ
فَاقْرَأْهُ وَأَمَّا تَبَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ، وَءَاخِرُونَ
يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ، وَءَاخِرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ فَاقْرَأْهُ وَأَمَّا تَبَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا
وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَشِيبَاكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرِّجْزَ
فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُوتَ وَتَكُنَّ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا أَنْقَرْتُمْ فِي النَّاقِرِ ﴿٨﴾
فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ، وَمَا لَأَمَدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ، تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾

ثُمَّ يَطْعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهُقُهُ وَصَعُودًا ﴿١٧﴾
 إِنَّهُ وَفَكَرَّ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾
 ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا لِلْأَسْحَرِ بُرْثُ ﴿٢٤﴾
 إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَذْرِيكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾
 لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوْحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا
 أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا
 لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ
 الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ
 مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ
 وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٣٢﴾
 وَاللَّيْلَ إِذَا دَبَّرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكَبِيرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا
 لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ
 رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّتِ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ
 الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾
 وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ
 بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِيْنَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَتَ مِنْ
 قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٥٢﴾
 كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾
 وَمَا تَذَكَّرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «المزمل» المكية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفِهِ وَثُلُثَيْهِ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «المُدَّثِّر» المكية: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرْهُ وَمَا تَذَكَّرُونَ إِلَّا أَنَّ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

تعود الآيات الكريمة في مطلع هذا الربع إلى الحديث مرة أخرى عن «قيام الليل» الذي كان أوجبه الله على المسلمين في فجر الإسلام، وعلى رأسهم أول المسلمين سيد الأنام، عليه الصلاة والسلام، فقد اقتضت حكمة الله، إعداداً لنيبه، واختياراً للطائفة الأولى من المومنين، أن يفرض عليه وعليهم التهجد بالليل، واستمرت هذه الفريضة سارية المفعول مدة غير قصيرة، وإلى فرضها أشار قوله تعالى في الربع الماضي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمْ إِلَيْكَ إِلَّا قَلِيلًا نُّصَفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيلًا﴾.

وروي عن عائشة أنها قالت: «إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة - تقصد سورة المزمّل - فقام رسول الله وأصحابه حَوَلًا، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعًا، من بعد ما كان فريضة، وإلى هذا «التخفيف» وجعل قيام الليل تطوعًا بعد أن كان فرضاً يُشير قوله تعالى في هذا الربع الذي هو موضوع حديث اليوم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِيهِ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَّنْ نُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، قال ابن كثير: «وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من السلف إن هذه الآية نَسَخَتْ ما كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل».

ورغمًا عن إسقاط فريضة «التَهَجُّد» فإن رسول الله ﷺ بقي يتهجّد بالخصوص طوال عهد الرسالة، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، ولم يقل قيامه عن ثلث الليل، وكان ﷺ يُوتر بإحدى عشرة ركعة، فلما تقدم به السن أخذ يُوتر بسبع ركعات، ثم يُصلّي ركعتين وهو جالس، كما روى عن عائشة رضي الله عنها، وذلك امثالاً لقوله تعالى خطاباً لرسوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾. قالت عائشة: «كان رسول الله ﷺ يقرأ السورة فيرثّلها، حتى تكون أطول من أطول منها»، وسُئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله، فقالت: «كان

يُقَطَّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةٌ آيَةٌ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». الحمد لله رب العالمين. الرحمان الرحيم. مالك يوم الدين».

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، أي: إنه سبحانه يُطِيلُ مِنْ هَذَا، وَيُقْصِرُ مِنْ ذَلِكَ فَيَطُولُ اللَّيْلُ وَيَنْقُصُ، وَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا أحياناً، وَيَعْتَدِلَانِ أحياناً، طَبَقاً لِلنَّامُوسِ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، إشارة إلى فرض قيام الليل، الذي كان الله قد فرضه على المسلمين اختباراً لهم، وإن كان يعلمُ عجزهم عن مُوَالاةِ القيام به دائماً، وَهَا هُوَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ يُخَفِّفُهُ عَنْهُمْ، حَتَّى لَا يَكُونَ عَلَيْهِمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، وَيَشْهَدُ لِمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ (الأنفال: ٦٦).

وقوله تعالى: ﴿فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، إِذْنٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكْتَفُوا بِقِرَاءَةِ مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ، أَثناءِ صَلَاةِ اللَّيْلِ، وَفَسَّرَ ابْنُ كَثِيرٍ هَذِهِ الْآيَةَ بِمَعْنَى: «قَوْمُوا مِنَ اللَّيْلِ مَا تيسَّرَ» مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ، لَا بِثُلَاثِي اللَّيْلِ وَلَا بِنُصْفِهِ وَلَا بِثُلُثِهِ».

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَعَآخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَآخِرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، إِشارةً إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ فِي التَّخْفِيفِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ فَرِيضَةِ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَجَعَلَ قِيَامَهُ تَطَوُّعاً لَا غَيْرَ، فَهَذَاكَ

«مَرَضَى» لا يسمح لهم مرضهم بقيام الليل، وهناك «مسافرون» يضرَبون في الأرض، سعيًا في طلب الرزق والتكسب بالتجارة، ابتغاءً فضل الله، قد يَضْطَرُّون إلى السفر لِيلاً فضلاً عن النهار، وهناك «مجاهدون» يُنتظر أن يُكْرَسوا حياتهم للجهاد في سبيل الله، قد تدعوهم الضرورة إلى الانتفاع بالسرى والمشى إلى ساحة الجهاد ليلاً، «وعند الصُّباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرى» كما يقول المثل العربي.

ثم عقب كتابُ الله على هذه الأعدار الشرعية المعقولة وما مائلها، بإعادة أمر «التَّخْفِيفِ» وتكريره مرةً أخرى فقال تعالى: ﴿فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ﴾، أي: الآن خفف الله عنكم، فخففوا إذن على أنفسكم، واكتفوا بقراءة ما تيسر من القرآن فيما تيسر من صلاة الليل، حسبما تسمح به ظروفكم، دون مشقة زائدة ولا إرهاق. وكان الحسنُ البصري يرى أن من الواجب على حَمَلَةِ القرآن أن يقوموا بقراءة شيء منه في الليل.

ونبه ابنُ كثير إلى أن ذَكَرَ «القتال في سبيل الله» في هذه السورة المكية، ولم يكن القتالُ قد شُرِعَ بعد، يُعدُّ من أكبر دلائل النبوة، لأنه من بابِ الإخبار بالمُغيبات المستقبلة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، يفيد صدور الأمر الإلهي للمسلمين بأداء الصلاة مع إيتاء الزكاة منذ كانوا بمكة، وقبل أن ينتقلوا إلى المدينة، قال ابن كثير: «وهذا يدلُّ لمن قال إن فرض الزكاة نزل بمكة، لكنَّ مقادير النُصبِ والمُخرَجِ منها لم يُبيِّنْ إلا بالمدينة، والله أعلم».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾، أي: إن ما تقدمونه بين أيديكم لآخرتكم تجدونه عند الله خيراً لكم مما أبقيتهم وراءكم في دُنْيَاكُمْ. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا مَالُ أَحَدِكُمْ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ»، رواه البخاري في صحيحه والنسائي في سُنَنِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، إشارة إلى الأثر الطيب الذي يُثِمِرُهُ العملُ الصالح، فإنه طريق إلى غفران الله ونيل رضوانه.

ولنتقل الآن إلى سورة «المُدَّثِّر» المكية أيضاً، مستعينين بالله، وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله أنه كان يقول: «أولُ شيءٍ نَزَلَ من القرآن ﴿يَأْيُهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، فقد سأله أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن، فقال له: ﴿يَأْيُهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، قال أبو سلمة: قلت: يقولون: ﴿أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، قال له جابر: لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ورواه مسلم أيضاً وفيه: أن جابر بن عبد الله سمع رسول الله ﷺ يُحَدِّثُهُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ، وَأَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿يَأْيُهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ وَثِيَابُكَ فَطَهَّرْ وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ﴾، ثم حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَبَاعَ. قال ابن كثير: «وخالف الجمهور جابر بن عبد الله، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى: ﴿أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، ثم بَيَّنَّ أَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ رَاوِيَةِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَرَأْيِ الْجُمْهُورِ

ممكّن وغير متعذر، على أسا أن ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ هو أوّل قرآن نزل على رسول الله، لأوّل ما تلقّى الوحي من عند الله، ثم فتر الوحي مُدَّة، وبعد استئناف الوحي إلى رسول الله كان أوّل شيء ينزل عليه من القرآن سورة «المُدَّثِّر»: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾، إلى آخر الآيات.

وقوله تعالى: ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾، انتداب وجهه الحق سبحانه وتعالى إلى رسوله للقيام بتلقي الرسالة وتبليغها إلى الناس، وإغراء له على استقبال مرحلة جديدة من الحياة، هي حياة الكفاح والجهاد في سبيل الله، والتطوُّع الدائم لهداية الخليفة إلى خالقها، وإرشاد الإنسانية إلى مُبدِعِها.

وقوله تعالى: ﴿ وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ ﴾، أمر من الله لرسوله بالطهارة التي هي من أوّلى شعائر الإسلام وضرورياته. وثبه ابن كثير إلى أن هذه الآية قد تشمل الطهارة من الذنوب، والطهارة من الإثم، وطهارة الجسم والثياب، وطهارة القلب أيضاً. فإن العرب تطلق لفظ «الثياب» حتى على القلب، بحيث يكون من جملة معاني الآية: «وقلبك فطهِّر».

وقوله تعالى: ﴿ وَالرَّجَزَ فَاهْجُرْ ﴾، أي: حارب الأصنام والأوثان، وادعُ الناس إلى هجرها.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُنُّنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾، قال ابن عباس: ﴿ أي: لا تُعْطِ العطيّة تلتبس أكثر منها، وقال الحسن البصري: «لَا تَمُنُّنْ بِعَمَلِكَ عَلَى رَبِّكَ تَسْتَكْثِرُهُ»، واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أمرٌ للرسول عليه السلام بالتأهب والاستعداد لتحمل تكاليف الرسالة وأعبائها، وعدم التأثر بما يقف في طريقها من العقبات والعراقيل، وأنواع الأذى، على غرار قوله تعالى في سورة «المزمل» السابقة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، وكما أن «الصبر الجميل» هو الذي لا شكوى معه «فالهجر الجميل» هو الذي لا عتاب معه.

وقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا، إِنَّهُ كَانَ ءَآلِيتِنَا عَنِيدًا. سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾، توعدُّ من الله جلَّ جلاله لمن أنعم عليه ربه بأجلِّ النعم، فكفر بأنعم الله، وقابلها بالجحود والعصيان، ولم يعترف لربه بأيِّ شكر أو امتنان، على غرار قوله تعالى في سورة «المزمل» السابقة: (١٠ - ١٢) ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهَّلْهُمْ قَلِيلًا إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾، أي: ما جعلنا خزنة جهنم، المكلفين بها، إلا من الملائكة، وقد وصف الحق سبحانه في آية أخرى خزنة جهنم بأنهم «غلاظ شديد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون» فالمراد «بأصحاب النار» في هذه الآية بالخصوص خزنة جهنم، لانفس المعدِّين فيها، بينما المراد «بأصحاب النار» في غيرها من الآيات أهل النار أنفسهم، المعدَّبون فيها على الدوام.

وتحدث كتابُ الله في الآيات الباقية من هذا الربع عن إيمان المومنين الذين يزداد إيمانهم على مر الأيام، وعن نفاق المنافقين الذين في قلوبهم مَرَضٌ، وعن جنود الله المبتوثة في أرجاء الكون، والتي لا يُحصيها إلا خالقها، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، وعن عذاب النار وأهلها، وما يلقاه المجرمون فيها، وعن نعيم الجنة المُقِيم، وما يلقاه المومنون فيها من الرعاية والتكريم. ووضَّح كتابُ الله «حَيْثِيَّاتِ الْحُكْمِ الْإِلَهِيِّ» العادل، الصادر بعذاب المجرمين، إذ قال تعالى حَاكِياً لاعترافاتهم وعلى لسانهم: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى آتَيْنَا الْيَقِينَ﴾، ثم عقب كتابُ الله على اعترافاتهم قائلاً: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾، إشارةٌ إلى القرآن العظيم، ورسالته السامية التي يُؤديها للخلق، فهو الذي يُذكر الناسين، ويُنبئ الغافلين، ويهدي الضالين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، تنبيهٌ إلى وجوب الأدب مع الله في كل ما يأتيه المومن من أعمال وتصرفات، بحيث يربطها في ذهنه ويقينه دائماً بمشيئة الله العليا، فهو الذي بيده مقاليد الكون الظاهرة والباطنة، وكما أنه سبحانه «أهل» لأن يتقيه عباده، ويلتزموا طاعته وتقواه، فهو سبحانه أيضاً «أهل» لأن يغفر لعباده إذا أنابوا إلى ربهم وتابوا إليه من ذنوبهم، ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾.

الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ① وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ② أَيَحْسِبُ الْإِنْسَانُ
أَلَّنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ③ بَلَى قَدَرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ④ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ
لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ ⑤ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ⑥ فِإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ⑦ وَخَسَفَ
الْقَمَرُ ⑧ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ⑨ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ⑩
كَلَّا لَا وَزَرَ ⑪ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ⑫ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ
بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ⑬ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ⑭ وَلَوْ أَلْبَسْنَا
مَعَاذِيرَهُ ⑮ لَا تَحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ⑯ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ
وَقُرْءَانَهُ ⑰ فِإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ⑱ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ⑲
كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ⑳ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ㉑ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ㉒
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ㉓ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ㉔ نَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ㉕
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ㉖ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ㉗ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ㉘ وَالتَّفَّتِ

السَّاقُ بِالسَّاقِ ① إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ② فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ③
 وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ④ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَسِلًا ⑤ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ⑥
 ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ⑦ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ⑧ أَلَمْ يَكُ
 نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَىٰ ⑨ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ⑩ فَجَعَلَ مِنْهُ
 الذَّوَجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ⑪ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ⑫

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ① إِنَّا خَلَقْنَا
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ② إِنَّا هَدَيْنَاهُ
 السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ③ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا
 وَسَعِيرًا ④ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ⑤
 عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ⑥ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
 يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ⑦ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِنَا وَيُنْتَهَىٰ
 وَأَسِيرًا ⑧ إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لِيُوجِهَ اللَّهُ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ⑨
 إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ⑩ فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ
 وَلَقِيَهُمْ نُزْرَةٌ وَسُورًا ⑪ وَجَزَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ⑫
 مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ⑬ وَدَانِيَةً

عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ⑩ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنِيَّةٍ مِّنْ
فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ⑪ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ⑫
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ⑬ عَيْنًا فِيهَا تُسْمَى سَلَاسِيلًا ⑭

الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في فاتحة سورة «القيامة» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه في سورة «الإنسان» المكية أيضاً: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾.

في مطلع هذا الربع وهو فاتحة سورة «القيامة» المكية، إشارة إلى أمرين اثنين: الأمر الأول القيامة وأحوالها. والأمر الثاني: النفس وأحوالها، وكانَّ فاتحة هذه السورة براعة استهلال، فقد استغرق الحديث عن هذين الأمرين السورة بتمامها، من بدايتها إلى نهايتها، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، والمقسم عليه في هذا المقام هو نفي ما يزعمه المشركون، من أنه لا قيام للساعة ولا بعث للإنسان، والتأكيد على إثبات المعاد، وبعث الأجساد.

أما «يوم القيامة» فمعروف، وأما «النفس اللوامة» فقد قال

مجاهد: «هي التي تندم على ما فات وتلوم عليه»، وقال الحسن البصري: «إنَّ المومن - وَاللَّهِ - ما نراه إِلَّا يلوم نفسه، ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟، وإنَّ الفاجر يَمْضِي قُدماً ما يُعَاتِبُ نَفْسَهُ»، والأشبه بظاهر التنزيل في رأي ابن جرير أن «النفس اللوامة» هي التي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات، وقال ابن عطية: «كلُّ نفس متوسطة ليست بِمُطْمَئِنَّةٍ ولا أَمارة بالسوء، فإنها لَوَامَةٌ في الطرفين، مرةً تَلومُ على ترك الطاعة، ومرةً تَلومُ على فَوْتِ ما تشتهي، فإذا اطمأنت خَلَصَتْ وَصَفَتْ، ولعل كلمة «الضمير» بالمعنى المتعارف اليوم ترادف كلمة «النفس اللوامة»، ولا سيما إذا كان ضميراً حَيًّا لا ميتاً، فَوَخَزُ الضمير يشابه لوم النفس من عدة وجوه.

وتساءلَ كتابُ الله عن الوهم الذي يُدَاخِلُ بعض النفوس الضعيفة، ولا سيما نفوس المشركين، وهو استبعادهم إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته، المعبرَ عنها هنا «بِجَمْعِ عِظَامِهِ بَعْدَ افْتِرَاقِهَا» حيث قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، ثم أجاب كتابُ الله على هذا التساؤل الغريب بما يفيد أن الله قادر على ذلك وعلى أكثر منه، وليس بعزيز على قدرته سبحانه أن يُنْشِئَ الإنسان في خلق جديد، أو أن يُعيد تكوينه على ما كان عليه بأدقِّ أجزائه وجميع تفاصيله، بحيث لا ينقص من الإنسان المعروف أيُّ عضو من أعضائه مهما صغر، ولا يتبدل فيه شكلُ أيِّ عضو مهما دَقَّ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾، ولا غرابة في هذا، فإنَّ الإنسان

ليس إلا مخلوقاً من صُنع الله وإبداعه، وهو سبحانه الذي انفرد بإنشائه سلالةً ونوعاً وأفراداً، منذ ظهر على وجه الأرض إلى يوم الدين: ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الكهف: ٥١].

ثم بين كتاب الله لماذا يميلُ ضعاف النفوس إلى عدم الإيمان بالبعث والنشأة الآخرة، موضحاً أن السبب في ذلك هو ما يطغى عليهم من الشهوات واللذات، وما يُغرقون فيه من أنواع الفسق والفجور، وما يحرصون عليه من تقادي كل ما يُنغصُ عليهم هذا النوع التافه من «العيش البهيمي» الذي أَلْفُوهُ ولا يستطيعون عنه انفكاً، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾، قال مجاهد: «لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ» أي: ليمضي أمامه ركباً رأسه.

ووضح كتابُ الله نفسية ضعف النفوس الفجرة، وإصرارهم على ما هم فيه من فسق وفجور، ومحاولتهم بكل الوسائل لدفع «شبح» البعث والنشأة الآخرة عن خيالهم المريض، وذلك بتكذيبهم لوجوده حيناً، واستبعادهم لوقوعه حيناً آخر، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾، أي: يسأل ذلك الإنسان عنه سؤال استبعادٍ لوقوعه، حتى لا يَقْضِ مضجعه، ولا يُنغصُ عيشه، لأنه يرغب في أن يفجر، وأن يمضي في فجوره باستمرار، دون مُكَدِّرٍ ولا مُعَقِّبٍ، لكن الإنسان المكذب بالبعث، المستبعد لوقوعه، حرصاً على الاستمتاع بشهوته دون حساب، لا يلبث أن يُفاجأ بالحقيقة المرة، عندما يرى أن القيامة قد قامت، وأن ساعة

البعث قد حَلَّتْ، فَيَسْأَلُ إِلَى أَيْنَ الْفِرَارُ؟ وَيَجِدُ نَفْسَهُ وَقَدْ سَقَطَ فِي شَرَكِ الْأَقْدَارِ، أَحْقَرَ وَأَعْجَزَ مِنْ فَارٍ: ﴿فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ﴾.

وَيُرَدُّ كِتَابُ اللَّهِ عَلَى سُؤْلِ الْفَاجِرِ الْمُسْتَهْتِرِ، الْمَكْذِبِ بِالْبَعثِ وَالنُّشُورِ، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، أَي: هَا أَنْتَ قَدْ وَقَعْتَ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ، وَلَيْسَ لَكَ أَيُّ مَكَانٍ تَعْتَصِمُ فِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾، أَي: إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، أَي: يُخْبِرُ الْإِنْسَانَ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِ، أَوْلَاهَا وَأَخْرَاهَا، قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، مَا قَدَّمَهُ قَبْلَ وَفَاتِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى تِلْكَ الْأَعْمَالِ بَعْدَ وَفَاتِهِ مِنَ الْأَثَارِ، هَلْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَيَكُونُ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا؟ أَوْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَيَكُونُ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا؟ وَهَذَا هُنَا يَنْكَشِفُ السُّتَارَ، وَتَسْقُطُ الْأَعْدَارُ، فَهَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ قَدْ أَطَّلَعَ عَلَى كِتَابِهِ، وَهَذَا هُوَ قَدْ تَلَقَّى سَجَلِ حِسَابِهِ، وَكَفَى بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ حَسِيبًا، وَشَاهِدًا وَرَقِيًّا: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.

وَاتَّجَهَ الْخَطَابُ الْإِلَهِيَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، مُلْقِنًا إِيَّاهُ الْكَيْفِيَّةَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا عِنْدَ تَلْقِي الْوَحْيِ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ، وَالْمَرَاهِلَ الَّتِي تَتَّبَعُ ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى فِي خُطَابِهِ لِنَبِيِّهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، فَالْحَالَةُ الْأُولَى بَعْدَ تَلْقِيهِ

القرآن من المَلَكِ جَمَعُهُ فِي صَدْرِهِ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ ، والحَالَةُ الثَّانِيَةِ تَلَاوَتُهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ، والحَالَةُ الثَّلَاثَةُ تَفْسِيرُهُ وَإِبْضَاحُ مَعْنَاهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ معناه إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك .

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ، أي: بعد حفظه وتلاوته نبينه لك، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا، كما فسره ابن كثير، وإلى هذا الموضوع نفسه يشير قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١١)، قال المفسر الشهيد: «إن الإيحاء الذي تركه في النفس هذه الآيات هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن، وحيًا وحفظًا وجمعًا وبيانًا، وإسناده إليه سبحانه بكلية، ليس للرسول ﷺ من أمره إلا حملُهُ وتبليغُهُ، ثم لهفَةُ الرسول ﷺ وشدة حرصه، على استيعاب ما يُوحى إليه، وخشيته أن ينسى منه عبارة أو كلمة، مما كان يدعوهُ إلى متابعة جبريل عليه السلام في التلاوة آية آية، وكلمة كلمة، يستوثق أن شيئاً منها لم يفتَهُ، ويتثبت من حفظها فيما بعد» .

ثم عاد كتابُ الله إلى مخاطبة الغافلين المغرورين الذين يستغرقون كلَّ حياتهم في الشهوات والملذات دون أن يحسبوا لما بعدها أيَّ حساب، فقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ، وكان في هذا الخطاب تلويحاً إلى ما في طبع الإنسان

من غريزة «العجلة»: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء: ٣٧)،
 فيحكم هذه الطبيعة البدائية يميل الإنسان الغافل إلى الاستمتاع
 بيومه قبل غده، ويلتهم العيش التهاماً، دون أن يفكر في
 العواقب، على حد قول القائل: «ولك الساعة التي أنت فيها»،
 لكن العاقل من شغل عمره بما يستمر ويبقى، لا من يشغله بما
 يمر ويفنى. ولعل هذا هو السر في وصف القرآن الكريم للدينا
 في هذه الآية باسم «العاجلة» إيماءً إلى قصر مدتها، وسرعة
 فنائها، وإشارةً إلى استغراق الغافلين المغرورين في شهواتها
 وملذاتها، خشيةً فواتها.

وانتقل كتابُ الله بعد ذلك إلى وصف ما أعدَّه الله في
 الآخرة للمتقين المُصدِّقين، وما أعدَّه فيها للمُحْرُومين المكذِّبين:
 ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ تَتَّبَعُ
 يَفْعَلُ بِهَا فَاقِرَّةٌ﴾.

ويتساءلُ كتابُ الله سؤال استنكار واستغراب: ﴿أَيَحْسَبُ
 الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾، أي: أليظنُّ الإنسان أنه خُلِقَ ليترك في
 حياته هَملاً لا يُؤمر ولا يُنهى، وأنه خُلِقَ ليترك بعد موته منسياً لا
 يحاسب ولا يعاقب: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِي تَمْنِي تُمْرُ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً
 فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ
 عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الإنسان» المكية أيضاً،
 مستعينين بالله، سائلين منه الهداية والتوفيق.

وفي مطلع هذه السورة الكريمة يعود الحديث من جديد إلى موضوع الإنسان الذي لم يخلقه الله سُدى، وبيِّنُ كتاب الله أنه قد مَضَى زمن طويل على العالم دون أن يَكُونَ فيه لِلإنسان وجود ولا ذكر، ويشير إلى أن وجوده فيه إنما هو طارئ عليه، لحكمة إلهية اقتضت إيجاده وإمداده، وهي حكمة الإبتلاء والتكليف والخلافة عن الله في الأرض، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾.

وواصل كتاب الله الحديث عن الأبرار والفقار من بني الإنسان، فوصف كلا الفريقين، ووضح جزاء الطرفين، فعن الفقار وجزائهم قال تعالى هنا: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾، وعن الأبرار وجزائهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

وعرض كتاب الله في نفس السياق مكارم الأخلاق التي يدخل بها الناس في عداد «الأبرار» السعداء حيث قال تعالى في وصفهم: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾.

ثم عاد كتاب الله إلى الحديث عن جزاء الأبرار حيث قال

تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَّيْهِمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّيْهِمُ نَضْرَةً
وَسُرُورًا وَجَزَيْهِمُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ
لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾، إلى قوله تعالى في نهاية هذا
الربع: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾.

الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّيَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ
مِنْهُمْ ءَاءِ إِشْمًا أَوْ كُفُورًا ﴿٢٤﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ
وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا
نَشَأْنَا بَدَلْنَا أُمَّثْلَهُمْ تُبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخِذْ إِلَى
رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾
يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ① فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ② وَالتَّشْرَاتِ نَشْرًا ③
 فَالْفِرْقَتِ فَرْقًا ④ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ⑤ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ
 لَوَاقِعٌ ⑦ فَإِذَا الْجُؤْمُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑨
 وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِتْ ⑩ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِنَتْ ⑪ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫
 لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑬ وَمَا أَذْرَبِكُ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ⑭ وَيَلُ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ⑮ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ⑯ ثُمَّ نُنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ ⑰
 كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ⑱ وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑲
 أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ⑳ فَجَعَلْنَاهُ فِي قُبُورٍ مَكِينٍ ㉑ إِلَى قَدَرٍ
 مَعْلُومٍ ㉒ فَتَدْرَأُونَ ㉓ فَتَدْرَأُونَ ㉔ وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ㉕
 أَلَمْ نَجْعَلِ الْآرْضَ كِفَاتًا ㉖ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ㉗ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِي
 شِمَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ㉘ وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ㉙
 أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ ㉚ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي
 ثَلَاثِ شُعَبٍ ㉛ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ㉜ إِنَّهَا تَرْمِي
 بِشَرِّ رَاكِبٍ ㉝ كَأَنَّهُ جُمَلَةٌ صَفْرَاءُ ㉞ وَيَلُ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ㉟ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ㊱ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ ㊲

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾
 فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
 الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا
 وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾
 وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ جُدُمُونَ ﴿٤٦﴾
 وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾
 وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الإنسان» المكية: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «المرسلات» المكية أيضاً: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾.

تواصل الآيات الكريمة في بداية هذا الربع وصف ما أعده الله لعباده «الأبرار» من ضروب النعيم وصنوف الإحسان، وفي خلال هذا الوصف يقول الله تعالى في خطابه لنبيه: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا ﴾، أي: إذا رأيت يا محمد الجنة وما هي عليه رأيت نعيماً حقيقياً لا يُنغصه أي منغص، ولا يساويه أي نعيم عرفه الناس، ورأيت ملكاً إلهياً كبيراً، تتضاءل دونه جميع مظاهر الملك البشري المحدود، فملك الله لا يُعادله غيره في السلطان الباهر، والنفوذ القاهر. ولا غرابة فيما يفاجأ به الذين آمنوا بالله ورسوله في دار النعيم، فقد وعدهم الله أن يُكرمهم «بِمَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

وفي خلال هذا الوصف يقول الله تعالى بشأن عباده الأبرار: ﴿وَسَقِيهِمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، وقد فسره ابن كثير بأن الله تعالى طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة، اعتماداً منه على أثر روي في الموضوع عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وبذلك جمع لهم الحق سبحانه وتعالى بين نضارة الظاهر وجمال الباطن، إذ قال تعالى في حقهم في الربع السابق: ﴿وَلَقَّيْهِمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

وتفضل الحق سبحانه وتعالى، فأعلن إلى عباده «الأبرار» أنه قد برّ بوعده، وأوفى بعهده، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾، بمعنى أن هذا النعيم المقيم الذي يتقبلون فيه - على سعته وعظمته - هو إحسان من الله إليهم، تكريماً لتقواهم، وتقديراً لنواياهم، بالرغم من أنه لا نسبة بين عملهم المحدود المنتهي في الدنيا، ونعيم الله الواسع الذي لا نهاية له في دار الخلود.

وانتقل كتاب الله إلى دعوة الرسول عليه السلام إلى الثبات على الحق، وإلى تبشيره بمددٍ روحانيٍّ جديد يُمدّه الله به من عنده، حتى يقوى على مواجهة قريش بعنادها وإصرارها وتكثُلها، ومن ورائها إذ ذاك - من الوجهة المعنوية - قوات الشرك والكفر والطغيان في العالم أجمع، مذكراً له بالرسالة العظمى التي أنزلها عليه في الذكر الحكيم، أمراً له بالاعتصام بالصبر والثبات، في وجه جميع العراقيل والعقبات، داعياً إياه إلى مكافحة الإثم والكفر كفاحاً لا هوانة فيه ولا تنازل، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعُ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ .

ولا بأس من التنبيه هنا على أن التعبير في هذه الآية وأمثالها بصيغة «نزل»: ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ ، يفيد بمقتضى الاستعمال اللغوي لهذه الصيغة بالذات أن كتاب الله لم ينزل على رسوله دفعة واحدة، وإنما نزل بالتدرج وبالتتابع على دفعات، حسب التخطيط الإلهي لمناسبات نزوله، وحسب الوقائع والأحداث، وبذلك يؤدي لفظ «نزل» في هذا السياق معنى خاصاً لا يؤديه غيره من الأفعال الأخرى المشتقة من هذه المادة.

ثم اتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، أمراً له بالذكر والعبادة والتسبيح والسجود، ولا سيما في خلوات الليل، فقال تعالى: ﴿ وَادْكُرْ إِسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ ، على غرار قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء: ٧٩)، وذلك لأن العبادة بكافة أشكالها وأنواعها عونٌ عظيم على تحمُّل الأعباء الجسم، ولا سيما أعباء الرسالة، وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ .

والتنويه «بعبادة الليل» في هذا المقام، وحض الرسول عليها بالخصوص، يناسب ما يمتاز به الليل من السكون والهدوء، وما يساعد عليه من جمع الفكر والتأمل والتدبر في آيات الله القرآنية

والكونية، والاستغراق في مُنَاجاتِهِ دون انقطاع، على حدِّ قوله تعالى في سورة (المزمل: ٥): ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾، بمعنى أَنَّ قيام الليل هو أَشَدُّ مواطأةً بين القلب واللسان، وأَجْمَعُ للخاطر عند تلاوة القرآن.

وعادَ كتابُ الله مرة أخرى إلى التَّنِيدِ بموقف المشركين والكفار، وما هم عليه من الاستغراق في الشهوات والاستهتار، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، وقد جاء التعبير عن الدنيا في هذه السورة أيضاً باسم «العاجلة»، على غرار ما سبق في سورة (القيامة: ٢٠، ٢١)، إذ قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾، «فالعاجلة» هي الحياة الدنيا، التي مهما طالت فهي قصيرة الأجل، ومهما أبطأت فهي مُسرعة الخُطى، وحظُّ كلِّ إنسان منها أسرع وأقصر، بحيث لا يستحق أن يُذكَر، «واليوم الثقيل» الذي تركوه أمامهم، وتشير إليه الآية هنا، هو «يوم القيامة». فهو «ثقيل» بتبعاته الكبيرة، ومسئوليته الخطيرة، حيث يُحشَر الخلقُ أمام خالقهم للعرض والحساب، وهو «ثقيل» بنتائجه وعواقبه، حيث يتلقى الخلقُ أحكامَ خالقهم، إمَّا بالثواب وإمَّا بالعقاب.

وانتقلت الآياتُ الكريمة إلى التهوين من شأن «أصحاب العاجلة» المغرورين المستغريقين في شهواتهم، المنتهكين لحُرَمات الله، والمتعدِّين لحدوده، مبيِّنة أنهم مدينون بكل شيء لله الذي خلقهم، والذي أمدهم بكل ما يستعملونه من طاقات وملكات، وأن ما يسيئون التصرف فيه، من نِعَم الله وعطاياه، إنما

هو عاريةٌ مستردّة، وسيحاسبون عليها حساباً عسيراً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾، وقوله تعالى في نهاية السياق: ﴿ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾، يُمكن تفسيره بمعنى أن الله تعالى قادر على أن يعثهم يوم القيامة ويُعيد خلقهم من جديد، من باب الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، ويمكن تفسيره بمعنى أن الله تعالى إذا شاء أبادهم من الدنيا عقاباً لهم، وأتى بغيرهم من الناس، على حد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ (النساء: ١٣٣)، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (فاطر: ١٦)، (١٧).

وعادت الآيات الكريمة مرةً أخرى إلى الحديث عن «كتاب الله» والتنويه بما جاء به من الهداية والنور للإنسانية جمعاء، مع الإشارة إلى أن في طليعة أهدافه تذكير الناسين، وتنبيه الغافلين، إلى ما عليهم من حقوق الله وحقوق لمخلوقاته يلزمهم القيام بها، وصرف الوجهة إليها، وذلك قوله تعالى هنا، ونفسُ هذا النص سبق نظيره في سورة (المزمل: ١٧): ﴿ إِنْ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾، ولا طريق إلى الله والوصول إلى معرفته ورضاه، أفضل وأضمن من كتاب الله، روي عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه سئل عن المخرج من الفتن فقال: «المخرج منها كتابُ الله، فيه نَبَأٌ مَنْ قَبْلَكُمْ، وخبرٌ ما

بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو حبلُ الله المتين، ونوره المبين، والذكرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم، وهو الذي لا تزيغُ به الأهواء، ولا تلتبسُ به الألسنة، ولا تشعب معه الآراء، ولا يشعب منه العلماء، ولا تملهُ الأتقياء، ولا يخلقُ عن كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم». قال ابن كثير: «وقد وهم بعضهم في رفع هذا الحديث».

وقوله تعالى هنا: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، يمكن أن يفهم على وجهين:

- الوجه الأول: أنَّ المومِنَ ينبغي له أن يربط أعماله وتصرفاته بمشيئة الله، أديباً مع الله من جهة، وتوكلاً عليه من جهة أخرى، بحيث لا يعتقد أنَّ إرادته المحدودة هي الكلُّ في الكل، وذلك على حد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إني فاعِلٌ ذَلِكْ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الكهف: ٢٣).

- والوجه الثاني: أنَّ المومِنَ ينبغي له أن يلتجئ إلى الله دائماً، ويطلب منه الهداية والتوفيق فيما يُقدِّم عليه من أعمال وتصرفات، حتى يُيسر له أسباب النجاح من جميع الوجوه، وقد سبق في ختام سورة «المدثر» قوله تعالى: ﴿وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وهو يشابه تمام المشابهة قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

ثم عَقِبَ كِتَابُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، أي: «عليماً» بنواياكم في أعمالكم وتصرفاتكم، «حكيماً» في تيسير أسبابها والتصديق عليها إن كانت خيراً، أو في تعطيل أسبابها، والتعرض لها، إن كانت شراً، والله الحجة الدائمة، والحكمة البالغة.

والآن فلننتقل بعون الله وتوفيقه إلى سورة «المرسلات» المكية أيضاً، وهذه السورة الكريمة تتناول بالوصف مشاهد القيامة وأحوالها بالنسبة لجميع الأكوان، ولا سيما ما يتعرض له الإنسان، وكما سبق في سورة «الرحمان» التعقيب على كل نعمة من نعم الله بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وتكرر ذلك إحدى وثلاثين مرة، نجد التعقيب ها هنا على كل حجة وبرهان، من حُجج الله القاطعة، وبراهينه الساطعة، بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ويتكرر ذلك عشر مرات، عَقِبَ مَخْتَلَفَ الآيات.

وقد سَجَلَتْ هذه السورة في مطعها قَسَمًا غليظاً بعدد من القوات المسخرة لله، الماثثة في الآفاق، وهذا القَسَمُ يَنْصَبُ على أن ما وَعَدَ اللَّهُ به من قيام الساعة، والبعث، والحشر، والجزاء، واقع لا محالة، وإن كَذَّبَ به المكذِّبون، وأنكره المنكرون، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا وَالنَّشْرَاتِ نَشْرًا فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا عُدْرًا أَوْ نَذْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ﴾.

والمراد «بالمرسلات» هنا الرياح، بناءً على ما يُستفاد من

قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِحَ﴾ (الحجر: ٢٢)، وفي آية ثالثة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ (الأعراف: ٥٧)، و«العاصفات» و«الناشرات» هنا وصفان للرياح «المرسلات»، إذ كثيراً ما تصحب الرياح عواصف تهبُّ معها، وسحبٌ تنتشر في السماء إثرها.

والمراد ﴿بِالْفَرْقَتِ فَرَقًا، الْمُمْلَقَاتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة المكرمون، كما قاله ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما، فإن الملائكة تنزل بأمر الله على رسله بما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وتلقى إلى رسله من الوحي ما فيه إعدارٌ للخلق حيناً، وما فيه إنذارٌ لهم حيناً آخر، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ذِكْرًا عُدْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

ثم عرّض كتابُ الله على جميع الأنظار صورة حية من مشهد الانقلاب العظيم الذي سيشهده الكون عندما ينفرط عقده، وتتقوّض أركانه، وهذا المشهد قادم لا محالة بشهادة القرآن العظيم أولاً، وهذه الشهادة عندنا هي الأساس، واعتراف البحث العلمي الحديث ثانياً، وهذا الاعتراف لمن له به استئناس، فسيأتي يوم تتفجّر فيه القوى المخزونة في الكون، ويكفي أن يقع الانفجار في كوكب واحد ليمتدّ منه الانفجار إلى الكواكب الأخرى فيحيلها دُخاناً وغباراً، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾، أي: ذهب ضوءها ونورها، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾، أي: انفطرت وانشقت، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِّتْ﴾، أي: أصبحت هباءً مثوراً بعد نسفها واقتلاعها من أصلها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْتَتْ لَأَيَّ يَوْمٍ أَجَلْتُمْ﴾، إشارة إلى أن يوم القيامة هو الموعد الذي يُقدَّم فيه الرسل إلى بارئهم حساباتهم مع الذين أرسلوا إليهم من البشر، ويعرضون فيه النتائج التي أثمرتها الرسالة الإلهية إلى مختلف الأمم والشعوب، سلباً وإيجاباً، على حد قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَجِءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٦٩)، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٩)، فقد أُجِّل هذا الموعد الفصل: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَا أَدْرِيكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ وَيَلُومُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ومضى كتاب الله يتحدث عن مصارع الأمم الغابرة، وعن آيات الكون الباهرة، وعن أهوال الآخرة، وعمّا يكون فيه المتقون من النعيم المقيم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، وعمّا يكون فيه المجرمون المكذبون من العذاب الأليم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾.

وللمرة العاشرة جاء قوله تعالى في هذا السياق: ﴿وَيَلُومُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثم جاء التعقيب عليه بسؤال مُقتَضِب يثير الاستغراب والعجب، ألا وهو قوله تعالى في ختام هذه السورة: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي إذا أصرُّوا على التكذيب بالقرآن، ولم يؤمنوا بما فيه من حكمة وبيان، وحجة وبرهان، وهو ﴿الذكي الحكيم﴾ الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه ﴿ فبماذا سيؤمنون؟ أيؤمنون بالرأي العقيم، والفكر السقيم،
ويُعطلون ملكة العقل السليم والفهم القويم؟ وقد سبق في (سورة
الأعراف: ١٨٥) وَضَعُ هَذَا السُّؤَالَ فِي سِيَاقِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ
يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ
عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ② الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③
 كَلَّا سَيَعْمُونَ ④ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْمُونَ ⑤ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ⑥
 وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑦ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ⑧ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ⑨
 وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ⑩ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ⑪ وَبَدَيْنَا فَوْقَكُمْ
 سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ⑫ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ⑬ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
 مَاءً ثَمَّاجًا ⑭ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮ وَحَبَّتِ الْأَنْفَاءُ ⑯ إِنَّ يَوْمَ
 الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ⑰ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ⑱ وَفُتِحَتْ
 السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ⑲ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ كَأَنَّهَا سُرَابًا ⑳ إِنَّ جَهَنَّمَ
 كَانَتْ مِرْصَادًا ㉑ لِلطَّالِعِينَ مَا بَأْسًا ㉒ لَلَّذِينَ فِيهَا أَلْحَابًا ㉓ لَا يَذُقُونَ
 فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ㉔ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ㉕ جَزَاءً وَفِاقًا ㉖ إِنَّهُمْ
 كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ㉗ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ㉘ وَكُلَّ شَيْءٍ

أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۞ فذُوقُوا فَلَنْ تَزِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا ۞
 إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۞ وَكَأْسًا
 دِهَاقًا ۞ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ۞ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً
 حِسَابًا ۞ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ
 مِنْهُ خِطَابًا ۞ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ
 إِلَّا مَن أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ۞ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن
 شَاءَ ابْتَحِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَعَابًا ۞ أَنَا أَنذَرْتُكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ
 الْمُرءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ۞

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّزْعَتِ غَرَقًا ۞ وَالنَّشِطَلِ نَشْطًا ۞ وَالسَّيْحَتِ سَبْحًا ۞
 فَالسَّبِقَتِ سَبْقًا ۞ فَاَلْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ۞ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۞
 تَتَّبِعُهَا الرَّاادِفَةُ ۞ قُلُوبٌ يُّومِئِدٍ وَاجِفَةٌ ۞ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۞
 يَقُولُونَ أَيْنَا الْمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۞ إِذَا كَأَعْظَمَ نَجْرَةً ۞
 قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۞ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۞
 فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۞ هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۞ إِذْ نَادِيَهُ
 رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ إِذْ هَبَّ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۞

فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزْبِكِيَ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَجَبْتِي ﴿١٩﴾ فَأَبْرِهِ
 الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾
 فَخَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْآعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ
 الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ
 خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنِيهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ
 ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحِيهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا
 وَمَرْعِيهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعِمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَاذْجَأَتْ
 الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرُزَّتْ أَلْحَمِيمُ
 لِمَنْ يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ
 الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ۖ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
 فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في فاتحة سورة «النَّبَأُ» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه في سورة «النازعات» المكية أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

في مطلع هذا الربع، وهو فاتحة سورة «النَّبَأُ» المكية، يتحدث كتابُ الله مرةً أُخرى عن البعث «يوم الفصل» الذي يُصدّق به المومنون، ويكذّب به الكافرون، فهم في شأنه مختلفون، وقد سماه الله تعالى في فاتحة هذه السورة الكريمة (بالنَّبَأِ الْعَظِيمِ)، فقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ، كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، أي: أن هذا النبأ نبأ صادق مطابق للواقع، وليس لصدقه ولا لوقوعه من دافع، وسيرونه عياناً، ويُذعنون له إذعاناً، ثم انقطع الحديث عن «يوم الفصل» في هذا السياق، لينتقل إلى

استعراض جملة من آيات الله في الأنفس والآفاق، وكلها تدل على قدرة الله التي لا يحُدُّ طاقتها حدٌّ ولا يصعب عليها شيء، وهذا الانتقال إنما هو في الحقيقة تمهيد للعودة إلى تفسير «النبا العظيم»، ووصفه وصفاً كاشفاً مشيراً، فقال تعالى مُبَكِّتاً لِلشَّاكِّينَ فِي النِّبَاِ الْعَظِيمِ وَالْمَكْذِبِينَ بِهِ، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾.

ومن هنا عاد الحديث «إلى النبا العظيم» وهو البعث «يوم الفصل»، فقال تعالى في شأنه أولاً: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، وقال تعالى في شأنه أخيراً في ختام هذه السورة: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا إِنََّّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. وقال مجاهد: «النبأ العظيم هو القرآن».

وتناول كتاب الله بهذه المناسبة الحديث عن «الطَّاغِينَ» وعقابهم، فقال تعالى في شأنهم: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَثَابًا لِّلَّذِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا

حَمِيمًا وَغَسَاقًا جَزَاءً وَفَاقًا ﴿١﴾ وكشف الحق سبحانه عن أكبر ذنب ارتكبه، واستحقوا من أجله العقاب والعذاب، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا، فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

ثم عرَّج كتاب الله على ذكر «المتقين» وثوابهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأَسَاءَ دِهَاقًا لَا يُسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾.

والآن فلنقف وقفه خاصة عند بعض الآيات من هذه السورة الكريمة:

فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، امتنان من الله تعالى على الإنسان بأن منحه راحة النوم، وجعل نومه قطعاً للحركة اليومية وتوقفاً عنها، حتى يستريح جسمه ويستجم، وتهدأ أعصابه من مواصلة السعي وكثرة التردد، علاوة على ما في سكون النوم من تعويض عن الجهد المبذول خلال اليقظة، وأثناء الانشغال بمتاع الحياة، وشاءت حكمة الله ورحمته أن يتم النوم بطريقة غيبية وقهرية، لا دخل فيها لتصرف الإنسان، ولا قدرة له على مقاومتها متى حل موعد النوم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾، إشارة إلى الشُّحْب التي تثيرها الرياح، فيتساقط ما فيها من الماء، وينزل على الأرض لصالح من فيها، من الإنسان والنبات والحيوان، و«الماء الثَّجَّاج» هو المتتابع الصَّب، وإلى هذا المعنى يشير قوله

تعالى في آية أخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَسْطُرُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ﴾ (الروم: ٤٨).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، المراد «بالصور» شيء يشبه البوق، سينفخ فيه يوم القيامة لدعوة الخلائق إلى ميقات جمعهم المعلوم، ولم يضاف كتاب الله إلى ذكر اسمه أي بيان عنه ولا عن كيفية، فذلك من «علم الغيب».

وقوله تعالى: ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، أي: أن الجبال التي كانت ثابتة في مكانها قبل يوم القيامة لا يبقى منها عند قيام الساعة عين ولا أثر، نظير المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (النور: ٣٩).

وقوله تعالى «للطاغين» الوارد في مقابلة قوله تعالى «للمتقين» في هذه السورة، إشارة إلى أن «تقوى الله» من شأنها أن تحول بين صاحبها وبين انتهاك حُرُمات الله، وأن لا تسمح له بتعدّي حدود الله، وبذلك يكون بعيداً عن الظلم والطغيان، ملتزماً في تصرفاته للعدل والإحسان.

وقوله تعالى في شأن الطاغين: ﴿لَبِئْسَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، أي: ماكثين في جهنم أحقاباً، والأحقاب جمع «حُقب» كما ورد في قوله تعالى: ﴿لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ (الكهف: ٦٠)، والحُقب هو المدة الطويلة من الدهر،

«والحِقْبَةُ» من الدهر تُجْمَعُ عَلَى حِقْبٍ وَحُقُوبٍ، وهذه الآية حَمَلَهَا خَالِدُ ابْنِ مَعْدَانَ عَلَى «أَهْلِ التَّوْحِيدِ»، وَمِثْلُهَا عِنْدَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فِي (سُورَةِ هُودٍ: ١٠٧)، بِمَعْنَى أَنَّ الْعُصَاةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَذَّبُوا بِجَهَنَّمَ فَإِنَّهُمْ لَا يَخْلُدُونَ فِيهَا، وَإِنَّمَا يَلْبَثُونَ فِيهَا مَدَّةً مُحَدَدَةً، ثُمَّ يَفَارِقُونَهَا إِلَى الْجَنَّةِ بِمَغْفَرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ مِنْهُ، وَحَمَلَ قَتَادَةُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لَسِيئِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، عَلَى غَيْرِهِمْ، أَيُّ أَنَّ «الطَّاغِينَ» يُعَذَّبُونَ فِي جَهَنَّمَ عَذَابًا لَا انْقِطَاعَ لَهُ، بِحَيْثُ كُلَّمَا مَضَى «حُقْبٌ» جَاءَ بَعْدَهُ حُقْبٌ آخَرَ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ هُوَ الَّذِي رَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فَقَالَ: «وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا أَيُّ الْأَحْقَابِ لَا انْقِضَاءَ لَهَا كَمَا قَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَيَشْهَدُ لِهَذَا التَّفْسِيرِ وَيُؤَكِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي نَفْسِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي نَفْسِ السِّيَاقِ: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، أَيُّ: يُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ: ذُوقُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ، فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا مِنْ جِنْسِهِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ (ص: ٥٦ - ٥٧): ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَعَآخِرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: «لَمْ يَنْزَلْ عَلَى أَهْلِ النَّارِ آيَةٌ أَشَدَّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَهَمَّ فِي مَزِيدٍ مِنَ الْعَذَابِ أَبَدًا»، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ «الطَّاغِينَ»: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾، أَيُّ: تَكْذِيبًا، وَهُوَ مُصَدَّرٌ مِنْ غَيْرِ الْفِعْلِ.

وقوله تعالى في شأن المتقين: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾، أَيُّ: أَنَّ أَسْمَاعَهُمْ لَا يُؤْذِيهَا سَمَاعُ اللَّغْوِ الْعَارِي عَنِ الْفَائِدَةِ، وَلَا سَمَاعُ التَّكْذِيبِ الْمَتَّبَعِ بِالْجَدَلِ، وَمَا دَامُوا فِي «دَارِ السَّلَامِ»، فَهَمَّ فِي دَارِ لَا خِصَامَ فِيهَا وَلَا مَلَامَ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى

ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾ (الطور: ٢٣)، وقوله تعالى في آية ثانية: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْرِفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (يوسف: ٩٢).

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾، أي: عطاءً كافياً وافياً، تقول العرب أعطاني فأحسبني أي: كفاني، ومنه «حَسْبِيَ اللَّهُ» أي: أن الله كفاني، ويشبهه قوله تعالى في آية سالفه: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيكُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإنسان: ٢٢).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾، أي: يوم يقوم جبريل والملائكة معه، استناداً إلى قوله تعالى عن جبريل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣).

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾، يشابه قوله تعالى في «آية الكرسي»: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، (البقرة: ٢٥٤) وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (هود: ١٠٥).

وقوله تعالى حكايةً عن الكافر: ﴿يَلْتَلِيَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾، معناه أن الكافر حين يعاين عذاب الله يوم القيامة يوّد أن لم يُخلَق، ولم يُخرَجْ إلى الوجود، ويتمنى لو أنه كان تُراباً، ولم يكن إنساناً.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «النازعات» المكية أيضاً،

مستعينين بالله، وفي مطلع هذه السورة إشارة إلى جملة من القوات الكونية التي سخرها الله وبثها في الكون، لتنفيذ أمره فيه، وتدبير شؤونه طبقاً لمشيئته، ووفقاً لحكمته. فقال تعالى:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالنَّزْعَتِ غَرَقًا وَالتَّنَشِيطِ نَشْطًا
وَالسَّبْحِ سَبْحًا فَالسَّبْقِ سَبْقًا فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا يَوْمَ تَرْجُفُ
الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾.

ولتقريب معنى هذه الأشياء المُقسَم بها من الأذهان يُمكن أن يكون معنى «النازعات غَرَقًا» كل ما أُودِعَ فيه قوة نَزْع الأشياء من مقارها بشدة، وأن يكون معنى «الناشطات نَشْطًا» كل ما أُودِعَ فيه قوة إخراج الأشياء في خفة ولين، وأن يكون معنى «السابحات سَبْحًا» كل ما أُودِعَ فيه قوَّة السرعة في تأدية وظائفه بسهولة ويُسر، وأن يكون معنى «السَّابِقَاتِ سَبْقًا» كل الأشياء التي تسبق في أداء ما وُكِّلَ إليها سَبْقًا عظيمًا، وأن يكون معنى «الْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا» كل الكائنات التي وُكِّلَ اللهُ إليها تدبير الأمور وتصريفها، بما أُودِعَ فيها من خصائص، وهذه المعاني التي اختارتها لجنة (الْمُتَخَبِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ)، هي أعم ما يمكن أن تُحْمَلَ عليه المفردات الواردة في مطلع هذه السورة، المُقسَم بها على قيام الساعة وزلزلتها العظمى، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج: ١)، وبذلك يقع تفادي ما وقع في تفسير هذه المفردات من تضارب واختلاف عند قدماء المفسرين، وقال ابن عباس: «الرَّاجِفَةُ وَالرَّادِفَةُ» هما النفختان الأولى والثانية» وقال مجاهد: «أما الأولى وهي قوله تعالى هنا: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ

الرَّاجِفَةُ ﴿﴾، فهي كقوله جلت عظمته: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ (المزمل: ١٤)، وأما الثانية وهي قوله تعالى هنا: ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، فهي كقوله جلّ علاه: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (الحاقة: ١٤). ويمكن حمل «الرادفة» على السماء، بمعنى أنها تَرُدُّفُ الأرض وتتبعها في الانقلاب الكوني عند فناء العالم، حيث تنشق وتتناثر كواكبها.

وقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾، إشارة إلى ما يملك القلوب يوم القيامة من الهلع والخوف، وما يُصيب الأبصار من الذل والانكسار، لهول الموقف وشدته.

وقوله تعالى حكاية عن المشركين المكذّبين ومن لفّ لفهم: ﴿أ. نَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ إِذَا كُنَّا عَظْمًا نَخْرَةً﴾، معناه أنهم يستبعدون الخروج من القبور، ويشكّون في البعث والنشور، ويتساءلون كيف «يُردُّون» أحياء بعدما أصبحوا عظاماً نخرَةً، ثم لا يلبثون أن يتخيلوا أن «البعث» قد وقع، وأنهم كانوا على غير حق في استبعاده، فيعودون على أنفسهم باللوم قائلين: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، أي: قال المشركون الذين يُنكرون البعث: لئن أحيانا الله بعد الموت لنخسرنَّ خسارة مؤكدة، وخسارتهم آتية من تكذيبهم بالله ورسوله واليوم الآخر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾، إشارة إلى أرض المحشر التي يُحشر إليها الخلائق، وموقع هذه الأرض هو من «علم الغيب» الذي اختصَّ الله به دون خلقه. وقال مجاهد: «كانوا

بأسفل الأرض فأخرجوا إلى أعلاها».

وانتقل كتابُ الله من وصف يوم القيامة وذكر أحواله وأهواله إلى الحديث عن قصة موسى وفرعون، باعتبارهما نموذجاً لانتصار الحق على الباطل، فبين الدعوة التي وجهها موسى عليه السلام إلى فرعون مصر بأمر الله، وبين ما كان عليه فرعون وملائته من الكبر والغرور والتطاول على الله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾.

وعادَ كتابُ الله إلى التذكير بآيات الله البارزة في كونه، التي لا يجادل فيها إلا أعمى البصر والبصيرة: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ﴾.

وختِمَ هذا الربع باستيناف الحديث عن النشأة الآخرة، وما يناله «الطاغون» من عذاب، و«المتقون» من ثواب، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَعَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين
في المصحف الكريم

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا ۖ ﴿٤٦﴾
فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۖ ﴿٤٧﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهِيهَا ۖ ﴿٤٨﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ
مَنْ يَخْشَاهَا ۖ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَآ يَلْبَثُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحِيهَا ۖ ﴿٥٠﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۖ ﴿٥١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۖ ﴿٥٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۖ ﴿٥٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ
فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرَىٰ ۖ ﴿٥٤﴾ أَمَا مِنْ إِسْتَعْجِلٍ ۖ ﴿٥٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ وَتَصَدَّىٰ ۖ ﴿٥٦﴾ وَمَا
عَلَيْكَ الْأَيُّزَىٰ ۖ ﴿٥٧﴾ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۖ ﴿٥٨﴾ وَهُوَ يَخْبَىٰ ۖ ﴿٥٩﴾ فَأَنْتَ
عَنْهُ تَلَهَىٰ ۖ ﴿٦٠﴾ كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ۖ ﴿٦١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ ﴿٦٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۖ ﴿٦٣﴾
مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۖ ﴿٦٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۖ ﴿٦٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۖ ﴿٦٦﴾ قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا
أَكْفَرُهُ ۖ ﴿٦٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ ﴿٦٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ وَفَقَدَرَهُ ۖ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ
السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۖ ﴿٧٠﴾ ثُمَّ أَمَّانَهُ وَأَقْبَرَهُ ۖ ﴿٧١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۖ ﴿٧٢﴾ كَلَّا لَمَّا
يَقْبِضْ مَا أَمْرُهُ ۖ ﴿٧٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۖ ﴿٧٤﴾ إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۖ ﴿٧٥﴾

ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَاقًا ① فَأَلْبَتْنَا فِيهَا حَبَابًا ② وَعَيْنًا وَقَضْبًا ③ وَزَيْتُونًا
 وَنَخْلًا ④ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ⑤ وَفِكْرَةً وَأَبْنَا ⑥ مَتَعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ⑦
 فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ⑧ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ⑨ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ⑩
 وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ⑪ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ⑫
 وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ⑬ ضَاكَّةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ⑭ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
 عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ⑮ تَرَهَقُهَا قَتَرَةٌ ⑯ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجِرَةُ ⑰

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ
 سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤
 وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ
 سُئِلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ
 كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا النُّجُومُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجِنَّةُ أُرْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ
 نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑭ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ⑮ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ⑯
 وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ⑰ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ⑱ إِنَّهُ وَلَقَوْلُ رَسُولٍ
 كَرِيمٍ ⑲ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ⑳ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ㉑
 وَمَا صَجَبَكُمْ بِهِمْ حُنُونٌ ㉒ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ㉓ وَمَا

هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾
فَإِنَّ تَذَهُبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ
أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «النازعات» المكية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا﴾، إلى قوله جلّ جلاله في ختام سورة «التكوير» المكية أيضاً: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

في بداية هذا الربع، وهي نهاية سورة «النازعات» المكية يواصل كتابُ الله الحديث عن قيام الساعة، وتساؤل الناس عن موعدها، وخاصة منهم المكذّبين الذين يشكون في قيامها، والذين يستعجلون العذاب ليتأكدوا من حساب الله وعقابه، وذلك قوله تعالى حكاية لسؤالهم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا﴾.

ثم يخاطبُ الله نبيه عليه السلام، منبهاً إياه إلى أن أمر الساعة أعظم وأخطر من أن يسأل عنه سائل، أو يجيب عنه مُجيب، وأن الرسول عليه السلام مهما سُئل عن موعدها وألح عليه السائلون في الجواب فإنه لا يستطيع أن يعطيهم جواباً شافياً، لأن العلم بموعد الساعة مردهُ إلى الله، فقد انفرد به دون

سواه، ولا أَحَدَ من الخلق - مهما علت منزلته - ولو كان رسولاً أو نبياً، يعلم وقتها على التحديد والتعيين، وذلك قوله تعالى خطاباً لنبيه: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِيهَا إِلَى رَبِّكَ مُنتَهِيهَا﴾.

وَلَفَّتِ الوحيَ الإلهيَ نظرَ الرسولِ عليه السلام إلى أن مهمته الوحيدة، ورسالته المحدودة، بالنسبة لقيام الساعة، لا تتجاوز حدَّ التعريف بها وبأشراطها، والإنذار بها وبأهوالها، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشِيهَا﴾.

وَبَيَّنَ كتابُ الله أن عُمُرَ الحياة الدنيا مهما طال فهو قصير بالنسبة إلى الحياة القادمة، فستَقومُ الساعة في موعدها المحدد الذي لا يعلمه إلا الله وحده، وسيبعث الناس من قبورهم عند قيامها، وسيُدركون لأول وهلة أن الفترة التي قضاها قبل البعث - بما فيها فترة الحياة والموت معاً - كأنها عشيّة من العشايا، أو ضُحوة من الضُحايا، في قصرها وسرعة انقضائها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحِيَّةً﴾، «عشيّة» أي: ما يعادل فترة العصر إلى غروب الشمس «أو ضُحاهَا» أي: ما يعادل فترة طلوع الشمس إلى الزوال.

وهنا ننتهي من سورة «النازعات» المكية لنتنقل إلى سورة «عبس» المكية أيضاً، سائلين من الله التوفيق.

ومطلّع هذه السورة يخُصُّصه كتاب الله لأمر جَلَل، ألا وهو التنبية إلى التزام «مبدأ المساواة» بالنسبة لجميع السائلين والمستفتين، في نشر الهداية وتعليم الدين، وإيثار «الراغب في

الحق» بإعطائه الأسبقية في العون والإرشاد، بدلاً من إيثار «الراغب عن الحق»، الذي لا يزال متأرجحاً بين الصلاح والفساد، فقد بنى الإسلام على أن أحق الناس في نظره بالإكرام والاعتبار والتقدير هو أقواهم إيماناً، وأشدُّهم استقامة، وأكثرهم تقوى، طبقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾.

وقد أراد كتابُ الله أن يُركِّز هذا المعنى في أذهان المؤمنين، ويقوي أثره في نفوسهم، حتى تكون «المساواة» في العلم والدين شريعتهم الأولى والأخيرة، فاتخذ الوحي الإلهي من إحدى المناسبات التي كان فيها رسولُ الله ﷺ جالساً مع زُمرة من صناديد قريش، - وكان يتصدى لهم كثيراً ويحرص على أن يومنوا بالله ورسوله - ثم أقبل عليهم في نفس الوقت، وانضم إليهم مجلسهم فجاء عبدُ الله بن أمِّ مكتوم الذي كان ضريراً فقيراً، مناسبةً لتأكيد المبدأ الإسلامي الأصيل، في اعتبار القيم الأخلاقية والمعنوية للناس، قبل القيم المادية والاجتماعية المتعارفة:

ذلك أن رسول الله ﷺ كان في مجلسه هذا مشغولاً بالنفر الذين قدموا عليه من صناديد قريش إذ ذاك، مستغرقاً في الحديث معهم يعرض عليهم الإسلام، ويحاول أن ينتزع من صدورهم رواسب الشرك، عسى أن يشرح الله صدورهم للإيمان، ويكُونُوا قوَّةً للإسلام والمسلمين، فلما جاء عبدُ الله بنُ أمِّ مكتوم وهو ضريبر لا يرى ولا يعرف من هم الجالسون مع رسول الله ﷺ، أخذ يقطع على رسول الله حديثه معهم، وأخذ يُلح عليه في تعليمه بعض آيات من الذكر الحكيم، ويقول له: يَا رَسُولَ اللَّهِ:

(عَلَّمَنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ)، وصادفَ أن رسول الله عليه السلام لم يُجبه في الحين إلى ما طَلَب، لأنَّه كان في ذلك المجلس منهمكاً في إقناع صناديد قريش بالإسلام، حرصاً منه على استجابتهم لله ورسوله، وقياماً بما أوجب الله عليه من تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، ولا سيما لهؤلاء الذين لا يزالون على شركهم، والذين يُنتظرُ أن يكونوا مدداً جديداً للإسلام لو دخلوا في دين الله، أما عبدُ الله بنُ أمِّ مكتوم فقد كان إذ ذاك مؤمناً بالله ورسوله، بل مؤدِّناً رسول الله الثاني بعد بلال، مؤذنه الأول.

وعما حدث بهذه المناسبة يتحدث كتاب الله فيقول:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾، إشارة إلى مجيء عبد الله بن أم مكتوم وانضمامه إلى مجلس الرسول عليه السلام، والرسول مستغرق في عرض الإسلام على أولئك النفر من صناديد قريش، وإلى تأثر الرسول عليه السلام من قطع ابن أم مكتوم عليه حديثه معهم، ومن إلحاحه عليه أن يُعلِّمه فوراً بعض آيات الذكر الحكيم، بينما كان في إمكانه أن ينتظر، إذ هو مؤمن أولاً، ومُرافق للرسول وفي صحبته دائماً.

وبعد هذا العتاب الإلهي المسوق في صيغة الغائب:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾، تخفيفاً من وقعه على رسول الله ﷺ، يتجه الخطاب الإلهي إلى الرسول عليه السلام وجهاً لوجه، قائلاً له:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّهُ يَزَكِّي أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى﴾، وفي هذا النص بيان لأولوية ابن أم مكتوم ومن كان في معناه من المومنين، الراغبين في المزيد من العلم والمعرفة بالدين.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَىٰ فَأَن ت لَهُ تَصَدَّىٰ﴾، إشارة إلى أولئك النَّفَر من صَنَادِيد قريش إذ ذَاكَ، وما هم عليه من رغبة عن الحق، وتظاهر بالإستغناء عن الإسلام وعدم الحاجة إليه، إذ لا يزالون يُحَاجُّون الله ورسوله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَىٰ﴾، وليس المراد بلفظ «استعنى» معنى الغنى وكثرة المال، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، إشارة إلى أن واجب الرسول عليه السلام هو مجرد التبليغ، بحيث إذا قام بهذا الواجب تَبَرَّأَ ذِمَّتُهُ: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَّغُ﴾ (الشورى: ٤٨).

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ فَأَن ت عَنْهُ تَلَّهَىٰ﴾. إشارة إلى ابن أم مكتوم ومن كان في معناه من المؤمنين، الذين يرغبون في الحق ويُقبلون عليه، فالله تعالى يحضُّ رسوله - وعن طريقه يحضُّ كافة المسلمين - على الإهتمام بطلاب الحق وتلبية رغبتهم، والأخذ بيدهم في طريق الهداية والإرشاد والتعبير «بالتَّلهَىٰ» هنا إشارة إلى استغراق رسول الله ﷺ في حديثه مع وفد قريش حول الدعوة الإسلامية، وكأن في هذا التعبير تلميحاً إلى أن الله قد اطلع على قلوب ذلك الوفد القرشي، وعلم أن الدعوة لا تُثمر فيهم ولا تُجدي، رغماً عما بذله الرسول عليه السلام من جهد بالغ في سبيل إقناعهم، على حد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الرعد: ٣٣).

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التحدث عن «الذكر الحكيم»،

وأثره في النفوس التعطشة إلى الحق، ومنزلته العظمى عند الله ومنزلته في المَلَأ الأعلى، تَنوِيهاً بِقَدْرِهِ، وِحْضاً لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَقْدِيسِهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَالِاهْتِدَاءَ بِهَدْيِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا﴾، أَي: آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ﴿تَذَكِّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

ثُمَّ عَادَ كِتَابُ اللَّهِ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ كُفْرِ الْإِنْسَانِ وَجُحُودِهِ وَتَجَاهُلِهِ لِنِعْمِ اللَّهِ، بَيْنَمَا الْإِنْسَانُ، بِجَمِيعِ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ طَاقَاتٍ وَمَمْلَكَاتٍ وَمَمْتَلَكَاتٍ، إِنَّمَا هُوَ «هَبَّةٌ» مِنْ اللَّهِ أَوَّلًا وَأَخِيرًا، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا مِنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾، أَي: لِعَيْنِ الْإِنْسَانِ الْجَاهِدِ، ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾، أَي: مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ وَجُحُودَهُ، ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾، أَي: بَيَّنَّ لَهُ الطَّرِيقَ وَهَدَاهُ إِلَيْهِ، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾، أَي: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَعْرِقُ فِي غَفْلَتِهِ حَتَّى يَمُوتَ وَيُبْعَثُ، دُونَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدَّى مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ حَقُوقٍ، وَدُونَ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَفَّذَ مَا أَمَرَهُ بِهِ مِنْ أَوْامِرٍ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ خَسَارَتُهُ كَبِيرًا لَا تَعْدِلُهَا خَسَارَةٌ.

وَأَخَذَ كِتَابُ اللَّهِ فِي تَذْكِيرِ الْإِنْسَانِ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَا سِيَّمَا نِعْمَةَ الرِّزْقِ وَالْغِذَاءِ، الَّتِي بَدُونَهَا يَتَعَرَّضُ لِلْإِمْلَاقِ وَالْفَنَاءِ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾.

وَعَادَ الْحَدِيثَ فِي خِتَامِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى «الْقِيَامَةِ» وَأَهْوَالِهَا، وَمَا يَجَازِي بِهِ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ الْأَبْرَارِ، وَمَا يُعَاقِبُ اللَّهُ

به الكفار والفجار: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ .
ومعنى ﴿مُسْفِرَةٌ﴾: مُسْتَنِيرَةٌ. و﴿الْغَبَرَةُ﴾ من الغبار، و﴿الْقَتَرَةُ﴾ بمعنى السواد، كنايةً عما يصيب تلك الوجوه من تغيرٍ وغمٍّ.

ومن هنا نتقل إلى سورة «التكوير» المكية أيضاً، مستعينين بالله، والآيات الأولى من هذه السورة الكريمة تعرض على البشر مشاهد القيامة، مشهداً مشهداً، ولا سيما الانقلاب الكوني الشامل، بما يصحبه من تغيرات مفاجئة في العالم العلويّ والعالم السفليّ وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، ثم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾، وعن مشهد النسر والحشر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾.

وقد ذهب المفسرون لهذه الآيات إلى أن المراد «بتكوير» الشمس إظلامها وذهاب نورها، و«بانكدار» النجوم انتشارها، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَشَرَتْ﴾ (الانفطار: ٢)، و«بتسيير» الجبال تحركها من مكانها ونسفها وزوالها، وأن المراد «بتعطيل العشار» إهمال خيار الإبل من النوق

الحوامل، وتركها من طَرْف أصحابها دون رعاية ولا انتفاع، لانشغالهم عنها، رغماً عن كونهم من أرغب الناس فيها، وأحرصهم على تربيتها، ولفظ «العِشار» يطلق على النوق إذا بلغت مدة حملها عشرة أشهر، والمراد «بحشر الوحوش» خروجها منزعةً من أوكارها وأجحارها لهول الموقف، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ (ص: ١٩)، والمراد «بتسجير البحار» اشتعالها ناراً، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (الطور: ٦)، والمراد «بكشط السماء» طيها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلكِتَابِ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) والمراد «بتزويج النفوس» جمع كل شكل إلى نظيره في الجنة والنار، على غرار قوله تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ (الصفات: ٢٢).

وقوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾، معناه أنه إذا وقعت هذه الأمور كلها فحينئذ سيكشف لكل نفس عما عملت من خير أو شر، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران: ٣٠).

وانتهى هذا الربع بالحديث عن الوحي الإلهي الذي أكرم الله به رسوله وبلغه إليه بواسطة جبريل عليه السلام، وجاء هذا الحديث في صيغة القسم، توكيداً لأهميته، وعظيم منزلته، والمقسم به في هذا السياق هي الكواكب التي تبدو ليلاً لكنها

«تَخْنُسُ» بالنهار، وَ«تَكْنِسُ» كالظُّبَاءِ فتتوارى عن الأنظار، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ الْجَوَارِ الْكُنْسِ﴾، ثم الليلُ عند إِدْبَارِهِ، وَالصُّبْحُ عند إِقْبَالِهِ، ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا عَسَّعَسَ وَالصُّبْحَ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وَالْمَقْسَمُ عَلَيْهِ هُوَ كِتَابُ اللَّهِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أَي: أَنَّهُ لَتَبْلِيغٍ مِنَ اللَّهِ إِلَى رَسُولِهِ عَلَى لِسَانِ جَبْرِيلَ، وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ وَصَفَتْ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةَ مَا جَبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ جَبْرِيلَ مِنَ الْخِصَالِ الرَّفِيعَةِ، وَمَا أَكْرَمَهُ بِهِ مِنَ الْمَكَانَةِ عِنْدَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ﴾، كَمَا وَصَفَتْ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةَ مَا تَحَقَّقَ مِنْ رُؤْيَةِ الرَّسُولِ ﷺ لَهُ مَشَاهِدَةٌ وَعَيَانًا: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾.

وختمت سورة «التكوير» بالتنويه بكتاب الله، ودعوة العالمين إلى الاهتداء بهديه والاستنارة بنوره، فقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ②
 وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ
 مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ
 الْكَرِيمِ ⑥ إِذْ مَسَّ خَلْقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ
 مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ ⑨ وَإِن
 عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كُنُيُنَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫
 إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑭ يَصَلُّونَهَا
 يَوْمَ الذِّينِ ⑮ وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ⑯ وَمَا أَدْرَاكَ
 مَا يَوْمُ الذِّينِ ⑰ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الذِّينِ ⑱ يَوْمَ
 لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ⑲

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَيَلُّ لِلطَّافِينَ ① الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ②
 وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ
 مَبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥
 كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ⑦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ⑧
 كِتَابٌ مَرْقُومٌ ⑨ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑩ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ
 الَّذِينَ ⑪ وَمَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ
 آيَاتُنَا قَالَ أَسْطِيرٌ الْأُولِينَ ⑬ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ⑭ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ⑮ ثُمَّ إِنَّهُمْ
 لَصَالُوا الْجَحِيمِ ⑯ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ⑰ كَلَّا
 إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ⑱ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ⑲ كِتَابٌ
 مَرْقُومٌ ⑳ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ㉑ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ㉒ عَلَى الْأَرَائِكِ
 يَنْظُرُونَ ㉓ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ㉔
 يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ ㉕ خِتَمُهُ وَمِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتِنَافَسِ
 الْمُتَنَفِّسُونَ ㉖ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ㉗ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ㉘
 إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ㉙ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ

يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا ابْتَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٤﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ ﴿٣٥﴾ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانَ يُفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهٖ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَبَيِّنَاتٍ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا بَاسِيرًا ﴿٨﴾ وَيُنْقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلِي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِيهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ وَظَنَّ أَن لَّنْ يَمُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، وبدايته قوله تعالى في فاتحة سورة «الانفطار» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، ونهايته قوله جلّ علاه في سورة «الانشقاق» المكية أيضاً: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَّحُورَ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾.

في مطلع هذا الربع، وهو فاتحة سورة «الانفطار» المكية يتناول كتاب الله الحديث عن انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار، وبُعْثرة القبور، ويشير إلى أن هذه الظواهر الكونية الغربية التي تُزعزع كيان الكون، وتقلبه رأساً على عقب، سترافقها وستصاحبها ظاهرة أخرى تُزعزع كيان الإنسان، لا تقل عنها قوةً ولا تأثيراً، ألا وهي ظاهرة كَشْفِ الإنسان عن حقيقة نفسه بنفسه، وإطلاعه على دخيلة أمره، حتى لا تبقى زاويةً من زواياه، ولا سرٌّ من أسرارهِ، إلّا وقد انكشف له انكشافاً تاماً،

وأُقيت عليه الأضواء من كل جانب، والإنسان - حَسَبَمَا - يعيش عليه في دنياه - يكذبُ على نفسه كثيراً، ويخيَّلُ إليه غير ما مرة أنه أحسنُ مما هو عليه في الواقع، ويحاولُ أن ينسى كل ما ارتكبه من سيّات ومُخالفات، وأن يتناسى كل ما يَصُبُّه على غيره من إذيات وإساءات، ويخدعُ نفسه كلما دعتَه الضرورة إلى خداعها، تفادياً من وَخزها وتبكيّتها، فإذا جاء الموعد لا طّاعه على حقيقته كما هي، وظهر عارياً من كل الأصباغ ومساحيق التجميل، التي اعتاد استعمالها لتستر ما ظهر من عيوبه وما بطن، فستكون مفاجأته بنفسه على حقيقتها أكبر مفاجأة، وسيخيبُ ظنُّه في نفسه، قبل أن يخيب ظنُّه فيما كان يُمنّي به نفسه من الجزاء الحسن، وقبل أن يخيب ظنُّ غيره فيه، ممَّن كان يحاولُ أن يظهر أمامهم في دنياه بمظهر الصلاح والاستقامة وحسن السلوك، فيكتشفون في الآخرة - بدورهم - أنه إنما كان مجرد وحش في صورة إنسان، وشبح ملك في حقيقة شيطان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجرتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثرتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

ويتجه الخطابُ الإلهي بعد ذلك إلى الإنسان المملؤ زهواً وغروراً، لافتاً نظره إلى أنه لا ينبغي له أن يبقى سادراً في غلوائه، متجاهلاً ما عليه نحو ربه وخلقه من حقوق وواجبات، وإلى أن كرم الله على الإنسان بنعمة الإيجاد والإمداد أولى أن يكون حافزاً للإنسان على شكر مولاه وطاعته، والسعي في

مرضاته، بدلاً من أن يكون دافعاً له إلى كفر نعمه، وجحود كرمه، وهكذا يُوجّه كتابُ الله إلى الإنسان، هذا العتاب الإلهي الرقيق، عسى أن يُحرّك في قلبه أوتار الإيمان: ﴿يَأْيَهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَّلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

ويلتفت كتابُ الله مرة أخرى إلى الذين لا يزالون يكذبون بالمعاد والجزاء، مؤكداً لهم أنه قد وكل بهم ملائكة يحفظون أعمالهم، فلا سبيل إلى نسيانها، ويسجلونها بالكتابة، فلا سبيل إلى محوها، وكان الحق سبحانه يُغري عباده في نفس الوقت بالاستقامة والصلاح والتقوى، حتى لا يثيروا اشمئزاز الحفظة الكرام وسخطهم، فضلاً عن أن يثيروا بمعاصيهم سُخط الله وغضبه، إذ «المعاصي بريد الكفر»، والمعصية تجرُّ إلى أختها، ثم تدفع إلى ما هو أكبر منها، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

وينتقل كتابُ الله إلى التذكير بمصير الأبرار ومصير الفجار من خلقه، وما أعدّه في الآخرة لكلا الفريقين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾.

ويبين كتابُ الله أهمية «يوم الدين»، وهو يوم الجزاء الأكبر، يوم تُفصلُ شؤون الخلائق أمام محكمة العليّ الأعلى القاهر فوق

عباده، والذي لا مُعَقَّبَ لحكمه، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِيكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرِيكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

ولنتقل الآن بعون الله وتوفيقه إلى سورة «المطففين» وهي مكية في قول ومدنية في قول آخر، وقد سميت بهذا الاسم، لما ذكر فيها من أمر «المطففين»، والمراد «بالمطففين» التجار الذين ينقصون الكيل إذا كَالُوا للناس، وينقصون الوزن إذا وَزَنُوا لهم بَيْنَمَا إذا كَالُوا أو وَزَنُوا لأنفسهم يأخذون أكثر من حقهم، وإذا كان التطفيف في الكيل والميزان يتمشى مع روح «الجاهلية الأولى»، وما عرف فيها من الربا الفاحش والعقود الفاسدة، فإنه لا ينسجم مع روح الإسلام في قليل ولا كثير، ولذلك نزل كتابُ الله بمحاربتة، والتنفير منه ومن أصحابه، وتهديدهم بالخسران والهلاك والويل، فقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

وتولَّى كتابُ الله بنفسه تفسيرَ المعنى المراد «بالمطففين» فقال تعالى في وصفهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، أي: إذا اکتالوا لأنفسهم من الغير بأن كانوا هم المشترين والغير هو البائع أخذوا حقهم بالوافي والزائد، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، أي: وإذا كَالُوا أو وَزَنُوا لغيرهم - بأن كانوا هم البائعين وكان الغير هو المشتري - نَقَصُوا من حقه في الكيل والوزن، وأعطوه أقل مما يستحق، وألحقوا به الخسارة عن طريق «التطفيف».

ثم تَوَعَّدَ الحق سبحانه هؤلاء اللصوص المحترفين، الذين

يختلسون أموال الناس عن طريق التطفيف في الكيل والميزان، في كل جيل وفي كل زمان، وهَدَّدَهُمْ بالحساب العسير يوم القيامة أمام الله، فقال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: يوم يكون الناس كلُّهم واقفين أمام الله في موقف رهيب، ينطق كلُّ ما فيه بالعظمة والجلال، ويُوحي بالرهبة والخوف من الكبير المتعال.

ثم أخذ كتابُ الله يَصِفُ حالة «الأبرار»، وحالة «الفجار»، إذ لا عبرة في الآخرة إلا بهذا الاعتبار، فأما «الأبرار» الذين عملوا الصالحات، واتبَعُوا في حياتهم مقتضى الآيات البينات، فقد نزل في وصفهم وجزائهم - ترغيباً في سلوك طريقهم والافتداء بهم - قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ خِثْمُهُمْ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ وَمِمَّا جَاءَهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾.

وأما الفجار الذين عملوا السيئات وانتَهَكُوا الحُرْمَات، ووقفوا في وجه ما جاءت به النبوات والرسالات، فقد نزل في وصفهم وجزائهم - تنفيراً من تقليدهم واتباعهم - قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينُ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ

هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٠﴾ .

وَأَلْقَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَعْضُ الْأَضْوَاءِ الْكَاشِفَةِ عَلَى السَّرِ الدِّفِينِ، الَّذِي يَدْفَعُ الْفَجَارَ إِلَى التَّكْذِيبِ «يَوْمَ الدِّينِ» أَلَا وَهُوَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِغْرَاقِ فِي الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَمَنِ الْإِسْتِغْرَاقِ فِي الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ الْجُنُونِيَّةُ الَّتِي يَكُونُونَ عَلَيْهَا، وَلَا يَنْفَكُونَ عَنْهَا طِيلَةَ حَيَاتِهِمْ، تَجْعَلُهُمْ حَرِيصِينَ كُلَّ الْحَرِصِ عَلَى أَنْ يُبْعِدُوا عَنْ خِيَالِهِمْ كُلَّ الْأَشْبَاحِ الْمُزْعِجَةِ، الَّتِي تَدِينُهُمْ عَلَى مَا يَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْمَظَالِمِ وَالْآثَامِ، وَلَوْ كَانَتْ أَشْبَاحًا وَأَحْلَامًا فِي الْمَنَامِ، فَمَا بِالْكَ بَعْدَابِ اللَّهِ، الَّذِي يَنْتَظِرُهُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ أَمَامَ اللَّهِ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى يَشِيرُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُلِّقُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَمَا يُكْذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٠﴾، أَمَا «الْمَقْسِطُونَ» الَّذِينَ لَا يَعْتَدُونَ وَلَا يَظْلَمُونَ، وَأَمَا «الصَّالِحُونَ» الَّذِينَ لَا يَعْصُونَ وَلَا يَأْتُمُونَ، فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ لِقَاءَ اللَّهِ وَيَشْتَاقُونَ إِلَى يَوْمِ اللِّقَاءِ، أَوْضَعَفَ أَوْضَعَفِ اشْتِيَاقِ الظَّمَانِ إِلَى الْمَاءِ. «وَمَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» كَمَا فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ.

وَكشَفَ كِتَابُ اللَّهِ السَّتَارَ عَنِ الْإِسْتِخْفَافِ وَالتَّهْوِينِ مِنْ «قِيَمَةِ الْمُسْلِمِينَ»، فِي نَظَرِ الْكُفَّارِ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ يَضْحَكُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَسْتَهْزِؤُونَ بِهِمْ، وَيَعْتَبِرُونَهُمْ ضَالِّينَ عَنِ سِوَاءِ السَّبِيلِ، وَلَا يَحْمِلُونَ لَهُمْ أَدْنَى تَقْدِيرٍ أَوْ احْتِرَامٍ، بَيْنَمَا الْكُفَّارُ فِي خَاصَّةِ أَنْفُسِهِمْ يَعْتَرُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ، وَيَعُودُونَ إِلَى بِيوتِهِمْ وَهُمْ بِالْمُسْلِمِينَ يَهْزَأُونَ، وَبِأَحْوَالِهِمْ يَتَفَكَّهُونَ، وَذَلِكَ مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا
 انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ
 لَضَالُّونَ ﴿١٠﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾،
 إشارة إلى ما في الكفار من الفضول الزائد، وتتبع أحوال المؤمنين
 والاشتغال بهم، وإن كانوا غير مسئولين عنهم.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، يمكن
 تفسيره على وجهين:

- الوجه الأول: أن مجازاة الكفار على معاملتهم للمسلمين،
 بالتنقيص من قدرهم، والاستهزاء بهم - وهي موضوع السؤال - قد
 تولاهما الحق سبحانه بنفسه، وسيعاقبهم «يوم الفصل» بما
 يستحقون.

- الوجه الثاني: أن يكون السؤال وارداً بمعناه الأصلي،
 إشارة إلى أن معاملة الكفار للمسلمين يجب أن يردَّ عليها
 المسلمون بالمثل، فيفرضوا احترامهم على الغير، ولا يسمحوا
 للغير بأن يجعلهم محلَّ استهزاء أو سخرية، وذلك لا يتم تحقيقه
 إلا بالتزام الوصايا الإلهية والتوجيهات الإسلامية في معاملة غير
 المسلمين.

ولنتقل الآن إلى سورة «الانشقاق» المكية، مستعينين بالله،
 والحديث في مطلعها يتناول فناء العالم، وظواهر الانقلاب الكوني
 الشامل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ
 لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا
 وَحُقَّتْ﴾.

ثم يُوجِّهُ اللهُ تعالى خُطَابَهُ إلى الإنسان الغافل المُتَشَاوِلِ الخُطِي، مذكراً له بأن رحلته على ظهر الأرض مهما طالت فهي رحلة قصيرة، وبأن حياته فيها مهما امتدت فهي حياةٌ عابرة، علاوةً على ما في الحياة بطبيعتها من متاعب ومشاق، وشدائد وأهوال، وكَدٍّ وجَهدٍ، فإن لم يدخر الإنسان من يومه لغده، ومن حياته الأولى لما بعدها، كانت صفقته صفقة خاسرة، وكان من الأَخْسِرِينَ أَعْمَالاً، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: ١٠٤)، وذلك ما يُشير إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾، وكانَ اللهُ تعالى يقول لعبده «الخاوي» الوفاض، البادي الإنفاض: بماذا ستُلاقِي رَبِّكَ؟ هل ستلاقيه باليد الفارغة والكتاب الأسود؟ إن الأمر ليس أمر هزل، ولكنه أمر جد، فماذا أنت فاعلٌ أيها الإنسان الوَسنان؟.

ثم يُعَقِّبُ كتابُ اللهُ على هذا النداء المباشر بذكر أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وما يناله كلا الفريقين، عسى أن تتحرك همم الكُسَالِي المتخاذلين: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا وَيَصَلُّي سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ نُّحِورَ﴾، أي: أنه كان يعتقد أنه لن يرجع إلى الله، ولن يُبعث بعد الموت، و«الحور» هو الرجوع، ﴿بَلَىٰ إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾.

الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين
في المصحف الكريم

فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ
إِذَا ابْتَسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَن طَبِقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾
وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا
يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾
إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾
قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا
قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَانَقَمُوا
مِنْهُمْ وَإِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ

جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ
 بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّلُ وَيُبَدِّلُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ
 الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ آتَيْكَ حَدِيثُ
 الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ
 وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النُّجُومُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾
 إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ
 دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ وَعَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ ﴿٨﴾
 يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾
 وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْمَزَّلِ ﴿١٤﴾
 إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْمَهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين في المصحف الكريم، ابتداءً من قوله تعالى في سورة «الانشقاق» المكية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ملْتَرَكِبْنَ طَبَقًا عَنْ طَبَقِ﴾، إلى قوله تعالى في ختام سورة «الطارق» المكية أيضاً: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلٍ الْكٰفِرِينَ أَمَهْلُهُمْ رُوَيْدًا﴾.

أول ما يواجهنا في هذا الربع من كتاب الله هو التلويح بالقسم على أنه لا مفرّ للإنسان من الثقل في عدة أطوار، خلال حياته الأولى وعند مماته، ثم في حياته الثانية، طبقاً لمشيئة الله وحكمته، وقد استعرض كتابُ الله أمام الإنسان عدة مشاهد كونية تدفعه إلى مزيد من التأمل والتدبّر والاعتبار، واختار الوحي الإلهي هذه المشاهد هنا من بين مشاهد الليل، لا من بين مشاهد النهار، إذ الليل أجمع للفكر، وظواهره أدعى إلى التأمل العميق، والاعتبار الدقيق، فأشار كتابُ الله في هذا السياق إلى «الشَّفَقِ الأحمر» الذي يلاحق غروب الشمس في أول الليل، ويمتد إلى

وقت العشاء، وَلَمَنْظَرُهُ رَوْعَةٌ وَأَيُّهُ رَوْعَةٌ، وَإِيْحَاءٌ وَأَيُّهُ إِيْحَاءٌ.

وأشار كتاب الله في نفس السياق إلى «الليل المظلم» وما يرافقه قُدومه من مظاهر وظواهر تختلف كل الاختلاف عن مظاهر النهار وظواهره، ولظلام الليل رهبةً وأيةً رهبةً، وجلالٌ وأيُّ جلال.

وأشار كتاب الله في نفس السياق إلى «القمر المنير»، ولتكامُل نوره إذا استدارَ تأثيْرٌ وأيُّ تأثيْر، وجَمالٌ وأيُّ جمال.

وإذا كانت قُوات الكون كُلُّها مسخرةً لله تتحرك بأمره كما يشاء، وتؤدي وظيفتها كما يريد على أحسن الوجوه، إلى ميقاتٍ يومٍ معلوم، فهل يستطيع الإنسان، وهو جزءٌ صغير من هذا الكون الذي لا يتجزأ، أن يُفَلِت من قبضة الله، أو أن يتحرك على خلاف مشيئته وبعكس إرادته؟ إنه لن يستطيع ذلك، ولا بدُّ من أن يندمج في ناموس الكون العام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لِتَرْكَبِنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

ومعنى قوله تعالى ﴿وَمَا وَسَقَ﴾، أي: وما جمع، ومن جُملة ما يجمعه الليل الظلام والنجوم والحيوان والإنسان، عندما يأوي كلُّ منهما إلى مأواه، ومعنى قوله تعالى ﴿إِذَا اتَّسَقَ﴾، أي: إذا استدار وتكامل نوره، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبِنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، أي: لتتقلبن في حياتكم من حال إلى حال، منذ بدايتها إلى نهايتها، ومن ذلك أن يصبح أحدكم رضيعاً ثم فطيماً، بعدما كان جنيناً، وكهلاً ثم شيخاً، بعدما كان شاباً، وأن ينتقل من شدة رخاء، ومن رخاء إلى شدة، ومن فقر إلى غنى، ومن

غنى إلى فقر، ومن سَقَم إلى صحة، ومن صِحَّة إلى سَقَم، كما يتضمن قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، معنى ثانياً! وهو ما سيلقاه الإنسان بعد موته وحين بعثه من الشدائد والأهوال، أثناء الحشر والحساب والجزاء في عرصات القيامة نفسها. فَمَعَانَةٌ الإنسان لهذه الأطوار والأحوال كلها في حياته الأولى وحياته الثانية هي التي عبر عنها الذكر الحكيم هنا «بالرُّكُوبِ»: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، جرياً على المعهود في اللسان العربي من التعبير «بركوب الأخطار»، إشارة إلى مُعَانَاتِهَا وتحمُّلِهَا، والتقلب فيها عند الاضطراب، على حد قول الشاعر العربي:

إذا لم تَكُنْ إِلَّا الْأَسِنَّةَ مَرَكِبًا فَمَا حِيلَةُ الْمُضْطَرِّ إِلَّا رُكُوبُهَا

ومن هنا انتقل كتاب الله إلى التساؤل، باستغراب وتعجب، لماذا يُصِرُّ الكافرون على عنادهم، ويتمسك الجاحدون بجهودهم، ضاربين صفحاً عن الاستجابة لما يُحييهم، وكتابُ الله يُتلى أمامهم، وَيَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ، فقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾، أي: أن كل ما تعرضه الدعوة الإسلامية على خصومها والمكذِّبين بها من آيات كونية وآيات قرآنية، إنما يَدْفَعُ إلى الإيمان لا إلى الكفر، وإنما يُعين على إيقاظ الضمير وإثارة الشعور، لا على الغفلة والغرور، ومن هنا جاء التساؤل والاستغراب في هذا الباب.

ثم عَقَّبَ كتابُ الله بما يؤكد أنه عليم بذات الصدور، مُطَّلِع على ما يُضمِّره الكافرون من إصرار على التكذيب وإمعان في الغرور، داعياً نبيّه إلى إنذارهم بالعذاب الأليم، وتبشير المومنين

بالنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾، أي أعلم بما تنطوي عليه صدورهم، ﴿فَبَشِّرْهُمْ
 بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، واستعمال «البشارة» هنا فيه نوع من المفاجأة
 والتبكي، إذ لورغبوا في «البشرى» على وجهها الصحيح لَسَلَكُوا إِلَيْهَا
 طَرِيقَهَا الْوَحِيدَ، وهو طريق الإيمان والإذعان، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: لكن المومنين
 المتقين لهم أجر غير منقوص ولا مقطوع، على حد قوله تعالى
 في آية أخرى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ﴾ (هود: ١٠٨)، وانتقد ابن
 كثير قول بعضهم في تفسير آية ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أن
 معناها لهم أجر غير ممنون عليهم، فإن الله عز وجل له المنة على
 أهل الجنة في كل حال، وإنما دخلوها بفضلها ورحمته، لا
 بأعمالهم، فله عليهم المنّة دائماً سرّمداً.

ولنتقل الآن إلى سورة «البروج» المكية أيضاً، معتمدين
 على الله.

وهذه السورة الكريمة تتحدث عن قصة «أصحاب الأخدود»
 وهم فئة من المومنين الأولين كانوا قد آمنوا قبل ظهور الإسلام،
 وتعرضوا للتعذيب بالنار على يد الكفار من إخوانهم، عقاباً لهم
 على إيمانهم.

وقد ابتدأت السورة الكريمة باستعراض جملة من الأشياء
 التي ينبغي الوقوف عندها وقفة خاصة، والتأمل فيها وفيما وراءها،
 بقصد الذكرى والاعتبار، ففي مطلعها إشارة إلى السماء مع

وصفها «بذات البروج» ومعنى «البروج» في هذا السياق حسبما اختاره ابن جرير: منازل الشمس والقمر، التي يسير فيها كل واحد منهما بنظام مطرد.

وفي مطلع هذه السورة إشارة إلى «اليوم الموعود» وهو يوم القيامة، وإشارة إلى «الشاهد والمشهود»، و«المشهود» هو ما يبرز يوم القيامة من ظواهر كونية غريبة، وما يجري من أحوال وأهوال في عرصاتهما، و«الشاهد» هو الخلق، الذي يجمعه الله بعد شتات وافتراق في صعيد واحد، ليشاهد فناء العالم، والنشر والحشر، والثواب والعقاب، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾.

ثم استعرضت الآيات الكريمة قصة «أصحاب الأخدود»، والمراد «بالأخدود» هنا الحفرة التي حفرها الكفار في الأرض وأوقدوا فيها النار، ثم ألقوا فيها المومنين الذين آمنوا بالله، وكفروا بمعتقداتهم الباطلة، من الرجال والنساء، وأحرقوهم بالنار، عقاباً لهم، وتنفيراً من عقيدتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ولعل السر في الإتيان بهذه القصة هو مواساة المومنين المستضعفين الذين كان سفهاء المشركين يعذبونهم أشد العذاب بمكة في فجر الإسلام، وتعريفهم بما سبق للمومنين قبلهم في

عصور قديمة، من التعرض لأنواع الإذاية والتنكيل، وبما آل إليه أمر الكافرين الذين عذبوهم، من سوء العاقبة والعذاب الويل، ولذلك جاء التعقيب هنا مباشرة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيءُ وَيُعِيدُ﴾، أي: سيعذبون عذاباً أليماً من جنس ما عذبوا به المومنين: حريقاً بحريق، وبطشاً ببطش.

وهذه الآية كما يندرج تحتها قدماء الكفار الذين حفروا الأخدود لإحراق المومنين قبل الإسلام، تشمل أيضاً مشركي قريش الذين أخذوا يُعذبون المستضعفين من المومنين في فجر الإسلام.

ثم تولى كتاب الله التنويه بالمومنين الذين تحملوا الشدائد والتضحيات في سبيل إيمانهم، دون أن يتنازلوا عن عقيدتهم، وذكر ما نالوه عند الله من الفوز الكبير، جزاء تضحيتهم الكبرى، وما أعدّه الله لهم من النعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.

وعرج كتاب الله على جملة من صفات الله وأسمائه الحسنی، التي تبرز فيها وتنعكس من خلالها آثار جماله وجلاله، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ﴾، فهو سبحانه «غفور» لمن تاب من ذنبه، وأتاب إلى ربه.

وهو سبحانه «وَدُود» لمن آثر طاعته على طاعة غيره، وكَرَس حياته لاجتناب نهيه وامتنال أمره، وهو «ذُو الْعَرْش» الذي وسع كرسيه السماوات والأرض، وهو «الْمَجِيدُ» الذي يتضاءل كل شيء أمام عظمته وجلاله، وهو «الْفَعَالُ لِمَا يُرِيد» ذو الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ، الذي لا يقف شيء في وجه إرادته وقدرته، ولا يحول مخلوق دون تنفيذ مشيئته وَفَّقَ حكمته.

وأشار كتابُ الله إشارةً موجزةً إلى بطش الله الشديد، بفرعونَ وثمودَ، فقال تعالى: ﴿ هَلْ آتَيْكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾.

وخُتِمَت سورة «البروج» بتسفيه ما عليه الكفار من تكذيب وعناد، وتأكيد أنهم مهما كفروا وعاندوا فلن يستطيعوا الإفلات من قبضة الله، الذي هو لهم بالمرصاد، وذلك قوله تعالى: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ وَاللَّهُ مِنْ وَّرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾، وما دام الله سبحانه ﴿ مُحِيطًا بِهِمْ ﴾ فهو الذي ينطق بالقول الفصل في شؤونهم جميعاً.

وقوله تعالى في نهاية السورة: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾، إشارةً إلى ما لكتاب الله من منزلة عظيمة ومقام كريم، وإلى ما تولاه به الحق سبحانه من «الحفظ الخاص»، بحيث لا يلحقه تحريف ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقص، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (الحجر: ٩) ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الطارق» المكية أيضاً،
مستعينين بالله .

ويتصدر في بدايتها قَسَمٌ من الله عظيم، بالسماء التي رَفَعَ
سَمَكَهَا، وبالنجم الثاقب الذي أَعَدَّهُ ليخترق حُجُبَ الظلام
الكثيفة، بشعاعه النافذِ المُضِيءِ، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النُّجُومُ
الثَّاقِبُ ﴾ .

ثم بَيَّنَّ كتابُ الله الحقيقة التي أَقَسَمَ عليها تنويهاً بها،
وتركيزاً للأنظار من حولها، ولا سيما أنظار الغافلين المستهترين،
الآ وهي حقيقة «الرِّقَابَةِ الإِلَهِيَةِ الدَّائِمَةِ» الموضوعية على الإنسان،
حتى يسلك سبيل الرشاد، ويتفادى الوقوع في أشراك الفساد،
وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾، أي: كلُّ
نفس عليها من الله حافظ يراقبها ويحرسها ويرعاها، على حد قوله
تعالى في آية أخرى: ﴿ لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ
يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (الرعد: ١١).

وأخذَ كتابُ الله يُذَكِّرُ الإنسانَ بأطوار نشأته الأولى منذ كان
نُطْفَةً من مَنَى تُمْنَى، ويُعَرِّفُهُ بأن القدرة الإلهية التي أبداعته
من لا شيء، وأخرجته من العدم إلى الوجود في الحياة
الأولى قادرةٌ كذلك على أن تُخرجه من عدم الموت إلى
الوجود في الحياة الثانية، وأنه إن لم يُمدِّدْهُ اللهُ
بقوته ونصره في الدنيا والآخرة، وتركه مَوْكُولاً إلى نفسه
أصبح مضربَ المثل في العجز والخذلان التام، وذلك قوله تعالى:

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾، و«الصلب» في جسم الرجل، و«الترائب» في جسم المرأة، والمراد «بيوم تبلى السرائر» يوم القيامة، الذي تظهر فيه مكنونات الصدور وخفاياها، فلا تبقى سراً من الأسرار.

وختمت سورة «الطارق» بقسم آخر من الله عظيم: «بالسما» التي ينزل منها الغيث، و«بالأرض» التي ينبت فيها النبات، والمقسم عليه هنا الذي هو محل العبرة: هو أن ما جاء به كتاب الله في شأن البعث والنشأة الآخرة هو «القول الفصل» الذي لا مرد له، فهو قول حاسم لا يقبل جدلاً ولا تردداً ولا معارضة، وأن كل محاولة للغض من هذه الحقيقة، أو التشكيك فيها، أو الكيد لمن آمنوا بها ستبوء بالخيبة والفشل، وسيكون النضر المبين حليف الإيمان والمومنين، والفشل الذريع حليف الكفر والكافرين، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ، إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلُ الْكٰفِرِينَ أَهْمُهُمْ رُوَيْدًا ﴾.

الربع الأول من الحزب الستين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ③
 وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ④ فَجَعَلَهُ وَغْتَاءً أَحْوَى ⑤ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى ⑥
 إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ⑦ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ⑧ فَذَكَرْ
 أَنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى ⑨ سَيِّدَكَ مَنْ يَجْتَبَى ⑩ وَتَجْتَبِيهَا الْأَشْقَى ⑪ الَّذِي
 يَصَلِّي النَّارَ الْأَكْبَرَى ⑫ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ⑬ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ⑭
 وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ⑮ بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ⑯ وَالْآخِرَةَ
 خَيْرٌ وَأَبْقَى ⑰ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ⑱ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ⑲

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 هَلْ أَيْنِكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ① وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ② عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ③
 تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ④ تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ - اِنْيَةٍ ⑤ لَيْسَ
 لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ⑥ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ⑦

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۖ لِّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ۗ ۙ فِي جَنَّةٍ
 عَالِيَةٍ ۗ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۗ ۙ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۗ ۙ
 فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۗ ۙ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۗ ۙ وَنَمَارِقُ
 مَصْفُوفَةٌ ۗ ۙ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۗ ۙ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى
 الْأَيْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۗ ۙ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۗ ۙ
 وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۗ ۙ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۗ ۙ
 فَذَكِّرْ ۗ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۗ ۙ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۗ ۙ
 إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۗ ۙ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۗ ۙ
 إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۗ ۙ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۗ ۙ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالْفَجْرِ ۙ ١ ۙ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۙ ٢ ۙ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۙ ٣ ۙ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۙ ٤ ۙ
 هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ ۙ ٥ ۙ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۙ ٦ ۙ
 إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۙ ٧ ۙ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۙ ٨ ۙ وَثَمُودَ
 الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَةَ بِالْوَادِ ۙ ٩ ۙ وَفَرَعُونَ ذِي الْاَوْتَادِ ۙ ١٠ ۙ الَّذِينَ
 طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۙ ١١ ۙ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۙ ١٢ ۙ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
 سَوَاتِرَ عَذَابٍ ۙ ١٣ ۙ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ ۙ ١٤ ۙ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا

مَا ابْتَلِيَهُ رَبُّهُ وَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا
 إِذَا مَا ابْتَلِيَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا
 بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾
 وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾
 كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ
 صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ
 الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ
 لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ
 وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّمِئِنَةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ
 رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّاتٍ ﴿٣٠﴾

الربع الأول من الحزب الستين في المصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الربع الأول من الحزب الستين في المصحف الكريم، وبدايته فاتحة سورة «الأعلى»: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، ونهايته قوله تعالى في ختام سورة «الفجر» المكية أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

وأول ما يفتح به هذا الربع في فاتحة سورة «الأعلى» هو أمر الله لرسوله وللمؤمنين معه بتمجيد اسم الله وتنزيهه، واستحضار أسمائه وصفاته الحسنی، استحضاراً تاماً وعماماً، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وذكر «الربوبية» هنا يوحي برعاية الله لخلقه، وإحسانه إليهم، وإنعامه عليهم، رغم ما هم عليه من جحود وعناد، وإضافة «الرب» إلى «كاف المخاطب» الموجه للرسول عليه السلام تدل على ما له ﷺ من ارتباط وثيق بالله، وما له من مقام كريم عند الله.

ثم بيّن كتاب الله أن للحق سبحانه على عباده حقوقاً ثابتة في ذمهم، مقابل نِعْمِهِ المتوالية عليهم، فهو سبحانه الذي انفراد بخلقهم وإبداعهم: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾.

وهو سبحانه الذي حدد لكل مخلوق رسالته المنوطة به في هذا الوجود، وهداه إلى وسائلها ومسالكها: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾.

وهو سبحانه الذي أكرم الإنسان والحيوان، فوفر لكل منهما ما يحتاج إليه من أنواع الغذاء الضرورية للعيش في مختلف فصول السنة، وفي مختلف أجواء الأرض، الحارة والباردة والمعتدلة: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾، والمراد «بالمَرْعَىٰ» هنا جميع صنوف النباتات والزرع، والشأن في النبات أن يخرج أخضر، وهو معنى «أحوى»، ثم يذوي وييس إذا هو «غُثَاءً».

واتجه الخطاب الإلهي بعد ذلك إلى خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، ممتناً عليه بأن الله تعالى قد تعهد بإقراءه الذكر الحكيم، كما تعهد سبحانه بإعانتة على حفظ آياته البينات، إثر تلقينها له، دون أن يقرب ساحته ذهولاً ولا نسيان: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، جارٍ على مقتضى الأدب مع الله، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الانسان: ٣٠)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (المدثر: ٥٦)، وقوله تعالى في آية ثالثة:

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَأْنٍ إِنْى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (الكهف: ٢٣، ٢٤)، فمشيئة الله فوق كل شيء، وهي الضمان الأول والأخير لكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾، تذكير للمؤمنين بوجوب مراقبة الله، ولزوم استشعار ضمائرهم لمراقبته الدائمة باستمرار، فذلك عون لهم على التمسك بالاستقامة، والاعتصام بالتقوى، «والإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» كما في الحديث الشريف.

ثم بشر الحق سبحانه رسوله خاتم الأنبياء والمرسلين ببشرى عظيمة لا تعدلها بشرى، ألا وهي تيسيره «لليسرى»: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾، وهذه البشرى مزدوجة: بشارة بما يرافق حياته ﷺ وحياة أمته من لطف وعناية وتيسير، وبشارة بما يميز شريعته من سماحة وبُعد عن كل حرج أو تعسير، على حد قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥). جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما). وروى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه» وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يسروا ولا تعسروا».

وانتقلت الآيات الكريمة إلى تحديد مهمة الرسول عليه السلام، وأنها لا تتجاوز - بالنسبة للمعاندين - مجرد تبليغ الرسالة

والتذكير بها، أما ثمرة التبليغ ونتيجة الدعوة فأمرهما موكول إلى الله، فمن اختار لنفسه طريق السعادة والهدى أقبل على دعوته وأتعظ بها، ومن اختار لنفسه الشقاء والضلال تجنّبها، وأقفل قلبه دونها، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذُّكْرَىٰ، سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَىٰ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَىٰ﴾.

ثم وصف كتاب الله «مصير» الشقي الذي لم ينفذ نور الإيمان إلى قلبه، وأنه سيعذب في جهنم عذاباً لا يتمتع خلاله بنعمة الحياة، ولا ينعم أثناءه براحة الموت، إذ يكون حياً وميتاً في آن واحد، فقال تعالى: ﴿الْأَشْقَى الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

وبين كتاب الله طريق الفوز والفلاح، لمن أراد سلوكه من أهل التقوى والصّلاح، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾، بمعنى أن الفائز برضوان الله هو من أدى ما عليه من حقوق لله، وحقوق لعياله، إذ أحبّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله» كما في الحديث الشريف.

«فحقّ الله» يؤديه بالذكر والصلاة، وما ناسبهما، و«حقّ الخلق» يؤديه بالصدقة والزكاة وما شابههما، قال قتادة في تفسير هذه الآية: «قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلّى»، أي: زكى ماله، وأرضى خالقه، وقال أبو الأحوص: «إذا أتى أحدكم سائل وأنت تريد الصلاة، فلتقدّم بين يديّ صلاتك زكاة، فإن الله يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾، وروى عن أمير

المومنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾، وقال ابن كثير: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾، أي: طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على رسوله، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾، أي: أقام الصلاة في أوقاتها، ابتغاء رضوان الله وامثالاً لشرع الله.

ثم اتجه الخطابُ الإلهي إلى الذين أَسْرَتْهُمُ شهواتُ الحياة الدنيا، وأغرتهم ملذاتها فَنَسُوا ما وراءها، فقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، إشارة إلى أن حسن التدبير، وسلامة التفكير، لا ينصحان مَنْ له مُسَكَّةٌ من العقل بإيثار ما يفنى على ما يبقى، وإيثار ما يزول ويبيد على ما يخلد ويدوم، بل إنهما لَيُنصِحَانَهُ بِأَخْذِ نَصِيحِهِ مِنَ الدُّنْيَا، والتزود لنصيبه في الآخرة، إن لم ينصحاه بإيثار آخرته على دنياه، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١).

وختمت سورة «الأعلى» المكية بالإشارة إلى ما بين الرسالات الإلهية من توافق وتلاحم وتكامل وصلة رَحِمٍ، فهذه التوجيهات الإلهية التي تضمَّنْها الذكر الحكيم قد سبق أن نزلت بمضمونها ومحتواها صحفُ موسى وإبراهيم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾، وقد سبق في سورة «النجم» إشارة أخرى لصحف إبراهيم وموسى في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾

وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿ (النجم: ٣٦، ٣٧).

روى الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود وابن ماجه في سننهما، أنه لما نزلت: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٧٤)، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾، قال: «اجعلوها في سجودكم».

ومن هنا نتقل إلى سورة «الغاشية» المكية أيضاً مستعينين بالله.

و«الغاشية» من أسماء يوم القيامة، سُميت بذلك لأنها تغشى الناس وتعمهم كما قال ابن عباس وغيره، وقد تصدت الآيات الكريمة في صدر هذه السورة لوصف مشاهد يوم القيامة وأحوالها، وما يكون عليه الخلق عند حشرهم في عرصاتهما، فقال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾، قال رسول الله ﷺ: «نعم. قد جاءني»، ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾، أي: هناك طائفة من الناس تعلو وجوههم - يوم القيامة - الذلة والكآبة، ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾، «عاملة» أي: عملت عملاً أخطأه الله فلم يقبله منها ولم ينفعها به، فهي من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، «ناصب» أي: هي يوم القيامة في نصب وتعاسة وشقاء، بالعذاب الأليم الذي تتلقاه، لأنها لم تقدم بين يديها عملاً صالحاً يقبله الله ويشيها عليه: ﴿ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ - انبئة ﴾، أي: من عين بلغت

أعلى درجة في الحرارة والغليان، كما قال ابن عباس وغيره: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾، و«الضريح» شجر شائك مسموم، وقال قتادة «هو شرُّ الطعام وأبشعه وأخبثه».

وهناك طائفة أخرى من الناس يظهر على وجوهها أثر النعمة يوم القيامة، وهي طائفة السعداء من المقربين والأبرار، وفي وصفها يقول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾، أي: أنها راضية عن عملها الذي وفقها الله إليه وقدمته بين يديها، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَّةٌ﴾، أي: لا لغو فيها ولا تأثيم، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (الواقعة: ٢٥، ٢٦)، ثم قال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبُ مَبْثُوثَةٌ﴾، وهذا من باب التمثيل والتقريب، إذ فيها «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»

ثم أخذ كتاب الله يعرض ما أنعم به سبحانه على الإنسان، وما أبدع صنعه في مختلف الأكوان، تذكيراً بما له سبحانه من الفضل والإحسان، وتنبهاً على أن هذه النعم تستحق أن تُقابل بالشكر والامتنان، لا بالجحود والكفران، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، وإنما ذكرت «الإبل» في هذا السياق من الآيات، لأنها فعلاً من

عجائب المخلوقات، فقد ميزها الله تعالى على غيرها بعينين وأذنين ومنخرين لا يوجد لهما نظير عند بقية الحيوانات، لا في شكلهما ولا في وظيفتهما، كما زودها بقوائم طويلة وأقدام منبسطة جعلت منها «سفينة الصحراء» التي تنقل الإنسان وتحمل الأثقال، على امتداد العصور والأجيال مع استغنائها عن الماء لمدة شهرين متتاليين في فصل الشتاء وتحملها وطأة العطش في فصل الصيف، وحملها لكُتْل من الشَّحْم في سنامها فوق ظهرها، دفعاً لغائلة الجوع عنها، وضماناً لاستمرار سيرها.

وختمت سورة «الغاشية» بخاتمة تريح ضمير الرسول عليه السلام، وتحدّد مهمته في الإقتصار على تبليغ الرسالة إلى الخلق، وإقامة الحجّة عليهم، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ (ق: ٤٥)، وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (الرعد: ٤٠)، وفي ذلك تخفيف عن الرسول ومواساة له من ربه، فقد كان ﷺ يحزن حزناً شديداً عندما يرى الضالين مُصْرِّين على ضلالهم، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في (سورة الشعراء: ٣): ﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

ولنتقل الآن إلى سورة «الفجر» المكية أيضاً، وفي مطلع هذه السورة قَسَمٌ عظيم بأوقات العبادات، وأنواع من القُرَبات،

التي يتقرب بها إلى الله عباده المتقون، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾، أما «الفجر» فمعناه واضح، وأما «الليالي العشر» فالمراد بها عشر ذي الحجة كما قال ابن عباس وغيره. وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً: (مَامِنُ أَيَّامٍ، الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ فِيهِنَّ، مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ)، يعني عشر ذي الحجة، وأما «الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ» فهي الصلاة، بعضها شفع وبعضها وتر، كما رواه أحمد في مسنده مرفوعاً.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾، أي: لذي عقل ولب، وإنما سمي العقل «حِجْرًا» لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى التذكير بمصرع عادٍ وثمود وفرعون، جزاء كفرهم وعنادهم وتمردهم على الله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

ثم تحدث كتاب الله عما يُدَاخِلُ الإنسان من زهو بنفسه إذا ناله رخاء، وعما يشعر به من هوانٍ إذا نزلت به شدة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيْهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَيْهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِي﴾، وردَّ

الحقُّ سبحانه على الإنسان حتى لا يعتقد هذا الاعتقاد السخيف، فقال تعالى: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمرُ أمرَ إكرام ولا إهانة كما يزعم الإنسان، فإن الله تعالى يُوسِّع الرزقَ لِمَن يُحِبُّه ومن لا يُحِبُّه، ويضيقُ الرزقَ على من يحبه ومن لا يُحِبُّه، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ نُسَارِعِ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٥، ٥٦). وكل ذلك منه سبحانه ابتلاءً واختباراً وامتحاناً، لمبلغ ما عند الإنسان من ثقة بالله وإيمان.

وانتقدَ كتابُ الله ما عليه أشرار الخلق من الأثرة والأناية، وقسوة القلب، والتلف على كسب المال من أيِّ وجهٍ كان، وما هُم عليه من شحٍّ وبُخل وإهمال للبر والإحسان، فقال تعالى: ﴿بَلْ لَا تُكْرُمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، وابتدأ كتاب الله هنا بذكر «اليتيم»، إشارةً إلى رعاية الإسلام رعايةً خاصةً لليتامى لكونهم فقدوا الحنان الأبوي الذي لا يُعوَّضه شيء، ولذلك أوصى رسول الله ﷺ باليتامى، وبشَّرَ مَنْ يكفلهم خيرَ كفالةٍ بمرافقته في الجنة جنباً لجنب، فقال ﷺ فيما رواه أبو داود في سننه: (أنا وكافلُ اليتيم كهاتين في الجنة)، وقرن بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام.

ثم عاد كتابُ الله إلى الحديث عن فناء العالم وقيام الساعة، وحشر الخلائق للحساب، إمَّا للعقاب وإمَّا للشواب،

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدًا، يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتٍ ﴾ .

الربع الثاني من الحزب الستين
في المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ① وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ② وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ③
 لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ④ أَيَحْسِبُ أَنْ لَنْ يُقَدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ⑤
 يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبُدًا ⑥ أَيَحْسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ⑦ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ
 عَيْنَيْنِ ⑧ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ⑩ فَلَا اقْتَحَمَ
 الْعُقَبَةَ ⑪ وَمَا أَذْرَبِكُ مَا الْعُقَبَةُ ⑫ فَكُ رَقَبَةً ⑬ أَوِ اطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي
 مَسْغَبَةٍ ⑭ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⑮ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ⑯ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ⑰ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑱
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَبَائِنَاهُمْ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑲ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ⑳

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّيَهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّيَهَا ③
 وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَيْهَا ⑤ وَالْأَرْضِ

وَمَا طَحَّيْهَا ① وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
 وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْهَا ⑩
 كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوِيهَا ⑪ إِذِ انبَعَثَ أَشْقِيهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ
 رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ
 عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّيْهَا ⑭ فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ⑮

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③
 إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ④ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥
 فَسَنِّيْسِرُهُ وَلِلْغُيُوبِ ⑦ وَأَمَّا مَنْ يُخَلِّ وَاسْتَعْجَى ⑧ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ⑨
 فَسَنِّيْسِرُهُ وَلِلْعُسْرَى ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ⑪ إِنَّ
 عَلَيْنَا لَلْهُدَى ⑫ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ⑬ فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا
 تَلَظَّى ⑭ لَا يَصْلِيهَا إِلَّا الْأَشْقَى ⑮ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑯
 وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ⑱ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ
 مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ⑲ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ⑳ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ㉑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّبْحَى ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ③

وَلَا خِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
 فَتَرْضَى ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا
 فَهَدَى ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨
 وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪

الربع الثاني من الحزب الستين في المصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نعالج تفسير الربع الثاني من الحزب الستين في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى في فاتحة سورة «البلد» المكية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، إلى قوله جلّ علاه في ختام سورة «الضحى» المكية أيضاً: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

وفي بداية هذا الربع، وهو فاتحة سورة «البلد» المكية، قَسَمَ عَظِيمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى حَقِيقَةٍ وَاقِعِيَّةٍ تُجَمِّلُ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ مِنْ بَدَايَتِهَا إِلَى نَهَايَتِهَا، وَكُتِبَ اللَّهُ عِنْدَمَا يَأْتِي فِي سُورِهِ بِهَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْقَسَمِ يَتَوَخَّى أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ:

- الأمر الأول: لَفَتْ نَظَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالنَّاسِ كَافَةً إِلَى الْأَهْمِيَّةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَكُونُ لِلشَّيْءِ الْمُقَسَّمِ بِهِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ، فَالْتَنْبِيهُ إِلَيْهِ، وَتَرْكِيزُ الْفِكْرِ حَوْلَهُ، مَدْعَاةٌ إِلَى التَّأَمُّلِ فِيهِ تَأْمَلًا كَافِيًا يُعِينُ عَلَى تَحْقِيقِ الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ.

- والأمر الثاني: لَفَتْ نَظَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالنَّاسِ كَافَةً إِلَى الْحَقِيقَةِ الْكُبْرَى الَّتِي تَنْعَكِسُ مِنْ خِلَالِ الْمَعْنَى الْمُقَسَّمِ عَلَيْهِ، فإِدْرَاكُ تِلْكَ

الحقيقة والتعمق فيها هو الهدف الرئيسي للقسم من أصله، بما يحتوي عليه من صيغة القسم والمقسم به والمقسم عليه.

والمقسم به هنا في فاتحة هذه السورة «هذا البلد»، أي: مكة «أم القرى» حيث يوجد بيت الله الحرام، أول بيت وضع لعبادة الله وتوحيده في الأرض، وحيث يلتقي جميع الناس في أمن وسلام، ودماء بعضهم على بعض حرام.

ويُدرج كتابُ الله في سياق هذا القسم بالذات إقامة رسوله عليه السلام بنفس البلد، واستقراره به، إشارةً إلى تكريم الله تكريماً جديداً لمكة، بجعلها في نهاية المطاف مهّد الرسالة، ومَنزِل الوحي، والمقرّ الأول لسكنى خاتم الأنبياء والمرسلين، وكانّ الأقدار الإلهية تُلوّح هنا بأن «آية الإيمان» هي التي ستستقر بمكة إلى الأبد، وأنها ستمحو ظلمة الشرك من شعابها وبطاحها، فتعود مياهُ التوحيد إلى مجاريها، على ملة إبراهيم الخليل، وابنه إسماعيل، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾، يمكن أن يكون إشارة إلى نعمة التوالد والتناسل، التي أنعم الله بها على كثير من خلقه، كما يُمكن أن يكون إشارة خاصة إلى إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل، فالوالد هو إبراهيم، والولد هو إسماعيل، ولا يخفي ما في هذه الإشارة من التناسب والانسجام، مع نفس السياق في هذا المقام، فقد كان إبراهيم الخليل هو باني البيت الحرام، بمساعده

ابنه إسماعيل عليهما السلام .

وأما الحقيقة المُقسَم عليها فهي أن الإنسان منذ أن يستقر جينياً في بطن أمه وطيلة حياته إلى حين وفاته، لا ينفك عن مكابدة المتاعب، ومواجهة الشدائد، وتحمل المشاق، من طور إلى طور، ومن مرحلة إلى أخرى، ولا يهُونُ من ضغط هذه الحقيقة التي تفرض نفسها على كل إنسان أن تختلف طرق الكفاح باختلاف الناس، فلكل صنف منهم متاعبه الخاصة، وكفاحه الدائم، الذي لا ينتهي إلا بانطفاء جذوة الحياة في الجسم وحلول الأجل، والهدف المتوخى من تذكير الإنسان بهذه الحقيقة التي تستغرق كل حياته هو تنبيهه إلى أنه إذا كان ولا بد سيكابد متاعب الحياة الدنيا، لينتقل منها إلى مكابدة متاعب أشدّ هولاً منها في الحياة الثانية، فإنه سيكون أخسر الخاسرين، ولذلك ينبغي له أن يعمل عملاً صالحاً في دنياه، حتى يلقي الله وعنده من الحسنات، ما يضع حداً نهائياً لمتاعبه المعتادة في حياته الأولى، وبذلك يستأنف حياة ثانية كلُّها نعيم مقيم، ورضوان من ربه الكريم، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ أَيْحْسِبُ أَنْ لَنْ يُقَدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا أَيْحْسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾، وها هنا ينعى كتاب الله على البخلاء الإشحاء بخلهم وشحهم بالإنفاق في سبيل الله، إذ ينفقون أموالهم في غير وجهها المشروع، وكلما دُعوا إلى الإنفاق في وجوه البر والإحسان تبجحوا بأنهم قد أنفقوا مالا كثيراً، ﴿مَالًا لُبَدًا﴾، وإن كان ما أنفقوه إنما صرفوه في الشهوات والملذات، وفي المعاصي

لا في الطاعات، وينسَوْنَ أَنَّ اللهَ سائلهم عما استخلفهم فيه من المال، من أين اكتسبوه، وأين أنفقوه، وأنهم سيحاسبون عليه حساباً عسيراً.

ثم أخذ كتاب الله يستعرضُ مِنْهُ على الإنسان الذي هو مَدِينٌ لخالقه بكل شيء، وذكرَ على سبيل المثال العينين اللتين يُبصر بهما، واللسانَ الذي يُعبرُّ به، والشفتين اللتين يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام، بالإضافة إلى ما في تكوين كل عضو من أعضاء الإنسان عموماً من دقة الصنع، وإبداع التكوين، وغرابة التركيب، مما لا يستطيع أيُّ مخلوق أن يصنع مثله، ولا أن يُبدع نظيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز: ﴿الْمَ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.

وأضاف كتابُ الله إلى هذه النعمة العقل والتفكير التي أكرم بها الإنسان، وجعلها وسيلةً في متناول يده، ليميز بها الخير من الشر، والحق من الباطل، والضلال من الهدى، وهذه النعمة التي وهبها له الحق سبحانه هي مناط التكليف والتشريف، ومَنَاط الثواب والعقاب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، أي: طبعنا طبيعته على استعداد مزدوج: استعداد للخير إن اختاره، واستعداد للشر إن أَرَادَهُ، و«النجدان» نجدُ الخير ونجدُ الشر، أي الطريقان المؤديان إليهما. ورُوي عن ابن عباس أنه فسر «النجدين» بالثديين، بمعنى أن الله هدى الإنسان بمجرد خروجه من بطن أمه إلى التمامِ ثدييها، إلهاماً منه وإحساناً. ويشهد

للتفسير الأول - وهو الذي رجّحه ابن جرير - قوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٢، ٣).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، حَضُّ من الله لعباده المومنين على مُغَالَبَةِ أنفسهم، والتغلب عليها بسُلُوكِ طريق النجاة والخير. والمراد «باقتحام العقبة» اقتحام الحواجز النفسية والمادية، التي تحول دون الإيثار والبر والإحسان، والإقبال على الإنفاق في سبيل الله، ومن وجوه الإنفاق الصالحة: المساعدة في عتق الأرقاء، وكفالة اليتامى، وإطعام المساكين.

وبيّن كتابُ الله أن مما يُسَاعِدُ على اقتحام العقبات والتغلب عليها: الإيمان بالله، والتواصي فيما بين المومنين «بالصبر والمرحمة»: الصبر على القيام بالتكاليف التي تُعَزِّزُ الإيمان، وتجعل المومنين كالبنيان المرصوصين يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا، والمرحمة التي تجعل من مجتمعهم مجتمعاً تسوده الرحمة ويعمه الإخاء، ويبرز فيه التكافل بين كافة الفقراء والأغنياء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، ثم بَشَّرَ كتابُ الله الذين آمنوا، وبرزت في أخلاقهم ومعاملاتهم رُوحُ الإيمان، بأنهم سيكونون يوم القيامة من أصحاب اليمين المنعمين، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، وأنذر الذين

كفروا بالله وكفروا بنعمه بأنهم سيكونون في ذلك اليوم من أصحاب الشمال المعذبين، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوَصَّدَةٌ ﴾، أي: نار مُطْبَقَةٌ عليهم لا محيد لهم عنها.

ومن هنا نتقل إلى سورة «الشمس» المكية أيضاً مستعينين بالله.

وهذه السورة الكريمة يتصدرها قَسَمٌ من الله بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، والنفس ذات الاستعداد المزدوج، وَمَنَاطُ الْقَسَمِ فِيهَا هُوَ تَأْكِدُ طَبِيعَةِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَزِيَادَةُ التَّعْرِيفِ بِمِيزَتِهَا الْخَاصَّةِ، أَلَا وَهِيَ اسْتِعْدَادُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ لِلْمِيلِ نَحْوَ الْخَيْرِ، وَلِلْمِيلِ نَحْوَ الشَّرِّ، فَإِذَا مَالَتْ نَحْوَ الْخَيْرِ كَانَتْ نَفْسًا زَكِيَّةً طَاهِرَةً، وَإِذَا مَالَتْ نَحْوَ الشَّرِّ كَانَتْ نَفْسًا شَقِيَّةً قَدِرَةً، وَذَلِكَ مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّيَهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّيَهَا ﴾، أي: جلى البسيطة وأنار أرجاءها، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىهَا ﴾، أي: يَغْشَى البسيطة فتظلم آفاقها، ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَيْنَهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّيَهَا ﴾، أي: بسطها ودحاهها، نظير قوله تعالى في آية أخرى، ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَيْهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعِيَهَا ﴾ (النازعات: ٣٠، ٣١)، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْتَهَا ﴾، أي: ما خلقها عليه من الفطرة المستقيمة، نظير قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ (الروم: ٣٠)، ثم قال تعالى: ﴿ فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوِيَهَا ﴾، أي: جعلها قادرةً على التمييز بين خيرها

وشرها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْهَا﴾، أي: فاز من نَمَى في نفسه استعداد الخير، وطَهَّر نفسه بطاعة الله وتقواه، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْهَا﴾، أي: خَسِر من أضعف في نفسه روح الخير، وأقبل على الموبقات والمعاصي.

وبهذه المناسبة عرض كتاب الله نموذجاً من نماذج النفوس الشريرة، فتحدث عن أشقى رجل من ثمود قام «بعقر الناقة» عصيانياً لله ورسوله، رغم تحذير صالح عليه السلام، وقد سبق الحديث عن «ناقة صالح»، وموقف قومه منها بتفصيل في سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الإسراء، وسورة الشعراء، وسورة القمر، ثم تجددت الإشارة إليها في هذه السورة، فقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا إِذْ ابْنَعَتْ أَشْقِيهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾، أي: احذروا أن تَمَسُّوا ناقة الله بسوء، أو تتعرضوا لها في يوم سقياها، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّيْهَا﴾، أي غضب الله عليهم وأهلكهم بجُرمهم جميعاً، ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَتَهَا﴾، أي: أن عاقر الناقة لم يكن يُقَدَّرُ عاقبة ما صنَع. أو المراد: أن الله تعالى لا يَخَافُ تَبَعَةَ أَحَدٍ، على حد قوله سبحانه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣).

ولننتقل الآن إلى سورة «الليل» المكية أيضاً، وفي بداية هذه السورة قَسَمَ من الله بالليل والنهار، وبخَلق الذكر والأنثى، والمُقَسَمَ عليه فيها أمر يتعلق بالإنسان الذي هو محور الرسالة ومحور التكليف: ذلك أن الإنسان بحكم طبيعته مختلف الميول، متعدّد الاتجاهات، متباين الاستعدادات، وليس لجميع أفراد

استعداداً واحداً، ولا مؤهلاتٍ واحدة في جميع المجالات، ومن أجل ذلك يختلف اتجاهه، ويختلف تقديره، ويختلف عمله، ويختلف سعيه، ويختلف جزاؤه، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى فَمَا مَنَ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَا مَنَ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾.

ومعنى ﴿مَنَ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾ من بذل من نفسه وماله ابتغاء وجه الله، ومعنى ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ من وثق بما عند الله من العاقبة الحسنة والجزاء الحسن، ومعنى ﴿الْيُسْرَى﴾، أن الله تعالى يُيسر أمره ويسهل عليه بلوغ مقاصده دون شدة ولا عنَت، ومعنى ﴿مَنَ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾، من بخل بما أعطاه الله، وخيّل إليه أنه مُستغن عن الله، فلم يؤد حقوق الله ولا حقوق العباد، ومعنى ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ من أساء الظن بالله، ولم يثق بما وعده به من العاقبة الحسنة والجزاء الحسن، ومعنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ سنخذله ولا نوقفه، وسيصطدم في طريقه بكل المعوقات والعراقيل، والتعبير عن هذا المعنى بلفظ «التيسير» مثل التعبير بلفظ «التبشير» في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢١)، من باب التبكيت والتنكيت، ومعنى ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ إذا هلك وهوى في الدرك الأسفل من النار.

ثم بين كتاب الله أن عناية الله بالإنسان عناية بالغة، ومن أجل ذلك، أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، وله بعد ذلك

أن يختار لنفسه ما يشاء، وأن يتحمل تبعه اختياره في دار الجزاء،
 فإما أن يكون ﴿ أَتَقَى ﴾، وإما أن يكون ﴿ أَشْقَى ﴾، وذلك قوله
 تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا
 تَلَظَّى لَا يَصْلِيهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى
 الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ
 وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾.

ولنتقل الآن إلى سورة «الضحى» المكية أيضاً، وهذه
 السورة تُعبر عن رعاية الله لرسوله من فوق سبع سموات، وتُسجل
 ما يتمتع به من رضى مولاه وتأيدته في الشدة والرخاء، وفي
 بدايتها قَسَمَ «بِالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى». و«الضحى» وقت
 ارتفاع النهار وامتداد الشمس، و«سجى» بمعنى سَكَنَ وَهَدَأَ،
 والمُقَسَم عليه فيها هو أن الله تعالى يَرعى نبيه بعين رعايته التي لا
 تنام، وأنه لا يُمكن أن يَجفُو رسوله عليه السلام، ولا أن يَكَلِّه إلى
 نفسه، بعدما اختاره لرسالته، وأعدّه لحمل أمانته، وأن ما أَدخَرهُ
 له سبحانه من الفضل والعطاء، يتجاوزُ العَدَّ والإحصاء، ويُفوق
 كلَّ ما يؤمله من الثواب والجزاء، وذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ
 الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا
 قَلَى ﴾، أي: ما أبغضك وما هجرك، ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ
 الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾.

ثم اتجه الخطابُ الإلهي إلى خاتم الأنبياء والمرسلين،
 يُذكِّره بما رافق حياته منذ بدايتها وفي جميع أطوارها من العناية
 الربانية والمَدَد الإلهي، مؤكداً له «أن الكريم إذا بدأ كَمَل»،

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾، أي: وجدك «يتيمًا» فسخر لك من يحنوا عليك ويقف بجانبك في السراء والضراء ووجدك «ضالًّا» بين قوم سيطرت عليهم «الجاهلية»، وأنت تتلمس طريق الهدى: فعصمك من جاهليتهم، وأعدك لتكون رسوله إلى العالمين على غرار قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ (الشورى: ٥٢). ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾، أي: أكرمك بقناعة النفس وغنى القلب، فلم تلهمك الدنيا ولا شهواتها ولا مطامعها.

وختمت هذه السورة الكريمة بالدعوة إلى كفالة اليتيم والإحسان إليه، وإكرام السائل والعطف عليه، والتحدث بنعم الله التي أنعم بها على رسوله والمومنين، وعلى رأسها نعمة الإيمان والإسلام، والذكر الحكيم الذي أنزله الله رحمةً للعالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾، أي: اكفله وقربه وأصلح أمره. ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾، أي: إما أن تعطيه مما أعطاك الله، أو تعده، أو ترده ردًّا جميلًا بكلمة طيبة ويندرج تحت هذه الآية السائل عن دينه من أجل البيان والمعرفة. ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾، أي: اشكر إحسان الله إليك وإنعامه عليك، بالجوارح واللسان والجنان.

الثلث الأول من الربع الثالث في الحزب الستين
بالمصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِينَ
 أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤
 إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ⑧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالتَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③
 لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ
 سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
 مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ⑧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ
 الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلَّا إِنَّ

الْإِنْسَانَ لَيْطَغِيَّ ⑥ أَنْ يَرَاهُ اسْتَغْنَى ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجُعِيَّ ⑧
 أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ⑩ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ⑪
 أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ ⑫ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑬ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ⑭
 كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑯ فليدعُ
 نَادِيَهُ ⑰ سَنَدَعُ الزَّيْنَبِيَّةَ ⑱ كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ⑲

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ②
 لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنْزِيلُ الْمَلَكَةِ وَالرُّوحِ
 فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ⑤

الثلث الأول من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الثُّمْنِ الأول من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم، ويشتمل هذا الثمن على سورة «الشَّرح» وسورة «التِّين» وسورة «العَلَق» وسورة «القَدْر»، وكلها سُورٌ مكية، وبدايته قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ونهايته قوله جلَّ علاه: ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾.

وسورة «الشرح» المكية التي هي فاتحة هذا الثُّمْنِ تتضمن خطاباً من الحق سبحانه لنبيه، فيه مناجاةً له من ربه، تنسجم كل الانسجام، وتتناسب كل التناسب، مع الخطاب الإلهي الذي وجهه إليه في سورة «الضحى» قبلها، حتى لكانت سورة واحدة في موضوع واحد.

وأول ما يُسجله الخطاب الإلهي في هذه السورة ما آتاه الله لنبيه من رحابة صدر، وانسراح خاطر، وهدوءٍ بالٍ، وطمأنينة قلبٍ حتى يستطيع أن يواجه مسؤوليات الرسالة الملقاة على عاتقه، ويتحمل أعباءها برضى تام وعزم راسخ، وذلك ما يشير إليه قوله

تعالى في خطابه لنبيه: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾، وإن «شرح الصدر» بالنسبة لأي إنسان كيفما كان، لدليل على هداية الله له وتوفيقه في الحياة، ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِإِسْلَامٍ ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، فما بالك بمقام الرسول عليه السلام.

وثاني شيء يسجله الخطاب الإلهي في هذه السورة ما آتاه الله من صبر جميل، وقدرة خارقة على مواجهة الشدائد، ومعاونة المتاعب، في سبيل تبليغ الرسالة الإلهية، وإعلان الدعوة الإسلامية، رغم معارضة أقطاب الشرك، ومقاومة قادة الوثنية، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾، أي: خففنا عنك العناء الذي أثقل ظهرك، وأعناك على حمله، بما أمددناك به في كل حين، من تيسير وصبر وثبات ويقين.

وثالث شيء يسجله الخطاب الإلهي في هذه السورة ما أكرم الله به نبيه من الذكر الجميل الخالد على مر الدهر: الذكر الخالد في اللوح المحفوظ والملاً الأعلى، والذكر الخالد في أرجاء الأرض شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى هنا: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾، وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ (الزخرف: ٤٤).

وهل هناك ذكر أجمل وأرفع من ذكر اسمه بعد اسم الله، كلما تحركت بذكر الله الشفاه، (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)،

وهل هناك ذكر أجمل وأرفع من ذكر اسمه من أعلى ملايين المآذن الشاهقة، المرتفعة في دنيا الإسلام الواسعة، عند النداء لكل صلاة، (أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله). قال قتادة: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يُنادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

وهل هناك ذكر أجمل وأرفع من ذكره عليه السلام في مجمع الأنبياء والمرسلين، وهو لا يزال في عالم الغيب في أصلاب آبائه الأولين، ومن أخذ الله على أنبيائه ورسوله ميثاقاً غليظاً بالإيمان به وبدعوته، وتأييده ونصرته، مصداقاً لقوله تعالى في سورة (آل عمران: ٨١): ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، وفي مثل هذا المقام قال حسان بن ثابت:

أغرُّ عليه للنبوة خاتم من الله من نور يلوح ويشهد
 وضمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن «أشهد»
 وشقَّ له من اسمه ليُجَلَّه فذوالعرش «محمود» وهذا «محمد»

ثم انتقل كتاب الله إلى تبشير الرسول والمومنين بأنهم إذا واجهتهم شدة في الحياة، وكانت وجهتهم في أعمالهم خالصة لوجه الله، فإن العناية الإلهية تتعهد دائماً بتحويل شدتهم إلى رخاء، وعسرهم إلى يسر، وإذن فلا ينبغي لهم أن يقنطوا من

رحمة الله، ولا أن يُسَيِّئُوا الظَّنَّ بِاللَّهِ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، قال قتادة: (ذَكَرْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَشَّرَ أَصْحَابَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»، ذلك أن لفظ «العسر» وَرَدَ مُعْرَفًا فِي الْحَالِينَ، فَهُوَ «وَاحِدٌ»، وَأَنَّ لَفْظَ «الْيُسْرِ» وَرَدَ مُنْكَرًا فِي كَلَامِ الْمَوْضِعِينَ، فَهُوَ «مُتَعَدِّدٌ»، «فَالْعُسْرُ الْأَوَّلُ» هُوَ عَيْنُ الثَّانِي، وَ«الْيُسْرُ الثَّانِي» زَائِدٌ عَلَى «الْيُسْرِ الْأَوَّلِ».

واتجه الخطاب الإلهي مرة أخرى إلى الرسول السلام، يأمره بمواصلة الكفاح والعمل في سبيل الدعوة دون انقطاع، بحيث أنه كلما فرغ من أمر تصدى لما بعده، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾، إذ أن أعباء الرسالة متعددة، وتكاليف الدعوة متنوعة، ووجوه النشاط الإسلامي متسلسلة يُسَلِّمُ بعضها لبعض. وقد وُفِّي الرسول عليه السلام بما عاهد عليه الله، فلم يَذُقْ طيلة عهد الرسالة للراحة طَعْمًا، ولم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى ترك من ورائه عقيدة راسخة، وشريعة قائمة، ودولة حاكمة.

ودعا الله نبيّه في ختام هذه السورة إلى أن يجعل همّه الأكيد في كل أعماله ومساعيه ابتغاء مرضاة الله، والتقرب إليه دون سواه، بكل تجرد وإخلاص، ودون أي اعتبار خاص، وذلك قوله تعالى في إيجاز وإعجاز، والخطاب له ولكل مومن من أمته: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «التين» المكية أيضاً، معتمدين على الله.

وهذه السورة الكريمة يتصدرها قَسَمٌ عظيم «بالتين والزيتون، وطور سينين،؛ والبلد الأمين» والمِحور الذي يدور عليه القَسَم فيها هو خَلْقُ الإنسان، وما يتعرض له في حياته من فوز أو خِذلان، وربح أو خسران.

فالله تعالى يمتنُّ هنا على الإنسان بأنه قد خلقه أحسن خلق، وأبدعه أكمل إبداع، وميّزه بمزايا خصوصية على غيره من أنواع الحيوان، عسى أن يعرف فضل الله عليه، فيتحلّى بحلية الإيمان، عن اقتناع وإذعان، ويُقبل على طاعة الله بكل اغتباط وامتنان، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سَيْنِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ونقل ابن كثير عن بعض الأئمة أن المُقسَم به هنا هي محالّ ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولى العزم، أصحاب الشرائع الكبار، فالأول محلُّ التين والزيتون وهو بيت المقدس، حيث بعث الله عيسى ابن مريم، والثاني طور سيناء، حيث كلم الله موسى بن عمران، والثالث مكة، وهي البلد الأمين، الذي من دخله كان آمناً، حيث بعث فيه محمد بن عبد الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم ينبّه كتابُ الله إلى أن الإنسان قد يسيء إلى نفسه بتصرفه تصرف السفهاء، فيما آتاه الله من طاقات، وملكات، وممتلكات، فيتحذها ذريعةً للكفر والفساد، بدلاً من اتخاذها عوناً على الإيمان والصلاح، ويتردّى من قمة المكارم والفضائل، إلى هوة الفساد والردائل، وإذ ذاك ينزل بمحض اختياره من أعلى

عليين، فيعاقبه الله على ذلك، ويجعله أسفل سافلين، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾، سُئِلَ مجاهد عن الخطاب الوارد في هذه الآية، هل هو مُوجَّه إلى النبي ﷺ؟ فقال: «مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّمَا عُنِيَ بِهِ الْإِنْسَانُ». وهكذا قال عكرمة وغيره، أي: أن الخطاب مُوجَّه إلى ابن آدم عموماً، وإلى من يُكَذِّبُ بيوم الدِّين على وجه الخصوص.

وُخْتِمَتِ هذه السورة الكريمة بذكر ما يَنَعَمُ به في الجنة المومنون، من الأجر المُتواصل غير المَمْنُون: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، كما خُتِمَت بالتنويه بحكمة الله البالغة، التي لا تماثلها حكمة، وبحكم الله العادل، الذي ليس كمثلهُ حُكْم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾، بَلَى. وإنا على ذلك من الشاهدين.

ولنتقل الآن إلى سورة «العلق» المكية أيضاً: مستعينين بالله.

ومطلع هذه السورة الكريمة هو أول نَفْحَةٍ من نفحات السماء المباركة، التي نزلت على خاتم الأنبياء والمرسلين، شفَاءً لما في الصدور ورحمةً للعالمين، حيث تَلَقَّى الرسولُ عليه السلام من ربه لأول مرة تكليفه بالرسالة، ونزلَ عليه هذا القِسْمُ الأولُ من القرآن الكريم، الذي هو «براعة الاستهلال» لِدِينِهِ القويم، فقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ

الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿١﴾، وتعليقاً على هذه الآيات الكريمة قال ابن كثير: «أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمت المباركات، وهي أول رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأول نعمةٍ أنعم بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقته، وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم، فشرّفه وكرّمه بالعلم، وهو القدرُ الذي امتاز به أبو البرية آدم عن الملائكة، والعلم تارةً يكون في الأذهان، وتارةً يكون في اللسان، وتارةً يكون في الكتابة بالبنان، فهو ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي - نسبةً للرسم والكتابة - يستلزمهما من غير عكس».

فقلوه تعالى: ﴿ أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾، توجيهٌ من الله لرسوله إلى أن «القراءة» هي شعار الإسلام البارز، المميّز له من بين الأديان، وتنبيهٌ إلى أن دعوته تقوم على أساسها، وتنتشر بقدر انتشارها، فهي دعوةٌ هداية ونور، لا دعوةٌ ضلال وظلام.

وذكر «اسم الله» هنا تعريفٌ بأن الله وحده هو منبع الهداية والنور، فحيثما كانت الحجة البالغة، والبرهان الساطع، والعقيدة الصحيحة، والشريعة السمحة، فثمّ وجهُ الله جلّ جلاله، وهناك اسمه الأعلى. وحيثما كانت الأوهام والأباطيل، والمعتقدات الفاسدة والأضاليل، فهناك الأصنام والأوثان، وأولياء الشيطان، وطواغيت الجهلة من بني الإنسان، التي لا يجتمع معها اسم الله في أيّ مكان. ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾
(الزمر: ٤٥).

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَقٍ﴾،
إشارة - أولاً - إلى صفة «الخلق» البارزة، التي هي إحدى صفات
الكمال الإلهي، والتي بفضلها، كان بدأ الخليقة من أصلها، وكان
العالم العلوي والعالم السفلي وفق تصميمها، وإشارة - ثانياً - إلى
خلق الإنسان، الذي توج الله بخلقه نشأة الأكوان، وجعله محور
الرسالة، ومُستودع الأمانة، ومستقر الخلافة، ومن أجل هدايته
أرسل الرسل وأنزل الكتب: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى
مَنْ حَيِيَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢).

وقوله تعالى: ﴿إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، حُضُّ من الله لرسوله
والمؤمنين على مواصلة القراءة باستمرار ودون انقطاع، لأنها إكرام
عظيم من الله للإنسان، لا تتحقق إنسانيته على الوجه الكامل إلا
بتحققها واستمرارها على مر الزمان.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، تعريف للرسول
والمؤمنين بقيمة «القلم» عند الله، وأثره العميق في تهذيب الإنسان
وتمدينه وتحضيره، وحفظ تراثه الفكري عبر القرون والأجيال،
وإشارة إلى الدور العظيم الذي سيلعبه القلم في إنشاء الحضارة
الإسلامية العريقة، ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، ولولا القلم الذي
أكرم الله به الإنسان، وهداه إلى اكتشافه واستعماله، لبقى الإنسان
عبارة عن حيوان أعجم، لا رصيد له من الثقافة ولا من الحضارة،
ولا أثر له في سجلات الحياة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، امتنان من الله على الإنسان، أي: إنسان كان، بأنه سبحانه هو منبع العلم ومصدر المعرفة، فهو - أولاً - الذي جَهَّز الإنسان بجميع الحواس والمَلَكَات والطاقات القابلة للتعليم، والملائمة لإدراك المعلومات وتصوُّر الحقائق، وهو - ثانياً - الذي يَفْتَحُ لعباده بِقَدْرِ ما يَشَاءُ من مُغْلَقَاتِ الأسرار في الوجود، فتفتَحُ عيونُهُم وعقولُهُم كل يوم على حقائق جديدة، ومعلومات مفيدة، ولو لم يَكْشِفْها لهم بنوره لَمَا اكتشفوها إلى الأبد، على حَدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، (طه: ١١٤)، فمصدر التعليم الأول والأخير هو الله العليم الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علماً.

وانتقلت الآيات الكريمة إلى وصف ما يُصِيب الإنسان من انحراف في السلوك، وخبال في التصور، وما يضيفه إلى ذلك كله من تشبُّطٍ غيره عن العمل الصالح، فقال تعالى: ﴿كَأَنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنٌ خَفِيٌّ أَن رَّأَاهُ اسْتَغْنَىٰ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾.

وعقَّب كتابُ الله على ذلك بإنذارٍ خطيرٍ وجَّههُ إلى الإنسان الطاغِي، الباغي على الخلق المنحرف عن الحق، فقال تعالى: ﴿كَأَنَّ لَكِنًا لَّمْ يَنْتَهَ لِتَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾، أي: لنجعلنَّ في ناصيته سِمَةً سَوَادٍ تَفْضُحُهُ يوم القيامة بين الناس، ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبِيَّةٍ خَاطِئَةٍ، فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾، أي: فليدعُ قومَه وعشيرته لينصروه، إن كانوا

يَسْتَطِيعُونَ لَهُ نَصْرًا، لَكُنْهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا، ﴿سَنْدُوعَ الزَّبَانِيَّةِ﴾ .

وَوَجَّهَ كِتَابُ اللَّهِ الْخُطَابَ إِلَى الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُثَبِّطُهُ غَيْرِهِ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، مُحَذِّرًا إِيَّاهُ مِنْ طَاعَةِ الْمُثَبِّطِينَ، وَالسَّيْرِ فِي رِكَابِ الْمُعْوَقِّينَ، دَاعِيًا إِيَّاهُ إِلَى الثَّبَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِ اللَّهِ فِي كُلِّ آنٍ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ .

وَلِنَتَقَلَّ الْآنَ إِلَى سُورَةِ «الْقَدْرِ» الْمَكِّيَةِ أَيْضًا، مُعْتَمِدِينَ عَلَى اللَّهِ .

وَهَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ تَبَيَّنُ فَضْلَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَكَانَتَهَا عِنْدَ اللَّهِ، بِمَا دَشَّنَتْهُ الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ فِيهَا مِنْ نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَتْ لَيْلَةَ مَبَارَكَةٍ، عَمَّتْ بِرُكَّتِهَا الْإِنْسَانِيَّةَ جَمْعًا .

و«لَيْلَةُ الْقَدْرِ» هِيَ إِحْدَى لِيَالِي شَهْرِ رَمَضَانَ، الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ صِيَامَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ شُكْرًا لِلَّهِ، وَاحْتِفَاءً بِذِكْرِ نَزُولِ الْقُرْآنِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَّمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ .

وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ «لَيْلَةُ الْقَدْرِ» لِمَا أُعْلِنَ فِيهَا مِنْ تَقْدِيرِ اللَّهِ وَتَدْبِيرِهِ الْحَكِيمِ، وَلِمَا لَهَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْقِيَمَةِ الْكَبْرَى وَالْمَقَامِ الْعَظِيمِ، وَقِيلَ إِنَّهَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِيهَا كِتَابًا «ذَا قَدْرُ»

على رسول «ذِي قَدْرٍ»، لأمة «ذاتِ قَدْرٍ»، فهي «ليلة القدر» العظيم، والفضل العميم، وإليها يشير قوله تعالى في سورة (الدخان: ٣): ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وفي فضل قيامها ورد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه». وفي الحضر على تحريها ورد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ».

الثمن الثاني من الربع الثالث في الحزب الستين
بالمصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ③
وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ④
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ⑤
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي
نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ⑥
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ⑦
جَزَاءُ وَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ⑧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ②
 وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④
 بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا
 لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
 يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالْعَدِيَّتِ صُبْحًا ① فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ② فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ③
 فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ④ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ⑤ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ
 لَكَنُودٌ ⑥ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦ وَإِنَّهُ لِحُبِّ
 الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧

الثلثون الثاني من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عباد الله

موضوع حديث اليوم تفسير الثُّمْنِ الثاني من الربع الثالث في الحزب الستين بالمصحف الكريم، ويشتمل هذا الثُّمْنُ على سورة «البينة» وسورة «الزلزلة» وسورة «العاديات»، وبداية هذا الثُّمْنُ قوله تعالى في فاتحة سورة «البينة»: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، ونهايته قوله تعالى في سورة «العاديات»: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

أول ما نتحدث عنه سورة «البينة» هو التعريف بموقف الكافرين والمشركين من رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، ذلك الموقف المضطرب المتناقض، فقد كان أهل الكتاب على أثاره من العلم بالرسول «الخاتم»، وكان المشركون يبررون ما هم عليه بعدم إرسال رسول إليهم مثل غيرهم، فلما جاءهم رسول من عند الله جحدوا الرسالة وكذبوا الرسول، وبدلاً من أن يتدبروا ما جاء به من الآيات البينات، وينصرفوا عما هم عليه من فاسد المعتقدات، حسبما كان منتظراً، أصروا على ما هم فيه من الضلال، ولم ينفكوا عن المماحكة والجدال، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

وتعريفاً «بالبيّنة» التي جاء بها الرسول، وتأكيذاً لأن ما جاء به كُله دلائل واضحة وبراهين ساطعة من المحسوس والمعقول، قال تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَلَلهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ ، أي: يقرأ عليكم صُحُفًا منزّهة عن كل المَطَاعِنِ والشُّبُهَاتِ، ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ ، أي: فيها آيات مكتوبة كلها ناطقة بالحق، مستقيمة لا عوج فيها، على غرار قوله تعالى في سورة (الكهف: ١): ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ .

ثم خصّ كتاب الله بالذكر «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى لعظم مسؤوليتهم، فقد كانوا على علم بظهور الرسول «الخاتم» والرسالة «الخاتمة»، وكانوا يُشِّرون المشركين ببعثته ورسالته، مبيّناً ما آل إليه أمرهم بعد ظهور الرسول والرسالة من الجحود والإنكار، والحسد والاستكبار، مما كان له أثر كبير على المشركين في التمسك بشركهم، اقتداءً بتمسك الكافرين بكفرهم، فقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ ، والمراد «بتفرقهم» تفرقهم عن الحق، أو تفرقهم فرقاً، فمنهم من آمن، ومنهم من أنكر، ومنهم من عرف الحق وعاند.

وانتقل كتابُ الله إلى التذكير بمضمون الدعوة الإسلامية،

والتعريف بجوهرها وفحواها، وأنها دعوة جامعة للناس أجمعين، إلى عبادة الله وحده، وإفراده بالطاعة والعبودية، وأداء حقوق الله - وعلى رأسها إقامة الصلاة - وأداء حقوق العباد - وعلى رأسها إيتاء الزكاة - مع الإخلاص لله في القول والعمل، والإبتعاد عن كل ما هو باطل وفساد، نيةً واعتقاداً، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى، مذكراً أهل الكتاب بما أمروا به في الكُتُبِ الْمُنزَلَةِ: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾، أي: لا يميلون إلى الباطل من قريب ولا من بعيد، ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾، ثم قال تعالى منوهاً بدين الحق والمبادئ السامية التي يدعو إليها، ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾، أي: ذلك دين الملة المستقيمة، ودين الشريعة المستقيمة.

وتولَّى كتابُ الله في هذا السياق التعريف «بخير الخلق» والتعريف «بشر الخلق»، وما يكون عليه كلا الفريقين في الدنيا والآخرة من حق أو باطل، وسعادة أو شقاء، فقال تعالى واصفاً لحال الأشرار في كل عصر: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾، أي: هم شرار الخلق، وقال تعالى واصفاً لحال الأخيار في كل جيل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾، أي: هم خيار الخلق، ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾، أي: جنات استقرار وإقامة ودوام، ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾، أي: مقيمين فيها باستمرار، ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾، أي: حقق لهم جميع الأمناني، ثم خَلَعَ

عليهم رداء الرضوان الذي لا سَخَطَ بعده أبداً، «ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم» (التوبة: ٧٢) ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾، أي: رضوا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورَسُولاً، وشكروا إحسان الله إليهم، وَنِعْمَهُ عَلَيْهِم، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾، أي: إن هذا الجزاء الحسن إنما يناله من اتقى الله حق تقواه، وَعَبَدَهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، وَعَلِمَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ.

وبعد الانتهاء من سورة «البينة» المدنية تستقبلنا سورة «الزلزلة»، وهي مكية على الأرجح، وهذه السورة تُصَوِّرُ حالة الإنسان، وما يكون عليه من الذهول والفرع عندما تقوم الساعة، التي هي «يوم الفرع الأكبر»، وَيُحَشِّرُ الناس من كل مكان للجزاء والحساب، والثواب والعقاب، وذلك قوله تعالى بعد البسملة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، أي: إذا زلزلت الأرض زلزالها الذي لم يسبق له مثيل، وأضيف «الزلزال» إلى «الأرض» لأنه «زلزال، كَلْبِي» يعمُّ الكوكب الأرضي بأسره من أدناه إلى أقصاه، لا «زلزال» جُزْئِيٍّ يَخْصُّ جانباً منه دون آخر، ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، أي: لَفِظَتْ ما في جوفها من الدفائن والخزائن، والكنوز والمعادن، وَأَلْقَتْ ما في بطنها من أفلاذِ كبدها، وَحَشَرَتْ مَخْتَلِفِ الأحياء الذين يُوجَدون بها إِلَى سطحها، ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾، أي: أن الإنسان على العموم يُفَاجَأُ بما يواجهه من أحوال وأحوال لم يسبق له أن عَايَنَهَا من قبل، «وليس الخبرُ كالعيان»، «فالمومن بالبعث» إنما يتساءل متعجباً مما يراه من الهول العظيم، و«الكافر بالبعث» يتساءل مستنكراً قيام الساعة نفسه، لأنه كان

يعتقد أنه مجرد أسطورة من أساطير الأولين، الأول يقول: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (يس: ٥٢). والثاني يقول: ﴿ يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ (يس: ٥٢).

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾، فسرهُ ابن مسعود والثوري وغيرهما بأن يخلق الله في الأرض نفسها حياة وإدراكاً، فتشهد بما عمل عليها من صالح أو فاسد، وفسره ابن جرير وغيره بإحداث الله تعالى في الأرض أحوالاً تقوم مقام التحديث باللسان، حتى ينظر من يقول: «مالها» إلى تلك الأحوال، فيعلم أن هذا هو ما كان الأنبياء يُنذرون به ويُحدِّثون عنه، ومعنى الآية عند الزمخشري: «تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بسبب إحياء ربك لها، وأمره إياها بالتحديث» ومعنى «أوحى لها» ألهمها، أو أذن لها.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴾، أي: ليحاسبوا، يمكن تفسيره على وجهين كلاهما صحيح: - الوجه الأول - يَصْدُرُ النَّاسُ عن مخارجهم من القبور إلى موقف الحساب، فرادى، كل واحد وحده لا ناصر له ولا معين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الأنعام: ٩٤). - والوجه الثاني - يَصْدُرُ النَّاسُ عن موقف الحساب متفرقين حسب أعمالهم، بين سعيد يُومر به إلى الجنة، وشقي يُومر به إلى النار، وقال السدي: «أشتاتاً»، أي: فرقاً، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾، أي: يره في كتاب حسابه ويسره ما يراه، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾، أي:

يرُهُ فِي سَجِلِّ حَسَابِهِ وَيُحْزِنُهُ ذَلِكَ، وَفِي الْأَثَرِ: «مَنْ زَادَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ». وَرَوَى أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكُنَّهُ».

وَالآنَ وَقَدْ فَرَعْنَا مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ «الزَّلْزَلَةِ» نَسْتَعِينُ بِاللَّهِ عَلَى تَفْسِيرِ سُورَةِ «الْعَادِيَاتِ» الْمَكِّيَّةِ، وَهِيَ ثَالِثٌ - وَآخِرُ سُورَةٍ فِي هَذَا الثُّمْنِ، وَفِي مَطْلَعِهَا قَسَمَ مِنَ اللَّهِ عَظِيمٍ، بِالْخَيْلِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ قُوَّةً لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالِدِفَاعِ عَنِ دِينِهِ، فَكَانَتْ عُدَّةَ الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مَخْتَلَفِ بَقَاعِ الْأَرْضِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ الْبِسْمَةِ: ﴿وَالْعَدِيَّتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾، أَقْسَمَ بِخَيْلِ الْغَزَاةِ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، «الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا»، أَي: الَّتِي تَجْرِي وَتَعْدُو عِنْدَ سِيرِهَا، وَ«تَضْبَحُ» أَثْنَاءَ عَدْوِهَا، وَ«الضَّبْحُ» هُوَ الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ مِنْ جَوْفِ الْخَيْلِ حِينَ تَعْدُو، «الْمُورِيَّاتِ قَدْحًا»، أَي: الَّتِي يَنْقَدِحُ الشَّرُّ مِنْ حَوَافِرِهَا إِذَا أَصَابَتْ سَنَابِكُهَا الْحِجَارَةَ بِاللَّيْلِ، «الْمُغِيرَاتِ صُبْحًا»، أَي: الَّتِي تُغَيِّرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَقْتِ الصَّبَاحِ، وَلَا تُبَاغِتُهُمْ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُغَيِّرُ صَبَاحًا وَيَسْتَمِعُ الْأَذَانَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا أَمْسَكَ وَإِلَّا أَغَارَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا﴾، وَصَفَّ لِمَا يَقُومُ بِهِ فُرْسَانُ الْإِسْلَامِ، وَتَقُومُ بِهِ خَيْلُهُمْ، مِنْ إِثَارَةِ الْغِبَارِ، عِنْدَمَا تُقْبَلُ عَلَى سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ، فَتَتَوَسَّطُ جُمُوعُ الْأَعْدَاءِ، وَتَخْتَرِقُ صَفُوفَهُمْ بِكُلِّ شَجَاعَةٍ وَحِمَاسٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، هذا هو الشيء المُقسَم عليه وجواب القسم، وكأنَّ كتاب الله يريد أن يقول: إن نعم الله على الإنسان لا يُحصيها عدٌّ، وفي مقدمتها تمكينه من وسائل القوة والظفر، وتسخير الحق سبحانه وتعالى له طاقات الحيوان والبشر، وبالرغم من ذلك فإنَّ الإنسان يتنكَّر لنعم الله، ويصرفها في غير محلها، ويتصرف فيها تصرف المستهترين السخفاء، والطُّغاة السفهاء، فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، إنه لجاحدٌ لنعمة ربه، كافرٌ بها، غير شاكرٍ لها، وقال الحسن: «الكنود هو اللائم لربه الذي يعدُّ المصائب، وينسى نعم الله عليه». ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، إن الجاحد لنعمة الله ليشهد على جحود نفسه بنفسه، إذ لا يستطيع تكذيب ما ينطق به لسان حاله، وما يتجلى في أقواله وأفعاله، ومن ذلك قول الشاعر: «فكلُّ إناء بالذي فيه ينضح»، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، إن الإنسان تميل نفسه إلى حب المال، والبخل به، والشح في إنفاقه، و«الخير» هنا بمعنى المال، على غرار قوله تعالى في سورة (الفجر: ٢٠): ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾. قال ابن كثير: «وفي معنى هذه الآية مذهبنا: أحدهما: أن المعنى، وإنه لشديد المحبة للمال - والثاني: أن المعنى، وإنه لحريصٌ بخيلٌ، من أجل محبته للمال، وكلاهما صحيح».

الثلث الأول من الربع الأخير في الحزب الستين
بالمصحف الكريم

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ ①
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ② إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ ③

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْقَارِعَةُ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَذْرَبِكُ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ
النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَذْرَبِكُ مَا هِيَ ⑩ نَارُ حَامِيَةٍ ⑪

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ
كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ③

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَيُلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ① الذِّمَّةُ جَمْعٌ مَالٌ وَعَدَدُهُ ②
 يَحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ وَءَاخِلَهُ ③ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ
 فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ
 اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ⑥ أَلَيْتَ تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِئَةِ ⑦
 إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ⑨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ
 كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③
 تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّا كُولٍ ⑤

الثلثون الأول من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عباد الله

في حديث هذا اليوم نتناول تفسير الثُّمْنِ الأول من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم، وهذا الثُّمْن من كتاب الله يشمل بقية سورة «العاديات» وسورة «القارعة» وسورة «التكاثر» وسورة «العصر» وسورة «الهُمَزَة» وسورة «الفيل»، وكلها سور مكية.

وأول هذا الثُّمْن يحتوي على ختام سورة «العاديات» التي تناول الحديث فيها جحودَ الإنسان لنعمة ربه، رغباً عما يتقلب فيه من الهبات الإلهية، والعطايا الربانية، التي لا حدَّ لها ولا حصر، ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤).

ففي ختامها تساءل كتابُ الله هل بلغ الجهل والغرور بالإنسان، الكافر بالله، الجاحد لنعمه، إلى حدِّ أن يتجاهل ما هو مُقبِلٌ عليه - أحبُّ أم كرهَ - من مفارقة القبر بعد نزوله، وانتقاله منه، بعد سكناه الموقته، إلى دار البقاء والخلود، ليُحاسب فيها على ما أصرَّ عليه من الكِبَر والجحود: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾، أي: إذا أُخرج من كان مقبوراً فيها من الأموات،

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾، أي: أبرز ما كان مكتوماً فيها من النيات والسرائر، ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾، أي: أنه سبحانه سيفاجيء الناس يوم القيامة، بأنه كان مطلعاً على جميع أعمالهم وتصرفاتهم، وأنه سيحاسبهم عليها بمقتضاها، ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩).

ومن هنا ننتقل إلى سورة «القارعة» المكية، و«القارعة» أحد الأسماء التي تطلق في كتاب الله على يوم القيامة، كالحاقة، والطامة، والصاخة، والغاشية، وفي هذه السورة يصف الحق سبحانه بعض أهوال الساعة ومشاهدتها الرهيبة، ولا سيما ما يصيب الإنسان عند قيامها من ذهول واضطراب، وما يُصيب الجبال من نسف وخراب، وما ينال السعداء والأشقياء من ثواب وعقاب، وذلك قوله تعالى بعد البسملة: ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾، أي: يوم يكون الناس في حيرة وذهول، متفرقين شذراً مذر، كالفراش الذي أعشى النور بصره، فانتشر من حوله، وتراكم بعضه على بعض، لا يدري ماذا يصنع، ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾، أي: تُصبح الجبال التي كانت أوتاداً صلبة تُرسي الأرض في منتهى الرخاوة واللين والتفتت، كأنها صوف منفوش تذرّوه الرياح، ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾، أي: فأما من رجحت حسناته على سيئاته، فثقلت كفة الحسنات في ميزانه، فهو في عيشة خالدة يرضى عنها الله، ويرضى عنها عبده كل الرضى، إذ يرى فيها وفاءً من الله بوعده، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُخْلِيفُ الْمِعَادَ ﴿ (آل عمران: ٩) ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ، أي: وأما من رجحت سيئاته على حسناته، فخفت كفة الحسنات في ميزانه، فالنار هي أمه ومأواه كما قال ابن زيد وقتادة، وبذلك يكون قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَا أَدْرِيكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ ، تفسيراً قرآنياً «للهاوية». وَلِتَصُورَ ما عليه النار من درجة الحرارة، أعادنا الله منها جميعاً، يكفي أن نعرف قول رسول الله ﷺ في شأنها: «نارُ بني آدم التي تُوقَدُونَ جُزءً من سبعينَ جُزءاً من نار جهنم»، رواه البخاري وأحمد.

ولننظر الآن في تفسير سورة «التكاثر» المكية مستعينين بالله، وهذه السورة يدور الحديث فيها عن استغراق الغافلين، في شؤونهم المادية، ومصالحهم الشخصية، حتى يدركهم الأجل، وهم لم يتزودوا لأخرتهم بأي زاد من العمل الصالح، وفيها تأكيد للخلق، وتعريف لهم بأنهم سيُسألون يوم القيامة عما آتاهم الله من فضله، وسيُحاسَبون على النقيير من نعيمه والقَطْمِير، وذلك قوله تعالى بعد البسملة: ﴿ أَلْهَيْكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ، أي: ألهاكم الانهماك في التفاخر والتكاثر من الأموال والأولاد عن طاعة الله، وأداء حقوقه وحقوق خلقه، ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ ، أي: حتى أتاكم الموت ودُفِنْتُمْ في القبور، دون أن تُقدِّموا بين أيديكم ما ينفعكم عند الله .

والتعبير هنا بلفظ «زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» دون التعبير مثلاً «بَسَكَنْتُمُ الْمَقَابِرَ» فيه إشارة واضحة إلى أن إقامة الإنسان في قبره بعد الموت إنما هي مجرد إقامة مؤقتة، شبيهة بالزيارة أياماً معدودة،

لا سكنى مستمرة، أما منزله الذي سيسكنه وسيستقر فيه فهو إما الجنة وإما النار. عن ميمون بن مهران قال: «كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿أَلْهَيْكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، فليث هنيهة ثم قال: «يا ميمون ما أرى المقابر إلا «زيارة»، وما للزائر بُدٌّ من أن يرجع إلى منزله» قال أبو محمد: «معنى أن يرجع إلى منزله، أي: إلى جنة أو إلى نار».

وقوله تعالى: ﴿كَأَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، هذا وعيدٌ مضاعفٌ من الله تعالى للغافلين عن آخرتهم، الشاكِّين في بعثهم وحسابهم، وقوله تعالى: ﴿كَأَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، هذا تفسير من الله للوعيد الشديد الذي توعد به الشاكِّين والكافرين، وفيه تأكيد بالغ لما سينالهم من عذاب الله، جزاء شكهم وكفرهم، و«عين اليقين» درجةٌ زائدة على «علم اليقين»، إذ هي «الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته».

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، هذا تأكيدٌ قويٌّ لأن الله سبحانه سيتولى سؤال عباده عن كل ما تقلَّبوا فيه من النعم أثناء حياتهم في الدنيا، ومن تلك النعم الأمن والغنى، والشَّبَع، والظَّل، والنوم، واعتدال الخلق، وصحة الأبدان، وسلامة الأسماع والأبصار. قال مجاهد: «النعم عبارة عن كل لذة من لذات الدنيا»، وقال ابن عباس: «يسألهم الله عن نعمه فيما استعملوها، وهو أعلمٌ بذلك منهم»، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

(الإسراء: ٣٦). رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قرأ: ﴿الْهَيْكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، ثم قال: (يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيته، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأَمْضَيْتَ)، رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فِيرْجِعُ اثْنَانُ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فِيرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ»، رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

ولنستقبل الآن سورة «العصر» المكية أيضاً، ومدارُ الحديث في هذه السورة على التعريف بالقيمة الحقيقية لحياة الإنسان، والإشارة إلى أن العبرة في حياته إنما هي بنوع المساعي التي يسعى فيها، والتصرفات التي يتصرفها، خيراً أو شراً، صلاحاً أو فساداً، وفي هذه السورة قَسَمَ من الله «بالعصر»، وهو مفرد العصور، والمراد به الزَّمَن الذي يقطعه الإنسان في حياته، وتقع فيه شتى حركاته وتصرفاته. وكما ذَكَرَ كتابُ الله هنا لفظ «العصر» الذي هو مفرد العصور، ذكر في آية أخرى لفظ «الدهر» الذي هو مفرد الدهور.

والمُقَسَم عليه هنا هو إثبات أن الإنسان يَظَلُّ خاسراً لنفسه ولحياته، ولا يُعْتَبَرُ من الفائزين المفلحين، إلا إذا تحوّل من إنسان جاحِد، فاسِد، أناني، إلى إنسان مومنٍ بالله، قائم بالعمل الصالح، متمسِكٍ بالحق، «ومُوصٍ» لغيره بالتمسك به، معتصم بالصبر، و«مُوصٍ» لغيره بالاعتصام به، وذلك قوله تعالى بعد «الْبَسْمَلَةِ»: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿١٠﴾ ، وقد كتب
عمر بن الخطاب إلى أبي الحسن الأشعري يقول: (عليك بالصبر،
واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر، الصبر في
المصيبات حسن، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى). وقال
علي بن أبي طالب: «بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين،
والصبر، والجهاد، والعدل».

ومن هنا نتقل إلى سورة «الهمزة» المكية أيضاً، معتمدين
على الله.

وهذه السورة يدور الحديث فيها على تنفير المومنين من
الغيبة والنميمة، ومن الطعن في الناس والازدراء بهم قولاً أو
فعلاً، وفيها وعيدٌ شديد من الله بالعذاب الأليم، لمن يتخذ من
أعراض الناس وأحوالهم مجالاً للتنقيص والازدراء، وذلك قوله
تعالى بعد البسملة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، أي: هلاكٌ
وخسارٌ لكل همّاز لَمَّاز، و«الهمّاز اللّمّاز» من يزدرى الناس بقوله
أو بفعله، بعينه أو لسانه أو يده، قال ابن عباس: «هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ أَي
طَعَّانٌ مِعْيَابٌ» وقال الربيع بن أنس: «الهُمَزَةُ يَهْمِزُهُ فِي وَجْهِهِ،
وَاللُّمَزَةُ يَلْمِزُهُ مِنْ خَلْفِهِ».

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ
أَخْلَدَهُ﴾، هذا وعيد من الله بالخصوص لأولئك الذين يطغيهم
الغنى والمال، فينظرون إلى من دونهم من الفقراء، نظرة التحقير
والازدراء، ويتخذون منهم مادة رخيصة لسخريتهم وهمزهم
ولمزمهم من أجل كونهم ضعفاء، ﴿كَأَلَّا لِيُبْنِدَنَّ فِي إِحْطَمَةِ وَمَا

أَدْرِيكَ مَا الْحُطْمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ الَّتِي تَطَّلُعُ عَلَى الْأَفْتِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٤٦﴾، أي: مُّقْفَلَةٌ عَلَيْهِمْ بَحِيثٌ لَا يَفَارِقُونَهَا، ﴿٤٧﴾ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدَةٍ ﴿٤٨﴾، أي: فِي قِيُودٍ ثَقِيلَةٍ لَا يُفْلَتُونَ مِنْهَا.

ولنلقِ الآنَ نظرةً على سورة «الفيل» المكيّة أيضاً، وهذه السورة تتضمّنُ امتناناً من الله على رسوله بأحد «الإرْهَاصَاتِ» الكبرى التي سبقت ولادته ونبوته، فقد عزم «أبرهة الحبشي» على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود قبيل ولادة الرسول عليه السلام، وأقبل على مكة في جيش عرمرم تتقدّمه الفيلة، وعلى رأسها فيل أبرهة نفسه، وكان فيلاً ضخماً الجثة لم ير مثله، فلما وجهوه نحو «الكعبة» برك في مكانه، واستعصى عليهم أمره، رغماً عن ضربه ضرباً مبرحاً، وكان كلما وجهوه نحو الجهات الثلاث الأخرى يهرول ويسير، حتى إذا ما وجهوه نحو «الكعبة» صاح وبرك من جديد، وامتنع من السير، وبينما هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر ثلاثة أحجار، كل حجر دون حبة الحمص وفوق حبة العدس، واحد في منقاره واثنان في مخالبه، ولم تُصب تلك الأحجار أحداً منهم إلا هلك في الحين، فخرج من بقي منهم يتسردون الطريق هاربين، وبقيت الكعبة رابضةً في مكانها خالدةً إلى يوم الدين.

قال ابن إسحاق: «حدّثني يعقوب بن عتبة أنه حدّث أن أول ما رويت الحصبّة والجُدريّ بأرض العرب ذلك اليوم، فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يعدّ على قريش من نعيمه عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة» وقال ابن كثير: «ان هذا من باب

الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام وُلِدَ على أشهر الأقوال، ولسان حال القَدَر يقول: «لَمْ نَنْصِرْكُمْ يَا معشر قريش على الحَبْشَةَ لخيريتكم عليهم، ولكن صيانةً للبيت العتيق الذي سنسرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد ﷺ خاتم الأنبياء؟» وذلك ما يشير إليه قوله تعالى خطاباً لنبيه وامتناناً عليه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾، أي: أبطل كيدهم، وخيب سعيهم، يقال: «ضَلَّلَ كَيْدَهُ» إذا أَبْطَلَهُ وجعله ضائعاً، ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾، أي: أسراباً متتابعة، ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾، أي: طين مطبوخٍ بالنار مختلطٍ بحجر، ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾، أي: كالتبن الذي جُرَّ لَعْفُ الدَّوَابِّ فَأَكَلَتْهُ وَرَأَتْهُ، وهذا التعبيرُ جاء على أسلوب «أدب القرآن»، على غرار قوله تعالى: ﴿ كَانَا يَأْكُلْنَ الطَّعَامَ ﴾، قال أبو حيان في تفسيره، (البحر المحيط): في خطابه تعالى لنبيه ﷺ بقوله: ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾، تشريفٌ له عليه السلام، وإشادةً بذكره، كأنه قال: ﴿ رَبُّكَ وَمَعْبُودُكَ هُوَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ، لَا أَصْنَامُ قَرِيشَ، إِسَافٌ وَنَائِلَةٌ وَغَيْرُهُمَا. »

وقال القشيري في «لَطَائِفِ الْإِشَارَاتِ»، إشارةً إلى دور- عبدِ المَطْلَبِ في هذه القصة، ودعائه على أبرهة الحبشي وَجَيْشِهِ دَفَاعاً عن البيت: «إِذَا كَانَ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ عِنْدَمَا أَخْلَصَ فِي التَّجَائِهِ إِلَى اللَّهِ، لَا اسْتِدْفَاعَ الْبَلَاءِ عَنِ الْبَيْتِ، لَمْ يُخَيِّبِ اللَّهُ رَجَاءَهُ، وَسَمِعَ دَعَاءَهُ، فَالْمُؤْمِنُ الْمَخْلَصُ إِذَا دَعَا رَبَّهُ لَا يَرُدُّهُ خَائِبًا.»

الثلثون الثاني من الربع الأخير في الحزب الستين
من المصحف الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا يَلْفِ قَرِيْشٍ ① اءَلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا
رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ اَلَّذِيْ اَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَّءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ④

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اَرَاَيْتَ اَلَّذِيْ يُّكَذِّبُ بِالْاِیْمَانِ ① فَاذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ اَلْبَيْتِيْمَ ②
وَلَا يَحْضُ عَلٰی طَعَامِ الْمَسْكِيْنِ ③ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّيْنَ ④ اَلَّذِيْنَ هُمْ عَنِ
صَلَاتِهِمْ سَاهُوْنَ ⑤ اَلَّذِيْنَ هُمْ بِرَاۗءِ وَاَنْ ⑥ وَيَمْنَعُوْنَ الْمَاعُوْنَ ⑦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَاَنْحَرِ ② اِنْ شِئْتَنَّاكَ هُوَ اَلَا يَبْرُؤُ ③

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ يَاۡٓاَيُّهَا الْكٰفِرُوْنَ ① لَا اَعْبُدُ مَا تَعْبُدُوْنَ ② وَلَا اَنْتُمْ عٰبِدُوْنَ مَا اَعْبُدُ ③
وَلَا اَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ④ وَلَا اَنْتُمْ عٰبِدُوْنَ مَا اَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِيْنُكُمْ وِلِي دِيْنِي ⑥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ
 اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 نَبَتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ أُولَا
 ذَاتِ لَهَبٍ ③ وَأَمْرًاؤُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ
 وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ②
 وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ
 فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِهِ

إِنَّمَا ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي
يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥



الثمن الثاني من الربع الأخير في الحزب الستين بالمصحف الكريم

عباد الله

حديث هذا اليوم هو مسك الختام لأحاديثنا التفسيرية، وستناول فيه بحول الله وقوته «السور التسع» الباقية من الحزب الستين في المصحف الكريم، ابتداءً من سورة «قريش» وانتهاءً بسورة «الناس»، وكلُّها سُورٌ مكية، ما عدا سورة «النصر».

أما سورة «قريش» وهي الأولى في هذا الحديث، فرغماً عن كونها مستقلةً عن سورة «الفيل» التي قبلها، ومفصولةً عنها في «المصحف الإمام» هي في الحقيقة متعلقةٌ بها وتتمةٌ لها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمان بن زيد، فَمَعْنَى قوله تعالى: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ﴾، عند ابن إسحاق وابن زيد: «حَبَسْنَا عَنْ مَكَّةَ الْفَيْلِ، وَأَهْلَكْنَا أَهْلَهُ «لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ»، أَي: لِاتِّلَافِهِمْ وَاسْتِمْرَارِ اجْتِمَاعِهِمْ فِي بِلَدِهِمْ آمَنِينَ، وَكَذَلِكَ لِمَا سَيُؤَوَّلُ إِلَيْهِ أَمْرُ مَكَّةَ وَالْكَعْبَةِ، عِنْدَمَا يُبْعَثُ إِلَى الْخَلْقِ خَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ.

وقوله تعالى: ﴿إِيْلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾، امتنانٌ من الله على قريش بما أفاضه عليهم من الرزق الواسع، عن

طريق القوافل التجارية، التي كانت تسير في الشتاء إلى اليمن جنوباً، وفي الصيف إلى الشام شمالاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾، دعوة من الله لقريش أن يشكروا نعمته عليهم، وأن يُطهِّروا بيته الحرام من الأصنام والأوثان، إذ «البيت الحرام» بيت الله، ولا رَبَّ للبيت يستحقُّ العبادة سواه. قال القشيري: «ووجه المِنَّة في الإطعام والأمان هو أن يتفرَّغوا إلى عبادة الله، فإنَّ من لم يكن مكفياً الأمور لا يتفرَّغ إلى الطاعة، ولا تساعده القوة ولا القلب إلا عند السلامة بكل وجه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ (البقرة: ١٥٥)، فقدم «الْخَوْف» على جميع أنواع البلاء».

وتواجهنا بعد ذلك سورة «الماعون»، وهذه السورة تكشف النقاب عن سريرة المكذِّبين بالبعث والجزاء، وأن الدافع لهم إلى التكذيب بالنشأة الآخرة هو علمهم بأنهم ليسوا على شيء، وخوفهم من سوء العاقبة، لما هم عليه من قبض في اليد، وغفلة في الفكر، وقسوة في القلب، ورياء للناس، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى بعد البسملة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾، أي: يُكذِّب بالمعاد والجزاء، ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْاَيْتِيمَ﴾، أي: يظلمه ويقهره ولا يُحسِن إليه، ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، أي: ساهون عن فعلها بالمرة، أو ساهون عن أدائها في الوقت المقرَّر لها شرعاً، أو ساهون عن الخشوع فيها والتدبُّر لمعانيها. قال ابن كثير: «فهذا

اللفظُ يشمل ذلك كله. ولكل من اتصفَ بشيء من ذلك قسَطُ من الآية، ومَن اتصفَ بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها، وكَمُلَ له النفاقُ العملي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق»، الحديث.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾، أي: الذين يُراءون الناس بأعمالهم وعباداتهم، ويفعلونها من أجل رُؤية الناس، ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، أي: يمنعون بذل المعروف كما فسره محمد بن كعب. قال عكرمة: «رأسُ الماعون زكاة المال، وأدناه المنخل والدلو والإبرة». وقال ابن كثير: «هذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد، هو أن المراد «بمنع الماعون» تركُ المعاونة بمال أو منفعة».

والآن فلنقف وقفةً خاصة عند سورة «الكوثر»، والخطابُ الإلهي في هذه السورة الكريمة موجّهٌ إلى الرسول عليه السلام، وهي تتضمن امتنان ربه عليه بما أعطاه من الخير الكثير في الدنيا والآخرة، كما تتضمن أمره بالاستمرار على ما هو عليه من التوجه إلى الله في صلاته ونُسكِهِ في كل حين، وذلك قوله تعالى بعد البسمة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾، قال ابن عباس: «الكوثرُ هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه»، وقيل لسعيد بن جبير: «إن ناساً يزعمون أنه نهرٌ في الجنة»، فقال سعيد: «النهرُ الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه». ورُوي عن أنس وأبي العالية ومجاهد وغير واحد من السلف: «أن الكوثر نهر في الجنة».

وقوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴾، أي: أخلص صلواتك لربك، وبذلك تخالف المشركين الذين يعبدون غير الله، وأخلص نحرَكَ لربك، وبذلك تخالف المشركين الذين لا يذكرون على ذبائهم اسم الله، على غرار قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)، قال ابن كثير: (والصحيح أن المراد «بالنحر» ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يُصَلِّي العيد ثم يَنْحَرُ نُسُكَهُ ويقول: «من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النُّسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له»).

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ شَأْنِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾، دفاع من الله عن كرامة رسوله، فقد تهجم أبو لهب على مقام الرسول عليه السلام، وقال عنه إنه «قَدُّبْتِر» لوفاة ابنه الذَّكْر، وكان العربُ يقولون ذلك، لمن مات أولاده الذكور، يريدون أنه إذا مات الابن الذكر أصبح أبوه «أبتر»، وانقطع ذكره، غير أن «أبا لهب» الذي شنأ الرسول عليه السلام، ومثله كل من حمل لرسول الله ﷺ عداوة أو بغضاً، هو الذي بتره الله من الوجود. وقد كتب قلم القدرة اسم «محمد» وآله الطاهرين في سجل الخلود، وها هو ذكره باقي على رؤوس الأَشْهَاد، وحبه يملأ في دُنْيَا الإسلام كل فؤاد.

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الكافرون» وهذه السورة عبارة عن «برأة» من الشرك والمشركين، والكفر والكافرين، يُعلنها كل مسلم في كل حين، بتصميم وعزم ويقين: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ ﴿٤١﴾، على حد قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٤١)، قال القشيري: «والعبودية لله هي القيام بأمره على الوجه الذي به أمر، وبالقدر الذي به أمر، وفي الوقت الذي فيه أمر».

والآن نستقبل سورة «النصر» المدنية، وهذه السورة بشارة من الله لرسوله بما سيناله الإسلام من الظهور والانتشار، في مختلف الديار، وما سيقع من تسابق بين الأمم والشعوب على اعتناقه، وتفانٍ في سبيل رفع رايته ومدِّ رواقه، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾، أي: يُسَلِّمُونَ جماعات جماعات، شعوباً وقبائل، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

قال ابن كثير: «والمراد (بالفتح) هنا فتح مكة قولاً واحداً، فإنَّ أحياء العرب كانت تتلوُّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبيٌّ. فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمضِ سنتان حتى استوسقت له جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، والله الحمد والمنة».

ومن المعاني التي فهمها ابن عباس من هذه السورة ووافقه

عليها عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنهما أنها حينما نزلت نعتُ
 لرسول الله ﷺ نفسه، فأخذ بأشد ما كان قَطُّ اجتهاداً في أمر الآخرة.
 ويناسب هذا التأويل قوله تعالى في ختام السورة: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ
 رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ .

ومن هنا ننتقل إلى سورة «المسد»، وهذه السورة وعيد
 شديد من الله «لفرعون قريش» المكنى «بأبي لهب» لإشراق وجهه
 ووضاءته في البداية، ولتعذيبه «بلهيب» النار في النهاية، واسمه
 عبدُ العزّي، وقد كان كثير الإذاية لرسول الله ﷺ والبُغض له
 ولدينه، والدعاية ضده في الأسواق والمجتمعات يُلاحقه في كل
 مكان يحلُّ به للدعوة إلى دين الله، وكان أحول العينين، ذا
 غَدِيرَتَيْن، ففي شأنه وشأن زوجته يقول الله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ
 الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾، أي: خسرت يدها،
 وضل سعيه وعمله، ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾، أي: ما
 أغنى عنه ذلك كله شيئاً، ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ
 الْحَطَبِ ﴾، إشارة إلى أنها كانت تحمل الشوك وتلقيه في طريق
 الرسول عليه السلام وصحبه الكرام، وإذا كانت في الدنيا عوناً
 لزوجها على كفره وعناده، فستكون في الآخرة عوناً عليه في
 عذابه، تحمل الحطب وتلقيه على زوجها في النار. ﴿ فِي
 جِيدِهَا ﴾، أي: في عنقها، ﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾، قال مجاهد:
 «أي في جيدها طوق من حديد. وقال سعيد بن المسيب: «كانت
 لها قلادة فاخرة، فقالت لأنفقنها في عداوة محمد، فأعقبتها الله
 منها حبلاً في جيدها من مسد النار.» و«المسد» في الأصل ليفٌ

يُتَّخَذُ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ وَمِنْ الْجِلْدِ أَوْ غَيْرِهِمَا «فِيْمَسَدُ» أَي يُفْتَلِ .

وبعد الانتهاء من «سورة المَسَد» نتناول سورة «الإِخْلَاص» مستعينين بالله، وهذه السورة الكريمة نزلت رَدًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ: «يَا مُحَمَّدُ أَنْسُبْ لَنَا رَبَّكَ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ: «لَمَّا قَالَتِ الْيَهُودُ نَحْنُ نَعْبُدُ عَزْرِيْرَ ابْنَ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى نَحْنُ نَعْبُدُ الْمَسِيْحَ ابْنَ اللَّهِ، وَقَالَتِ الْمَجُوسُ نَحْنُ نَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَالَتِ الْمُشْرِكُونَ نَحْنُ نَعْبُدُ الْأَوْثَانَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، يَعْنِي هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا نَظِيْرَ لَهُ، وَلَا يُطَلَّقُ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى أَحَدٍ فِي الْإِثْبَاتِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْكَمَالِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، أَي: السَيِّدُ الَّذِي يَضْمُدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقَ فِي حَوَائِجِهِمْ وَرَغْبَاتِهِمْ وَيَلْجَأُونَ إِلَيْهِ فِي الْأَزْمَاتِ وَالشَّدَائِدِ:

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، نَفْيٌ لِجَمِيعِ الْمَعْتَقَدَاتِ الْبَاطِلَةِ، الَّتِي شَاعَتْ بَيْنَ أَتْبَاعِ الْأَدْيَانِ الْأُخْرَى، الْكِتَابِيَّةِ مِنْهَا وَغَيْرِ الْكِتَابِيَّةِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ وَالِدٌ، وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، أَي: لَيْسَ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ نَظِيْرٌ يُسَامِيهِ أَوْ يَدَانِيهِ، وَلِذَلِكَ تَنَزَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ عَنِ اتِّخَاذِ الزَّوْجَةِ، كَمَا تَنَزَّهَ عَنِ الْوَلَدِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: (٦: ١٠١): ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿ (الأنعام: ١٠١).

قال القشيري: «يقال هذه السورة بعضها تفسير لبعض: مَنْ هو الله؟ هُوَ اللهُ. مَنْ اللهُ؟ هُوَ الأَحَدُ. مَنْ الأَحَدُ؟ هُوَ الصَّمَدُ. مَنْ الصَّمَدُ؟ هُوَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. مَنْ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ؟ هُوَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

ومن هنا ننتقل إلى سورة «الفلق» ويطلق عليها وعلى سورة «الناس» بعدها اسم «المُعَوِّذَتَيْنِ»، وهذه السورة والتي تليها كلاهما توجيه من الله لرسوله والمؤمنين إلى الالتجاء لكَفِّ اللهُ، والاحتماء بِحِمَاهُ، من كل أمر مَخُوفٍ، ظاهرٍ أو خَفِيٍّ، معلومٍ أو مَجْهُولٍ، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ومعنى «الفلق» «فَلَقُ الصَّبْحِ». وهذا المَعْنَى هو الذي صَوَّبَهُ ابن جرير في تفسيره، واختاره البخاري في صحيحه. وقال البعض: «إن معنى الفلق عموم الخلق»، ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، أي: الشمس إذا غَرَبَتْ، والليل إذا أَقْبَلَ بِظِلَامِهِ، ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، أي: من شرِّ النساءِ السَّوَاحِرِ، اللاتي يتعاطين السحر، وينفثن في العُقَدِ، ويوهمن إدخال الضرر على الغير بذلك، ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، أي: إذا ركز حقد نفسه الشريرة على ذات المحسود، وعلى النعم التي يتقلب فيها.

ونختم بسورة «الناس»، ومدار الحديث فيها الاستعاذة برب الناس من «شر الوسواس الخناس»، وذلك قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ
مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿١﴾

فها هنا توجيهٌ من الله للرسول والمومنين إلى الاعتصام بحبل الله، والالتجاء إليه، والاحتِماء بما له من صفات الربوبية والمُلْك والألوهية، تلك الصفات التي يتصرّف بها سبحانه في الكون، ويهيمنُ بها على مقاليد السماوات والأرض، وإلى سؤاله سبحانه وتعالى أن يعصم المومنين من وساوس الشيطان، وأن يعينهم على التخلص من كيدهِ وإغرائهِ وإغوائهِ، قال ابن عباس: «الشيطان جائئٌ على قلب ابن آدم، فإذا سَهَا وغفل وَسَّوسَ. وإذا ذَكَرَ اللَّهُ خَنَّسَ» و«إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»، كما ورد في الحديث الشريف.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، تفسيرٌ للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن، على غرار قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٢).

وهذه السورة الكريمة تبين لكل ذي عقل أن في إمكانه أن لا يسقط فريسة للشيطان وعمَلَاتِهِ، وأن لا يكون مغلوباً على أمره إزاء وساوسه ومكائده، وذلك إذا التجأ إلى ربه وملكه وإلهه المسيطر على الخلق كلِّهِ، ولم يقطع صلته به في أي وقت من الأوقات، فمن ذَكَرَ الله واعتصم بحبله كان في نجوةٍ من كل شر،

وكان في مأمن من كل وسواس، لأنه في حماية رب الناس، ملك
الناس إله الناس.

صدق الله العظيم

* * *

والآن وقد أكرمنا الله جميعاً بختم القرآن، فلتوجه إلى الله
ضارعين خاشعين، سائلين منه سبحانه أن يختم لنا بالخاتمة
الحسنى، وأن يصلح الأمة المحمدية، ويجعل كتابه شفاءً
لأدوائها، ورحمةً لأبنائها، وأن يهديها سواء السبيل، ويُعيد لها
مَجْدَهَا الأثيل، ويجمع آراء قَادَتِهَا وكَلِمَتَهُمْ على الحق والصدق،
ويملأ قلوبهم بالمحبة والرفق، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولأشياخنا
ولجميع المسلمين.

اللهم اجعل القرآن لنا ولكافة المسلمين في الدنيا قريناً،
وفي القبر مؤنساً، وعلى الصراط نوراً، وفي الجنة رفيقاً، ومن
النار سِترًا وحِجاباً، وإلى الخيرات كُلِّهَا دليلاً، وصلى الله على
سيدنا محمد خير خلقه وخاتم أنبيائه، وآله وصحبه، وسلم
تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

تفسير الحزب الواحد والخمسين من المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الواحد والخمسين ٥
 (وفيه بداية سورة الأحقاف)
- الربع الثاني من الحزب الواحد والخمسين ١٦
 (وفيه نهاية سورة الأحقاف وبداية سورة محمد)
- الربع الثالث من الحزب الواحد والخمسين ٢٦
- الربع الأخير من الحزب الواحد والخمسين ٣٥
 (وفيه نهاية سورة محمد وبداية سورة الفتح)

تفسير الحزب الثاني والخمسين من المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الثاني والخمسين ٤٦
 (وفيه نهاية سورة الفتح)
- الربع الثاني من الحزب الثاني والخمسين ٥٧
 (وفيه بداية سورة الحجرات)
- الربع الثالث من الحزب الثاني والخمسين ٦٦
 (وفيه نهاية سورة الحجرات وبداية سورة ق)
- الربع الأخير من الحزب الثاني والخمسين ٧٧
 (وفيه نهاية سورة ق وبداية سورة الذاريات)

تفسير الحزب الثالث والخمسين من المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الثالث والخمسين ٨٧
(وفيه نهاية سورة الذاريات وبداية سورة الطور)
- الربع الثاني من الحزب الثالث والخمسين ٩٨
(وفيه نهاية سورة الطور وبداية سورة النجم)
- الربع الثالث من الحزب الثالث والخمسين ١١٠
(وفيه نهاية سورة النجم وبداية سورة القمر)
- الربع الأخير من الحزب الثالث والخمسين ١٢٤
(وفيه نهاية سورة القمر)

تفسير الحزب الرابع والخمسين من المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الرابع والخمسين ١٣٣
(وفيه نهاية سورة الرحمان)
- الربع الثاني من الحزب الرابع والخمسين ١٤٣
(وفيه بداية سورة الواقعة)
- الربع الثالث من الحزب الرابع والخمسين ١٥٤
(وفيه نهاية سورة الواقعة وبداية سورة الحديد)
- الربع الأخير من الحزب الرابع والخمسين ١٦٥
(وفيه نهاية سورة الحديد)

تفسير الحزب الخامس والخمسين من المصحف الكريم

- الربع الأول من الحزب الخامس والخمسين ١٧٨
(وفيه بداية سورة المجادلة)
- الربع الثاني من الحزب الخامس والخمسين ١٩٠
(وفيه نهاية سورة المجادلة وبداية سورة الحشر)
- الربع الثالث من الحزب الخامس والخمسين ٢٠٤
(وفيه نهاية سورة الحشر وبداية سورة الممتحنة)

- الربع الأخير من الحزب الخامس والخمسين ٢١٣
(وفيه نهاية سورة الممتحنة ونهاية سورة الصف)
- تفسير الحزب السادس والخمسين من المصحف الكريم
- الربع الأول من الحزب السادس والخمسين ٢٢٦
(وفيه نهاية سورة الجمعة وبداية سورة المنافقين)
- الربع الثاني من الحزب السادس والخمسين ٢٣٨
(وفيه نهاية سورة المنافقين ونهاية سورة التغابن)
- الربع الثالث من الحزب السادس والخمسين ٢٤٩
(وفيه نهاية سورة الطلاق)
- الربع الأخير من الحزب السادس والخمسين ٢٥٩
(وفيه نهاية سورة التحريم)
- تفسير الحزب السابع والخمسين من المصحف الكريم
- الربع الأول من الحزب السابع والخمسين ٢٧٠
(وفيه نهاية سورة الملك وبداية سورة القلم)
- الربع الثاني من الحزب السابع والخمسين ٢٨٢
(وفيه نهاية سورة القلم وبداية سورة الحاقة)
- الربع الثالث من الحزب السابع والخمسين ٢٩٤
(وفيه نهاية سورة الحاقة وبداية سورة المعارج)
- الربع الأخير من الحزب السابع والخمسين ٣٠٦
(وفيه نهاية سورة المعارج ونهاية سورة نوح)
- تفسير الحزب الثامن والخمسين من المصحف الكريم
- الربع الأول من الحزب الثامن والخمسين ٣١٦
(وفيه نهاية سورة الجن وبداية سورة المزمل)
- الربع الثاني من الحزب الثامن والخمسين ٣٢٨
(وفيه نهاية سورة المزمل ونهاية سورة المدثر)

- ٣٣٩ الربع الثالث من الحزب الثامن والخمسين
(وفيه نهاية سورة القيامة وبداية سورة الإنسان)
- ٣٥٠ الربع الأخير من الحزب الثامن والخمسين
(وفيه نهاية سورة الإنسان ونهاية سورة المرسلات)

تفسير الحزب التاسع والخمسين من المصحف الكريم

- ٣٦٣ الربع الأول من الحزب التاسع والخمسين
(وفيه نهاية سورة النبأ وبداية سورة النازعات)
- ٣٧٥ الربع الثاني من الحزب التاسع والخمسين
(وفيه نهاية سورة النازعات ونهاية سورة عبس ونهاية سورة التكوين)
- ٣٨٧ الربع الثالث من الحزب التاسع والخمسين
(وفيه نهاية سورة الانفطار ونهاية سورة المطففين وبداية سورة الانشقاق)
- ٣٩٨ الربع الأخير من الحزب التاسع والخمسين
(وفيه نهاية سورة الانشقاق ونهاية سورة البروج ونهاية سورة الطارق)

تفسير الحزب الستين من المصحف الكريم

- ٤٠٩ الربع الأول من الحزب الستين
(وفيه نهاية سورة الأعلى ونهاية سورة الغاشية ونهاية سورة الفجر)
- ٤٢٣ الربع الثاني من الحزب الستين
(وفيه نهاية سورة البلد ونهاية سورة الشمس ونهاية سورة الليل ونهاية سورة الضحى)
- ٤٣٦ الثمن الأول من الربع الثالث من الحزب الستين
(وفيه نهاية سورة الشرح ونهاية سورة التين ونهاية سورة العلق ونهاية سورة القدر)
- ٤٤٩ الثمن الثاني من الربع الثالث من الحزب الستين
(وفيه نهاية سورة البينة ونهاية سورة الزلزلة وبداية سورة العاديات)

- ٤٥٨ الثمن الأول من الربع الأخير من الحزب الستين
(وفيه نهاية سورة العاديات ونهاية سورة القارعة ونهاية سورة
التكاثر ونهاية سورة العصر ونهاية سورة الهمزة ونهاية سورة الفيل)
- ٤٦٨ الثمن الثاني من الربع الأخير من الحزب الستين
(وفيه نهاية سورة قريش ونهاية سورة الماعون ونهاية سورة
الكوثر ونهاية سورة الكافرون ونهاية سورة النصر ونهاية سورة
المسد ونهاية سورة الإخلاص ونهاية سورة الفلق ونهاية سورة
الناس)

دار الغرب الإسلامي
لصاحبها : الحبيب المصي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 - م.ب. 113-5787 بيروت - لبنان

رقم الإيداع القانوني

١٩٨٣ - ٤٢٧

الرباط

الرقم 85/8/3000/49

التنفيذ : كومبيو تايب للصف الطباعي الإلكتروني

الطباعة: مؤسسة جواد - بيروت
